

# الأكاديمية العربية الدولية



## الأكاديمية العربية الدولية المقررات الجامعية

## تعريف القرآن الكريم :

### تعريفه في اللغة:

"قرأ": تأتي بمعنى الجمع والضم، القراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقرآن في الأصل كالقراءة: مصدر قرأ قراءة وقرآنًا. قال تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقَرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}. أي قراءته، فهو مصدر على وزن "فعلان" بالضم: كالغفران والشكران.

\*\* ويطلق على الكل قرآن، ويطلق على كل آية من آياته قرآن، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}

### تعريفه في الاصطلاح:

القرآن الكريم يتعدى تحديده بالتعريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص. بحيث يكون تعريفه حداً حقيقةً، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهوداً في الذهن أو مشاهداً بالحس لأن تشير إليه مكتوباً في المصحف أو مقروءاً باللسان فتقول: هو ما بين هاتين الدفتين، أو تقول: هو من {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ... إلى قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} .

ويذكر العلماء تعريفاً له يقربُ معناه ويميزه عن غيره، فيعرفونه بأنه:

"كلام الله تعالى، حقيقة، المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - المتعبد بتلاوته".

فـ "الكلام" جنس في التعريف، يشمل كل كلام.

وإضافته إلى "الله" يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

وـ "حقيقة" بمعنى أنه كلام الله الذي نتكلم به على وجه الحقيقة، كما يليق به سبحانه وتعالى، وثبتت أن الله سبحانه وتعالى متكلم، تكلم بهذا القرآن ولا يزال متكلماً سبحانه وتعالى كيف شاء ومتى شاء، وهذه صفة الكلام، ثبتتها لله سبحانه وتعالى كما أثبتها لنفسه، {وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤].

و"المنزَل" يُخرج كلام الله الذي استأثر به سبحانه: {فُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنْفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا} .

وتقييد المنزَل بكونه "على محمد صلَى الله عليه وسلم" يُخرج ما أُنْزَل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

و"المتعبد بتلاوته" يُخرج ما نسخ تلاوة وحُكماً من القرآن، ويخرج قراءات الآحاد، والأحاديث القدسية – عند من يقول إنها منزلة من عند الله بألفاظها ومعناها – لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليس قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك.

### **الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوى :**

#### **ال الحديث النبوى :**

الحديث في اللغة: ضد القديم .

والحديث في الاصطلاح: ما أُضِيفَ إلى النبي -صلَى الله عليه وسلم- من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

فالقول: كقوله، صلَى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا الْأَعْمَالَ بِالنِّيَاتِ ..".

والفعل: كقوله: "صَلُّوا كَمَا رأَيْتُمْنِي أُصَلِّي" .

والإقرار: كأن يُقرَّ أمراً عَلِمَهُ عن أحد الصحابة من قول أو فعل، ومن أمثلته: "أَكَلَ الضَّبَّ عَلَى مَائِدَتِهِ، صلَى الله عليه وسلم".

والصفة: كما روَى: "من أنه -صلَى الله عليه وسلم- كان دائم البُشُر، سهل الْخُلُقُ، لَيْنَ الْجَانِبُ، ليس بفُظٌ ولا غُلِيظٌ ولا صَحَّابٌ ولا فَحَاشٌ ولا عَيَّابٌ..." .

## **الحديث القدسي:**

عَرَفْنَا معنى الحديث لغة، والقدسي: نسبة إلى القدس، وهي نسبة تدل على التعظيم، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة، فالتقديس: تنزيه الله تعالى، والتقديس: التطهير، وتقديس: تطهير، قال الله تعالى على لسان ملائكته: {وَنَحْنُ نُسَيْخُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}، أي نُطَهِّرُ أنفسنا لك.

والحديث القدسي في الاصطلاح:

هو ما يضيفه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الله تعالى.

أي إن النبي -صلى الله عليه وسلم- يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظ من عنده، وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مُسْتَنِداً إلى الله عز وجل، فيقول: "قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربِّه عز وجل....". أو يقول: "قال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تعالى -أو يقول الله تعالى...".

ومثال الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيما يرويه عن ربِّه عز وجل: "يد الله ملائكة لا يغيبها نفقه، سحاء الليل والنهر...".

ومثال الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: يقول الله تعالى "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملائكة ذكرته في ملائكة خير منه...".

## **\_ الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:**

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي من أهمها:

١ - أن القرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنىً، والحديث القدسي معناه من الله، واللفظ مختلف به والراجح أنه من عند الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢- القرآن الكريم وقع به التحدي والإعجاز، تحدى الله به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، ولا يزال التحدي به قائماً، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين. والحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز.

٣- القرآن تحرم روايته بالمعنى، والحديث القدسي تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين.

٤- أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، أما الحديث القدسي فينسب إلى الله تعالى نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى: وبروى مضافاً إلى الرسول الله -صلى الله عليه وسلم- نسبة إخبار فيقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه.

٥- أن القرآن الكريم منقول بطريق التواتر فهو قطعي الثبوت كله سورة وآياته وجمله ومفرداته وحروفه وحركاته وسكناته، أما الحديث القدسي فأغلبه أحاديث آحاد ظني الثبوت، وقد يكون الحديث القدسي صحيحاً، وقد يكون حسناً، وقد يكون ضعيفاً

٦- القرآن الكريم مُتَعَبَّدٌ بتلاوته من وجهين:

- أن الصلاة لا تصح إلا بتلاوة القرآن دون الحديث القدسي: {فَأَفْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}.

- أن قراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء في الحديث: "من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "ألم" حرفة، ولكن ألف حرفة، ولام حرفة، وميم حرفة".

والحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة، ويثيب الله على قراءته ثواباً عاماً، فلا يصدق فيه الثواب الذي ورد ذكره في الحديث على قراءة القرآن، بكل حرفة عشر حسنات.

٧- القرآن الكريم اشترط له الطهارة، أما الأحاديث القدسية فلم تشرط له الطهارة.

## من أسماء القرآن الكريم:

- القرآن: كقوله تعالى: {إِنَّهُ لِقُرْآنٌ كَرِيمٌ}.
- الكتاب: كقوله تعالى: {الْمَ, ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبَّ لِفِيهِ}.
- الفرقان: كقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}.
- الذكر: كقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.
- التنزيل: كقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

## من صفات القرآن الكريم :

- ١\_ مبارك: في قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} .. ٢\_ عزيز: قال تعالى: {إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} .
- ٣\_ كريم: في قوله تعالى: {إِنَّهُ لِقُرْآنٌ كَرِيمٌ} .. ٤\_ الحكيم: في قوله تعالى: {الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}.

\*\* فائدة\*\* :

وقد غالب من أسمائه: "القرآن" و"الكتاب"، حيث ورد باسم القرآن في ثلاثة وأربعين موضعًا ، وورد اسم الكتاب للقرآن في ثلاثمائة وتسعة عشر موضعًا في سياقات مختلفة، قال الدكتور محمد عبد الله دراز: "روعي في تسميته "قرآناً" كونه متلوًا بالألسن، كما روعي في تسميته "كتابًا" كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه". وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابه كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر. وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية

اقتداء بنبيها. بقي القرآن محفوظاً في حرز حرizer، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبدل وانقطاع السند".

### **ـ حكمة تعدد أسماء القرآن الكريم:**

وقد بين العلماء -رحمهم الله تعالى- حكمة تعدد الأسماء للقرآن الكريم فقال الفيروزآبادي -رحمه الله تعالى: "اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكباتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم- دلت على علو رتبته وسمو درجته وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته".

تنبيه:

وبين أسماء القرآن الكريم الكثيرة اشتراك وامتياز، فهي تشارك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه ويمتاز كل واحد منها عن الآخر بدلالتها على معنى خاص، فكل اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته مثلاً بالهدي يدل على الهدية فيه، وتسميتها بالذكر يدل على أن فيه ذكرى.

### **ـ مصدر أسماء القرآن الكريم:**

وأسماء القرآن الكريم وصفاته توقيفية لا نسميه ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب أو في السنة النبوية الشريفة.

### **ـ تسمية القرآن بالمصحف هل وردت في الكتاب أو في السنة؟**

إن المصحف ليس اسمًا للقرآن ذاته، وإنما هو اسم للصحف التي كتب عليها القرآن ، ولم يطلق عليه (المصحف) إلا بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ضم بعضها إلى

بعض فسميت مصحفا . ولهذا أيضا لا يصح أن يجمع لفظ القرآن لأن القرآن واحد لا يختلف في كل المصاحف ، أما المصحف فيصح جمعه فيقال " مصحف " لأن كل واحد منها أو مجموعة تختلف عن الأخرى .

## **ـ خصائص القرآن الكريم**

**١- أن القرآن معجز:** وهي من أبرز خصائص القرآن الكريم، وقد تحدى الله الخلق أن يأتوا بمثله (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونَ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ). فالقرآن معجز في ألفاظه وأسلوبه، ومعجز في بيانه ونظمه، ومعجز بعلومه وعارفه، ومعجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان. فهو معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى .

**٢- التعبد بتلاوته:** من خصائص القرآن التي لا تكون لسواه أن الله تعبد الخلق بتلاوته، وعباده الله بتلاوة القرآن، منها ما يكون واجباً كما في الصلاة، فإن الصلاة لا تتم إلا بتلاوته، ومنها ما يكون قربة يتاب عليها، وذلك في تلاوته آناء الليل وأطراف النهار .

**٣- إن القرآن شفاء للناس:** قال تعالى: {وَتُنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}. وتدبر وصف الله للقرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء؛ لأن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد وأي تأكيد لثمرة التداوي به .

**٤- حفظه في الصدور:** من أشرف خصائص القرآن الكريم أن الله تعالى كلف الأمة بحفظه كله؛ وإلا أثمت الأمة كلها. وذلك لا يكون إلا عن طريق التلقى على أهل القرآن ولا يكتفون بتعلمها من المصاحف وحدها، بحيث كل مسلم يأخذ القرآن على يد مقرئ إلى أن يصل السنن إلى التابعين ثم الصحابة ثم الرسول ﷺ. وبهذا يكون سند القرآن في كل عصر وفي كل حين متصلًا برسول الله - ﷺ- وليس هذا لكتاب غير القرآن الكريم، فقد شرف الله هذه الأمة باتصال سندتها برسولها ﷺ.

**٥- أن الله تعهد بحفظ القرآن:** قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} وقد مررت بالقرآن أحداً عظيمة وتكالب عليه الأعداء وتداعت عليه الأمم ولو من بعض ذلك على غير القرآن لأصحابه ما أصحاب الكتب السابقة من التحرير والتغيير والتبدل. أما القرآن وصل إلينا كما أنزله الله لم يتبدل ولم يتغير. ليتم الله نوره ولو كره الكافرون .

وقد كانت هذه الآية بالنسبة للصحابية خبرا، ولكنها الآن خبر ومعجزة، معجزة أن من خمسة عشر

قرنًا ولم يقع ما يخالفها، وخبر بأن الحفظ مستمر إلى يوم القيمة.

**٦- أن القرآن خاتم الكتب السماوية والمheimen عليها :** قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)، والمعنى أنه شامل لما فيها وزائد عليها وشاهد وحاكم عليها ، فما وافقه فهو حق ، وما خالفه فهو إما منسوخ أو باطل باعتباره محرفًا ، وهو حافظ لما فيها من أصول الشرائع ، وعالٍ عليها وغالب ، وناسخ لغير المحكم فيها ، فهو أكمل الكتب السماوية وخاتمتها .

**٧- شمولية خطاب القرآن :** فمن أبرز خصائص القرآن أن الله خاطب به الإنس والجنة ، (وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)، فهو رسالة الله إلى الناس جميعاً قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)، وكذلك خاطب الله به الجن ودعاهم للإيمان بالله تعالى فقال عن حال الجن مع القرآن: (قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفْرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ تُشْرِكُ بِرَبِّنَا أَحَدًا) وهذا يدل على عالمية الإسلام، فالله تعالى أرسل نبيه محمدًا ﷺ بدين الإسلام وجعل رسالته هي الخاتمة والناسخة لما قبلها، عامة للعالمين الجن والإنس في كل زمان وفي كل مكان، وفي حديث جابر: "وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمٍ خَاصَّةً وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".

**٨- شفاعة القرآن لأصحابه يوم القيمة:** ومن خصائص القرآن الكريم أنه يشفع لأهله يوم القيمة قال رسول الله ﷺ: "اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيمة شفيعاً لأصحابه".

**٩- تعدد فضائل القرآن:** لا يخفى فضل القرآن على كل مسلم، ذلكم أن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد، وأنزله هداية ورحمة للعالمين، وضممه منهاجاً كاماً وشريعة تامة لحياة المسلمين، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}، فلقراءاته فضل، ولاستماعه فضل، وللاجتماع على مدارسته فضل، ولتلاؤته آداب ليست لغيره، ولبعض سوره وأياته فضل خاص، وتعدد أسمائه وأوصافه يدل على عظيم فضله، ولأهل القرآن منزلة ليست لغيرهم، وله أحکام تختص به دون غيره، وجعل على هجره عقوبة من الله مما يدل على مزيد فضله .



## تعريف علوم القرآن

علوم القرآن مركب إضافي ، مكون من كلمتين ، كلمة علوم وقرآن .  
علوم هي جمع علم ، والعلم في اللغة نقىض الجهل ، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة والإدراك ، ويراد به إدراك الشيء على حقيقته ، ثم نُقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطاً علمياً وال المتعلقة بعلم ما ، ومن أحسن ما قيل في كلمة العلم أنها أشهر من أن تعرف .  
**ولعلوم القرآن معنيان :**

**أ- معنى عام . ب- معنى خاص باعتباره ( فناً مدوناً ) :**  
أ- تعريف علوم القرآن في المعنى العام أو المعنى الإضافي هو :  
(( أنواع المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم ، سواء كانت خادمة له ، أو دل القرآن على مسائلها وأحكامها )) .

علوم خادمة للقرآن كعلم التجويد ، وعلم التفسير ، وعلوم اللغة العربية ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ونحو ذلك .  
علوم دل القرآن على مسائلها وأحكامها ، كعلم الفقه ، وعلم التوحيد ، وعلم الفرائض ، وعلم التاريخ ، ونحو ذلك .

وقد توسيع بعض العلماء في ذلك حتى أدخلوا علم الطب ، وعلم الفلك ، والجبر ، والهندسة ، وغيرها . ولكن ليس هنالك شك أن كل العلوم الدينية والعربية داخلة في معنى علوم القرآن في معناه العام .

**ب- تعريف علوم القرآن باعتباره علمًا مدونًا أو المعنى الاصطلاحي لعلوم القرآن:**  
علوم القرآن باعتباره فناً مدوناً عبارة عن مباحث أساسية ينبغي الإلمام بها لكل مقبل على فهم دراسة القرآن الكريم وإلا ضل عن سوء السبيل ، لذا يمكن تعريفه بأنه :  
(( أنواع المعارف والعلوم والمباحث المتعلقة بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وجمعه، وقراءته، وناسخه ومنسوخه، وتفسيره ومكيه ومدنيه ونحو ذلك)).

## **ثمرة وفائدة وأهمية علوم القرآن:**

علوم القرآن من أهم العلوم، وأعلاها، وأنفعها، إذ هو السبيل لفهم كتاب الله، ومعرفة أحکامه ، وحكمه ، ولذا تظهر علوم القرآن الكريم من جوانب عديدة أبرزها ما يلي :

١- يساعد على فهم وتلذب القرآن الكريم ، واستنباط أحکامه ، ومعرفة حكمه ، وحل مشكله ، وفهم متشابهه، بصورة صحيحة دقيقة ، لأنه لا يمكن أن يفهم القرآن ويفسره من لا يعرف نطقه، ورسمه، وأوجه قراءته، وأسباب نزوله ، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ونحو ذلك ، فهو الأساس، والمفتاح لفهم القرآن الكريم.

٢- زيادة الثقة واليقين بهذا القرآن العظيم ، خاصة لمن يتعمق في معرفة إعجازه، وأحكامه، وحكمه، ويقف على دقيق أسراره، إذ الجهل بمثل هذه العلوم يجعل المسلم عرضة للشبهات التي يقصد من ورائها زعزعة اليقين.

٣- معرفة الجهود العظيمة . الممتدة عبر التاريخ وفي كل القرون . التي بذلها العلماء لخدمة هذا الكتاب ، ودور هذه الجهود في حفظه من التغيير والتبدل ، وفي تيسير فهمه .

٤- التسلح بعلوم قيمة تمكّن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام، وبث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه، وتعاليمه، وهو من أعظم الواجبات .

٥- نيل الأجر والثواب ، إذ تعلم مثل هذه العلوم من أوسع أبواب العبودية لله تعالى .  
٦- زيادة الثقافة العالمية في القرآن الكريم .

## **فضل علوم القرآن ومكانته وشرفه:**

من أشرف العلوم وأفضلها وأسمها، لأنها متعلقة بالقرآن الكريم والكتاب العزيز أشرف العلوم، لأن شرف العلم بشرف المعلوم.

**موضوع علوم القرآن :** هو القرآن الكريم

## تاریخ ونشأة وتطور علوم القرآن

### أولاً : في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

بداية ظهور علوم القرآن مرتقبة ببداية نزوله، فلما نزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار حراء، وتلا عليه قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من عرق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم.} [العلق ١-٥] بدأت العلوم المرتبطة بالقرآن بالظهور شيئاً فشيئاً. ويمكن أن يستنبط من نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء جملة من أنواع علوم القرآن، وفيه من العلوم: علم نزوله، خصوصاً أول ما نزل. علم قرائته. علم الوحي. ثم ما لبث القرآن ينزل مرةً بعد مرة، ويحدثُ من علومه غير هذه الثلاثة على حسب موضوعات الآيات وما يتعلق بها.

وبهذا ندرك أن علوم القرآن نشأت منذ وقت مبكر في الإسلام بل منذ أشترت شمس الإسلام؛ ذلكم أن حفظ القرآن وتلاوته وتدبره وتفسيره من أهم علوم القرآن الكريم.

### ثانياً : في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

الصحابة هم أعلم الناس بالقرآن وأسراره وعلومه بعد نبينا محمد ﷺ ، وأدركوا من علومه ما لا نستطيع إدراكه نحن اليوم على الرغم من تقدم العلم وكثرتها وتنوعها وعده المدارس والجامعات ومراكز البحوث وتقنيات التعليم لعدة أمور منها :

١ \_ لأنهم تعلموا على أفضل وأبرك وأحسن معلم وهو نبينا محمد ﷺ ، فسمعوا منه ما لم يسمعه غيرهم، وفصل لهم ما أجمل فيه، ووضح لهم ما خفي عليهم. مثل: **لَمَّا نَرَكُتْ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلِسُو إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) سَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ : لَيْسَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا هُوَ الشَّرُكُ ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : " يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرُكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ "** البخاري.

٢ \_ أن الصحابة كانوا أهل لغة ، ونزل القرآن بلغتهم فهم أعرف الناس بأسراره وبيانه.

٣ \_ تمعتهم بقوة الحافظة وصفاء العقول وذلك لما خصهم الله ووفقهم إليه ليحفظ الله بهم

دينه ونشره .

٤ \_ لمعايشتهم التنزيل ومعاصرتهم الوحي ، ومعرفتهم لزمان النزول ومكانه وملابسته، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: " وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَّا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَّا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ إِلَيْلٌ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ " صحيح البخاري .

٥ \_ تميزوا بمنهج خاص وهمة عالية في تعلم القرآن وحفظه وفهمه والعمل به كما قال عبد الرحمن السلمي: " حَدَثَنَا الْذِينَ كَانُوا يَقْرَئُونَا — كَابِنُ مُسْعُودٍ وَعُثْمَانَ — : أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَقْرِئُونَ مِنَ النَّبِيِّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فَكَانُوا إِذَا تَعْلَمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَخْلُفُوهَا حَتَّى يَعْلَمُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَلْمِ فَتَعْلَمَنَا الْقُرْآنُ وَالْعَلْمُ جَمِيعًا " أحمد والطبراني .

واشتهر كثير من الصحابة بتفسير القرآن منهم : الخلفاء الأربع، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري وعائشة رضي الله عنهم.

وكثرت الرواية في التفسير عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم.

ولم يتكلف الصحابة رضوان الله عليهم التفسير ولم يخوضوا فيما لا فائدة كبيرة في تحصيله، ولم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كله فبعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا تحتاج إلى بيان لمعارفهم للغة وأحوال المجتمع وأسباب النزول وغير ذلك، وقد كانوا يهتمون بنشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين.

وإذا نظرنا إلى حال الصحابة رضوان الله عليهم وجدناهم يتعلمون علوم القرآن مشافهة، ولم يعرف عندهم تدوين لعلوم القرآن لعدة أسباب أهمها :

١ - أن أغلب الصحابة كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

٢ - أن أدوات الكتابة لم تكن متوفرة عندهم.

٣ - أن الرسول ﷺ نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن بقوله ﷺ: " لَا تَكْتُبُوا عَنِي وَمَنْ كَتَبَ عَنِي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلِيَمْحُهُ " صحيح مسلم

٤ - أن العلم كان متوفراً بينهم مشاعاً عند الكثرين منهم فالآية يفهمها الجميع

والحديث يحفظه غالبهم، ولذا لما استحر القتل بالصحابة يوم اليمامة أمر الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن، ولما ظهر الوضع في الحديث وقل الحفاظ جمعت السنة.

### ثالثاً : في عهد التابعين رحمهم الله تعالى:

وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضوان الله عليهم في البلدان المفتوحة يعلمون أهلها القرآن ويفسرون لهم معانيه، وينشرون لهم علومه ومعارفه فبذله لهم الصحابة وقتلوا لهم صدورهم وأفسحوا لهم مجالسهم؛ فنشأت ما يصح أن نطلق عليها المعنى الحديث "مدارس التفسير" وهي كثيرة وأشهرها ثلاثة مدارس:

#### ١ \_ مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة:

وهو حبر هذه الأمة وترجمان القرآن وهو الذي دعا له الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". مسنن أحمد ومن أشهر تلاميذه سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس، وعطاء بن أبي رباح.

#### ٢ \_ مدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه بالمدينة:

وقد كان رضي الله عنه أحد كتاب الوحي، وإمام القراء، شهد له الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "أقرؤهم أبي بن كعب"، وقوله: "استقرئوا القرآن من أربعة ، من ابن مسعود ، وسالم مولى حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل" رضي الله تعالى عنهم . ومن أشهر تلاميذه زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي.

#### ٣\_ مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة:

وهو أول من جهر بالقرآن وأسمعه قريشاً بعد الرسول -صلى الله عليه الصلاة والسلام: "من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" يعني ابن مسعود وأخبر هو عن نفسه فقال: "والله لقد أخذت من في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببعضًا وسبعين سورة".

ومن أشهر تلاميذه علقة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي، واسمه عبد الله بن حبيب مقرئ أهل الكوفة بلا

منازع.

وتميزت هذه المرحلة الظاهرة: بأن أغلب العلوم في هذه المرحلة عن طريق المشافهة والتلقيين، لا الكتابة والتدوين.

### ـ عهد تدوين علوم القرآن:

وفي هذا العهد دونت بعض علوم القرآن الكريم كالقراءات وغريب القرآن والناسخ والمنسخ.

وأما التفسير فكان تدوينه حين بدأ تدوين الحديث النبوي، ومر بمراحل قبل أن يكون على ما هو عليه الآن.

فبدأ أولاً: تدوينه أول ما بدأ على أنه باب من أبواب الحديث، ومن دونه في هذه المرحلة: يزيد بن هارون السلمي "ت ١١٧هـ"، وشعبة بن الحجاج "ت ١٦٠هـ" ووكيع بن الجراح "ت ١٩٧هـ"، وسفيان بن عيينة "ت ١٩٨هـ"، وغيرهم، وكان جمعهم للتفسير جمعاً بباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد. وجميع ما نقلوه فيها كان بالإسناد ولم يصل إلينا شيء منها.

ثم دون التفسير مستقلاً وأصبح علمًا قائماً بنفسه وأشهر من دونه على هذا النحو يحيى بن سلام البصري ٢ "ت ٢٠٠هـ"، وابن ماجه "ت ٢٧٣هـ"، وابن حرير الطبرى "ت ٣١٠هـ"، وأبو بكر بن المنذر اليسابوري "ت ٣١٨هـ"، وابن أبي حاتم "ت ٣٢٧هـ"، وابن حبان "ت ٣٦٩هـ"، والحاكم "ت ٤٠٥هـ"، وابن مردويه "ت ٤١٠هـ"، وغيرهم وكل ما في هذه التفاسير كان بالإسناد.

ويعد تفسير ابن حرير الطبرى رحمة الله تعالى أقدم تفسير شامل وصل إلينا كاملاً عرض فيه صاحبه للأقوال والروايات المختلفة في التفسير ورجح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط واللغة وله في ذلك السبق.

والتفسير - كما نعلم - أحد علوم القرآن الكريم، بل هو نواة علوم القرآن الكريم وبهذا يكون التفسير أول علم من علوم القرآن بدأت الكتابة فيه.

وقد ألف العلماء في العلوم الأخرى من علوم القرآن كتبًا مستقلة:

في الناسخ والمنسوخ: ألف قتادة السدوسي ت ١١٧ هـ ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٤٥ هـ.

وفي أسباب النزول: ألف ابن المديني شيخ البخاري ت ٢٣٤ هـ، وأبو الحسن الواحدي ت ٤٦٨ هـ.

وفي علم القراءات : ألف أبو الحسن البصري ت ١٠١ هـ وأبو بكر بن مجاهد ت ٣٢٤ هـ.

وفي مشكل القرآن : ألف مقاتل بن سليمان ت ١٥٠ هـ، والكسائي ت ١٨٢ هـ.  
وفي غريب القرآن : ألف عطاء بن أبي رياح ت ١١٢ هـ، وابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ.  
وفي إعراب القرآن : ألف أبو إسحاق الزجاج ت ٣١١ هـ، والنحاس ت ٣٣٨ هـ.  
إلى غيرها من الفنون من علوم القرآن التي خدمت القرآن ، وتميزت تلك الكتابات  
بالاستيعاب والتتبع لكل كتاب في ذلك العلم.

#### أهم المؤلفات في علوم القرآن "كتاب كفن مدون":

اصطلاح "علوم القرآن" لم يظهر في عناوين مؤلفاتهم إلا في فترة متأخرة. حيث ظهر  
هذا الاصطلاح أول ما ظهر في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري حين ألف  
محمد بن خلف بن المربزيان "ت ٩٣٠ هـ" كتابه "الحاوي في علوم القرآن".

ظهرت بعد ذلك مؤلفات كثيرة بعد ذلك في علوم القرآن كفن مدون منها على سبيل  
المثال لا الحصر لها :

ألف أبو الحسن الأشعري "ت ٣٢٤ هـ" كتابه "المختزن في علوم القرآن"  
وألف عبيد الله بن جرو الأستدي "ت ٣٨٧ هـ" كتابه "الأمد في علوم القرآن"  
وألف ابن الجوزي "ت ٥٩٧ هـ" كتابه "فنون الأفنان في عجائب علوم  
القرآن" و"المجتبى في علوم القرآن" ، و"المجتبى من المجتبى".  
وألف القزويني "ت ٦٢٥ هـ" كتابه "الجامع الحرizz الحاوي لعلوم كتاب الله العزيز" ،  
وألف أبو شامة المقدسي "ت ٦٦٥ هـ" كتابه "المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب  
العزيز".

وألف بدر الدين الزركشي "ت ٧٩٤ هـ" كتابه "البرهان في علوم القرآن" ، وهو من أفضل

المؤلفات في علوم القرآن الكريم ومن أحسنها تنظيماً وتأثیرها وأسلوبها، ذكر فيها سبعة وأربعين نوعاً من أنواع علوم القرآن.

وألف ابن تيمية "ت ٧٢٨هـ" كتابه "مقدمة في أصول التفسير" وهي مع إيجازها قيمة جداً وطبعت مراتًّا.

وألف جلال الدين عبد الرحمن بن عمر البليقيني ت ٨٢٤هـ، موقع العلوم في موقع النجوم، ذكر فيها خمسين نوعاً من أنواع علوم القرآن.

وألف جلال الدين السيوطي "ت ٩١١هـ" كتابه القيم "الإنقان في علوم القرآن" ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والدمج.

وفترت همة التأليف بعد ذلك، بل قال بعض العلماء: إن التأليف في تلك الفترة توقف.

**أهم المؤلفات في علوم القرآن كفن مدون في العصر الحديث:**  
وقد نشط التأليف في العصر الحديث فصدرت مؤلفات كثيرة وأبحاث عديدة ليس المقام بإيرادها ولا حصرها ولعل من أشهرها:

١- البيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن للشيخ طاهر الجزائري.

٢- منهاج الفرقان في علوم القرآن للشيخ محمد سلامة.

٣- منهال العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

٤- المدخل للدراسة القرآن الكريم: للدكتور / محمد بن محمد أبو شهبة.

٥- مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القحطان .

٦- مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح.

٧- دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي

٨- المقدمات الأساسية في علوم القرآن للشيخ عبد الله الجدوع.

وهذه المؤلفات يلاحظ عليها أن أغلبها قد ألفها أصحابها لطلابهم، مما يؤدي إلى الإجمال في الحديث وتيسير المادة وعدم الخوض في دقائق المسائل ووعر المسالك، واختيار السبيل الأسهل والأيسر

**أهم المؤلفات في علوم القرآن كعلم واحد في العصر الحديث:**

- ١- القواعد الحسان في تفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن السعدي.
- ٢- التفسير والمفسرون للشيخ محمد بن حسين الذهبي.
- ٣- خصائص القرآن للدكتور فهد الرومي.
- ٤- نزول القرآن على سبعة أحرف للشيخ مناع القطان.
- ٥- مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم.

## نَزْوَلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

هذا مبحث مهم في علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جمیعاً لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله وأساس للتصديق بنبوة الرسول صلی الله عليه وسلم وأن الإسلام حق. ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعد في علوم القرآن. فلا جرم أن يتتصدرها جمیعها ليكون من تقریره وتحقيقه سبیل إلى تقریرها وتحقيقها. وإنما فکیف يقوم البناء على غير أساس ودعایم؟.

## نَزْلَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

الذی علیه جمیور العلماء . رحمهم الله . أن القرآن الكريم تمیز بنوعین من أنواع النزول :

**النَّزْوَلُ الْأَوَّلُ :** نَزْوَلُ الْقُرْآنِ جَمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي السَّمَاوَاتِ السَّابِعَةِ إِلَى بَيْتِ الْعَزَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ الدُّنْيَا ، وَعَلَى هَذَا النَّزْوَلِ تَحْمِلُ الْآيَاتُ الَّتِي تَدْلِي عَلَى نَزْوَلِهِ جَمْلَةً وَاحِدَةً :

قال تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبِيَنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ) وقوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ الْقَدْرِ) ، وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) ، ومن المعلوم أن القرآن لم ينزل على النبي ﷺ في شهر واحد وهو شهر رمضان؛ وإنما نزل فيه وفي غيره من الشهور، كما أنه لم ينزل في ليلة واحدة وإنما نزل في عدد من الليالي والأيام، وبالليل والنهر، والصيف والشتاء.

**النَّزْوَلُ الثَّانِي: نَزْوَلُ الْقُرْآنِ مُنْجَمًا عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ :**

وهذا النوع من النزول قد تضافرت عليه الأدلة الكثيرة في القرآن والسنة من خلال أدلة ثبتت تنجيم نزول القرآن عليه قوله تعالى : (وَقُرْأَنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) ، وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكُ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا). كما أن الأدلة الكثيرة المتضافة في السنة النبوية التي توضح كيفية نزول جبريل بالقرآن الكريم لآياته وسوره تقطع الشك في نزوله منجماً على قلبه ، وأن النبي ﷺ سمعه من جبريل بأذنيه ، ووعاه بقلبه ، وبلغه للناس كما سمعه .

**الحِكْمَةُ وَالْفَوَائِدُ مِنْ نَزْوَلِ الْقُرْآنِ مُنْجَمًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ :**

**١ . ثَبِيتُ فُؤَادَ النَّبِيِّ ﷺ :**

هذه الحِكْمَةُ قد نصَّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكُ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)

يعني لنقوى به قلبك ، فإنَّ الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب ، وأشدُّ عنابة بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه ، وتجدد العهد به ، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصُّ عنه العبارة.

**٢ . ردُّ شُبَهِ الْكُفَّارِ :**

وقد هذا قد جاء في قوله تعالى : (وَلَا يَأْتُونَكُ بِمَثِيلٍ إِلَّا جِئْنَاكُ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) أي لا يأتونك بحججه أو شبھاته، ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق إلا جئناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبین وأوضح وأفصح من مقالاتهم، فأخبره الله أن

يجيبهم بأن أحكام الله لا تتبع أهواء البشر، وأنه لا يملك من الأمر شيئاً ، وإنما هو مبلغ ما يوحى إليه ، فعليكم أن تفهموا مهمتي .

### ٣ . فضح مكائد الأعداء في حينها :

كان القرآن الكريم ينزل على رسوله الكريم بكشف عورات أعدائه بصورة تهز كيان الباطل وتعلي بنيان الحق ، وتوكد صدق الرسول ﷺ ، وأن هذا القرآن منزل من الله تعالى وهذا كثير ، كقوله تعالى عن المنافقين (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) ، وعن اليهود قوله: (وَقَالَت طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَأَكْفُرُوا آخِرَةً لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

### ٤ . الإجابة عن أسئلة السائلين:

الأسئلة التي ترد على النبي ﷺ من الكفار وأعدائه فيحتاج إلى إجابة الوحي إليها على أعدائه (ويسألونك عن الروح ، ويسألونك عن ذي القرنين ) ، وقد تكون الأسئلة من أتباعه وأصحابه كسؤالهم (يسألونك عن الخمر والميسر ، ويسألونك عن البتامي ، ويسألونك عن المحبض).

٥ - سهولة الحفظ لألفاظ القرآن ، والتدبر والفهم لمعانيه.

٦ - التدرج مع النفوس في تطبيق أحكام هذا الدين .

٧ - تحقيق اليقين على أن القرآن الكريم كلام رب العالمين :

٨ - التحدي والإعجاز بهذا القرآن.

## أول ما نزل وأخر ما نزل :

اعتنى العلماء عناية خاصة بأول القرآن نزولاً، وأخر ما نزل منه، كما اعتنوا بأول ما نزل في مكة، وأخر ما نزل فيها، وأول ما نزل في المدينة وأخر ما نزل فيها، وأول ما نزل في كل حكم، وأخر ما نزل فيه.

ومعرفة ذلك علم توقيفي يعتمد على النقل عن الصحابة أو التابعين ، ولا مجال للاجتهاد فيه إلا للترجح بين الأدلة والقول .

وفي هذا المبحث لا نتحدث عن أول ما نزل وأخر ما نزل في كل تعليم من تعاليم الإسلام فتلك غاية بعيدة المدى ومجهود طويل جدير أن يفرد بالتأليف ، ولكن نتحدث عن أمرين:

أحدهما : أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وأخر ما نزل منه على الإطلاق وهذا هو المقصود المهم.

الثاني : نماذج من أول ما نزل في بعض الأحكام التشريعية وأخر ما نزل منها أي أوائل وأواخر إضافية مخصصة ومقيدة ببعض الأحكام.

### ـ أول ما نزل من القرآن :

اختلاف العلماء في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم إلى عدة أقوال أشهرها قولان:

القول الأول: أن أول ما نزل من القرآن صدر سورة اقرأ ، وهذا القول رجحه جمهور العلماء من السلف والخلف، وتسنده الأدلة الواضحة من ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : ( أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ فِي الْيَوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْحَلَاءُ ، وَكَانَ يَحْلُو بِغَارِ حِرَاءَ فَيَسْتَحِثُ فِيهِ . وَهُوَ التَّعْبُدُ . الْتِيَالِيَّ دَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَنْزَوَدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى حَدِيقَةَ فَيَنْزَوَدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءِ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَا ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالَ: فَأَخْذَنِي فَعَطَنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِي الْجَهَدُ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَا ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخْذَنِي فَعَطَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِي الْجَهَدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَا ، قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخْذَنِي فَعَطَنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: (اقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلِقٍ. اقْرَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنِ . عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ) ، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادَهُ .... الحديث

القول الثاني: وذهب طائفة من العلماء إلى أن أول ما نزل من القرآن سورة المدثر، فقد روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: "سألت جابر بن عبد الله ، أي القرآن أُنزل قبل؟! قال : يا أيها المدثر".

والراجح: القول الأول هو الراجح لأمور، ومنها: ما ثبت في الصحيحين عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراً جالس على كرسي بين السماء والأرض ... فأُنزل الله يا أيها المدثر الحديث ...). فالمدثر أول نزل بعد فتور الوحي .

ثانياً: أن مراد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما – إنما هو فيما نزل سورة كاملة، ذلك أن المدثر اكتمل نزولها قبل سورة اقرأ، التي نزل منها صدر السورة فقط.

ثالثاً: أن مراد جابر يتعلّق بأولية الإنذار، لا مطلق الإنذاء، فمن المعلوم أن سورة المدثر: نزلت آمرة النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطلق داعية إلى الله مندراً أهل الشرك والضلاله مغبة ما هم فيه من عبادة الأوثان وتقديس الأصنام. أما سورة العلق فلم يكن فيها شيء من ذلك، بل هو مجرد الإنذاء والتهيئه لتلقي رسالة السماء.

## آخر ما نزل من القرآن :

ليس في موضوع آخر ما نزل من القرآن أحاديث مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هي آثار مروية عن بعض الصحابة، والتابعين، استنتجوها مما شاهدوه من نزول الوحي، وملابسات الأحوال، وقد يسمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر ويرى ما لا يرى الآخر، فمن ثم كثر الاختلاف بين السلف والعلماء، في آخر ما نزل وتعددت الأقوال وتشعبت الآراء . وعلى ذلك اختلف العلماء إلى أقوال عديدة أشهرها قولان :

**القول الأول:** آخر ما نزل هو قوله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مُّؤْمِنِينَ ).

**القول الثاني:** أن آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى: ( وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ ).

والقول الصواب هو القول الثاني أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ( وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ ).

أ- لم يحظ قول من الأقوال التي سنذكرها بجملة من الآثار، وأقوال أئمة التفسير مثل ما حظي به هذا القول.

ب- ما تشير إليه هذه الآية في ثنائها من التذكير باليوم الآخر، والرجوع إلى الله ليوفي كلا جزاء عمله، وهو أنساب بالختام.

ج- ما ظفر به هذا القول من تحديد الوقت بين نزولها، وبين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يظفر قول غيره بمثل هذا التحديد، حيث قيل أن بينها وبين وفاة الرسول ﷺ تسع ليال فقط.

د- وكذلك أن آية الربا آخر ما نزل في القرآن لها تأويل مقبول منها: أنها آخر آية نزولاً في شأن الربا كما قال ابن حجر ، وليس من القرآن.

## \*\* فوائد معرفة أول وآخر ما نزل:

- ١- معرفة الناسخ والمنسوخ من الأحكام والتشريعات.
- ٢- الوقوف على السياسة الحكيمية للقرآن في التدرج القرآن في النزول.
- ٣- يساعد على تدبر وفهم القرآن الكريم بصورة سليمة، واستنباط الأحكام بدقة.
- ٤- معرفة منهج الإسلام في ترتيب الأولويات.
- ٥- معرفة مدى عناية علماء الإسلام بهذا القرآن مما يؤكّد صيانته عن الخطأ والتحريف باعتنائهم بهذا العلم في معرفة أول وآخر ما نزل من القرآن .

## الوحي

في اللغة : الإعلام في خفاء بأي صورة كانت . ورد الوحي في أكثر من ( ٧٠ موضع ) في الاصطلاح : هو إعلام الله لنبي من أنبيائه بنبوته - بكيفية مخصوصة - وما يتبعها، من أوامر ونواهٍ وأخبار . وقد يطلق ويراد به اسم المفعول منه ، أي الموحى به وهو : كلام الله المنزلي على النبي - صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)).

**من استعمالات الوحي في القرآن وهي :**

وقد ورد الوحي في القرآن الكريم بمعانٍ كثيرة لا تخرج عن المعنى اللغوي، ومن ذلك :

١- الإيحاء بمعنى إيقاع المعنى في القلب بطريقة خفية، كالإفهام بإإشارة السريعة بجراحته من الجوارح ، كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه ، كما قال تعالى : ((فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَيُّخُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)).

٢- ويأتي بمعنى الإلهام الفطري للإنسان ، وهو ما يلقيه الله في قلب روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح ، كالوحي إلى أم موسى قال تعالى : ((وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)) ، ومنه الوحي للحواريين قال تعالى : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَيَّ الْحَوَارِيْنَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشَهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

٣- أو الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي للنحل ، قال تعالى : ((وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيَّ النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ)).

٤- ويأتي الوحي بمعنى الوسوسة كما في قوله تعالى : ((وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوَحِّدُونَ إِلَى أُولَئِكَهُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ)) ، وكذلك في قوله تعالى : ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوا شَيَاطِينَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ يُوَحِّي بَعْضُهُمْ إِلَيَّ بَعْضٍ)).

٥- وكذلك ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه قال تعالى : ((إِذْ يُوَحِّي رَبُّكَ إِلَيَّ الْمَلَائِكَةَ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَشَّرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا)).

٦- الأمر الكوني للجمادات ، قال تعالى : ((إِذَا زُرِّتِ الْأَرْضُ زُرِّ الْهَمَّا (١) وَأَخْرَجْتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ) ، وقال تعالى : (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا).

## أنواع الوحي :

**- النوع الأول : الوحي بواسطة جبريل - عليه السلام - ملك الوحي .**

ولا تخلو كفيته من إحدى ثلات حالات :

- الحالة الأولى : أن يأتيه الملك خفية فلا يرى ، مثل صلصلة الجرس ، وهي أشدّه على الرسول - صلى الله

عليه وسلم .

- الحالة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً سوياً ، ويأتيه في صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها .
- دليлемا : ما روتة عائشة - أم المؤمنين ، ورضي الله عنها - أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، كيف الوحي ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشدُّه علىٰ - فيفصِّم عنِّي وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعُي ما يقول " .

قال الخطابي : "يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبيّنه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد ، وقيل : بل هو صوت حفييف أجنحة الملك ، والحكمة في تقدمه أن يقع سمعه الوحي فلا يقى فيه مكان لغيره ، ولما كان الجرس لا تحصل صلصلته إلا متداركة وقع التشبيه به دون غيره من الآلات "

الحالة الثالثة: وهي حالة نادرة الوجود .

أن يأتيه جبريل في صورته التي خلقه الله عليها: ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين: الأولى كانت في الأرض في مكة جهة أجياد في كرسي بين السماء والأرض، له ستمائة جناح وقد سد الأفق، والثانية في السماء عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج .

### **– النوع الثاني : الوحي بغير واسطة . وله ثلات صور :**

- الأولى : الرؤيا الصالحة في المنام :
- فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " أول ما بدئ به - صلى الله عليه وسلم - الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح " .
- الثانية : الكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة كما قال تعالى عن نبيه موسى (( وكلم الله موسى تكليما ))، وكما حدث لنبينا عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج .
- الثالثة : النفت في الرُّوع وهو ما يقذفه الله في قلب الموحى إليه مما أراد الله تعالى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ( إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْفَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الْطَّلْبِ ... )

**دليل أنواع الوحي من القرآن : كيفية تلقي النبي صلى الله عليه وسلم للوحي ؟**

– ودليل هذه الأنواع مع ما تضمنته من حالات وأنواع قوله تعالى :

- (( وَمَا كَانَ لِيَشَرِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ))
- [ ١ ] إِلَّا وَحْيًا
- [ ٢ ] أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ
- [ ٣ ] أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ )) [ الشورى : ٥١ ]

بَيَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ثَلَاثَ طَرُقَ، وَهِيَ:

الطَّرِيقَةُ الْأُولَى : الْوَحْيُ الْمُبَاشِرُ ، إِمَّا بِالْإِلْقَاءِ فِي الرُّوعِ أَوِ الرُّؤْيَا فِي الْمَنَامِ.

الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ : الْكَلَامُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

الطَّرِيقَةُ الثَّالِثَةُ : إِرْسَالُ الرَّسُولِ بِالْوَحْيِ.

## — كَيْفِيَّةُ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ :

هُنَّا كَأَرْبَعَ زَوَّاياً سَيِّدِنَا حَدِيثُهُ فِي أَمْرِ الْوَحْيِ:

١- مِنْ خَلَالِ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ . ٢- وَصْفُ الصَّحَابَةِ لِنَزُولِ الْوَحْيِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ .

٣- حَقِيقَةُ الْوَحْيِ . ٤- وَصْفُ الْأَعْدَاءِ لِلْوَحْيِ.

أَوْلًاً: مِنْ خَلَالِ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا يَحْسُسُ بِهِ أَثْنَاءَ تَلْقَيِ الْوَحْيِ: هَذِهِ الْزاوِيَّةُ كَانَ مَا سُئِلَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ حِينَ سُئِلَ الْحَارِثُ ابْنُ هَشَّامَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: (أَحِيَّانًا يَأْتِينِي) وَهَذَا كَلَامُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ: (أَحِيَّانًا يَأْتِينِي مِثْلُ صَلْصَلَةِ الْجَرْسِ وَهُوَ أَشَدُهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنِهِ مَا قَالَ).

ثَانِيًّاً: مِنْ خَلَالِ وَصْفِ الصَّحَابَةِ ! لَمَا يَشَاهِدُونَ حَالَ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ آثَارِ نَزُولِ الْوَحْيِ أَوِ الْآثَارِ عَلَى دَابِّتِهِ الَّتِي يَرْكَبُهَا وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا نَصوصٌ كَثِيرَةٌ عَنِ الصَّحَابَةِ مِنْهَا: قَوْلُ عَائِشَةَ ٧: (وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ شَدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ "مِنَ الشَّدَّةِ يَقْلُعُ وَيَنْجُلُ عَنِي" عَنِهِ وَإِنْ جَبَبَنِي لِيَتَفَصَّدَ عَرْقاً) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مَالِكُ وَالْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ وَالْإِمَامُ مُسْلِمُ.

ثَالِثًاً: حَقِيقَةُ الْوَحْيِ نَفْسُهُ وَكَيْفِيَّةُ اِنْتِقالِهِ مِنْ جَبَرِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَهَذَا مِنْ أَمْرِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ لِلْعَقْلِ أَنْ يُدْرِكَهُ بِمُفْرَدِهِ وَمِنْ ثُمَّ فَأَنَّ الْقَوْلَ فِي حَقِيقَتِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَا وَرَدَ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ أَوِ السُّنَّةِ وَلَمْ يَرِدْ فِي حَقِيقَةِ الْوَحْيِ وَكَيْفِيَّةِ اِنْتِقالِهِ مِنْ جَبَرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلنَّبِيِّ ﷺ آيَةً أَوْ حَدِيثًا، وَالْمُوقَفُ الصَّحِيحُ هُوَ التَّوْقُفُ عَنِ الْخُوضُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ تَمَامًا.

رَابِعًاً: مِنْ خَلَالِ وَصْفِ الْأَعْدَاءِ الْمَعَادِينَ لِلْوَحْيِ: كَيْفَ كَانُوا يَصْفُونَ الْوَحْيَ الْمَكْذُوبَنَ الْمُشَرَّكَوْنَ ، وَالْمُعَاصرُونَ الْآنَ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ الْمُخَالِفِينَ لَنَا فِي الدِّينِ وَالرُّؤْيَا.

بعضُ الْأَعْدَاءِ الْمَعَارِضِينَ لِلْوَحْيِ رِبِّماً كَانَ يَشَاهِدُ النَّبِيَّ ﷺ أَثْنَاءَ نَزُولِ الْوَحْيِ وَبَعْضُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ لَمْ يَشَاهِدُهُ وَلَكِنْ كَانَ يَتَهَمِّهُ بِتَهْمِمٍ وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ حَالَةِ نَزُولِ الْوَحْيِ مِبَاشِرَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ((فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ)), وَقَالَ تَعَالَى: ((وَعَجِبُوا أَنْ جَاءُهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ)).

## — شَبَهَاتٌ مُثَارَةٌ حَوْلَ الْوَحْيِ :

وقد حرص المشككون حديثاً وقديماً على إثارة بعض الشبه حول الوحي عدواً واستكباراً وهي شبه واهية ومردودة فمن ذلك:

١- زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - ابتكر معانيه ، وصاغ أسلوبه ، وليس وحيًّا يوحى .

وهذا زعم باطل ، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يدعى لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره ، وكان في استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه ، ويكون ذلك كافياً لرفع شأنه ، والتسليم بزعامته ، ما دام العرب جميعاً على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته ، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطعوه .

**موقف يرد عليهم:** لقد اتهم المنافقون زوجته عائشة بحديث الإفك ، وهي أحب زوجاته إليه ، واتهامها يمس كرامته وشرفه ، وأبطة الوحي ، وتحرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحرج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر ، وبذل جهده في التحري والاستشارة ، مضى شهر بأكمله ، ولم يزد على أن قال لها آخر الأمر (( أما إنما بلغني كذا وكذا ، فإن كنت برئيتك فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فأستغفري الله )) وظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببراءتها .

فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلاماً يقطع به ألسنة المتخرين ، ويحمي عرضه؟ .

٢- زعم الجاهليون قدديماً وحديثاً أنه عليه الصلاة والسلام كان له صفات ليست لغيره من حدة الذكاء ، ونفذ البصيرة ، وقوة الفراسة ، وشدة الفطنة ، وصفاء النفس ، وصدق التأمل ، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر ، ويعرف على خبايا الأمور بالكشف والوحي النفسي ، ولا يخرج القرآن عن أن يكون له أثراً للاستنباط العقلي ، والإدراك الوجداني عبر عنه محمد - صلى الله عليه وسلم - بأسلوبه وبيانه .

الجواب: احتوى القرآن كذلك على حقائق علمية، ونظريات طبيعية وفلكلورية ثبتت الأيام بعد تقدم العلم صحتها وأسبقيتها، قال تعالى: {سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣]. وتضمن القرآن في بيان العقائد أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته وعن الحياة الآخرة وما فيها من الموقف والحساب والجنة والنار، وبضاف إلى ذلك كل ما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل، وما يجري من أحداث تقع وفق سنن الله الاجتماعية في القوة والضعف والعزة والذلة. والذي ينطق بهذا رجل أمي لم يعرف الكتابة ولم يقرأ في كتاب، ومع ذلك يتحدى بما جاء به جميع الناس في كل أرض وفي كل زمان. إن التفسير المنصف لما جاء به هو الإيمان بهذا الاتصال الذي حدث بين الأرض والسماء عن طريق الوحي لتبلیغ هداية الله؛ قال تعالى: {وَمَا يُنْظِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} .

٣- زعم الجاهليون قدديماً وحديثاً أن محمداً قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم .

وهذا حق ! إلا أن المعلم الذي تلقى عنه القرآن هو ملك الوحي ، أما أن يكون له معلم من قومه أو من غير قومه فلا . إنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أمياً وعاش أمياً ، في أمة أمية لم يُعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم ، وهذا واقع يشهد به التاريخ ، ولا مرية أو شك فيه .

أما أن يكون له معلم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع في التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقي أحداً من العلماء حدثه عن الدين قبل إعلان نبوته .

وبهذا يتبيّن أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنساني ، لا في نفس صاحبه ، ولا عند أحد من البشر ، فهو تنزيل الحكيم الحميد .

ونشأة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيئة أمية جاهلية ، وسيرته بين قومه ، من أقوى الدلائل على أن الله قد أعدد له حمل رسالته ، وأوحى إليه بهذا القرآن هداية لأمته (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ثُورًا نَّهَدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ). ٥٢ - ٥٣ (الشورى) .

## **فوائد معرفة الوحي والإيمان به :**

- ١- معرفة الوحي والإيمان به هو الأساس للإيمان بما جاء به النبي ﷺ من تشريعات وأخبار.
- ٢- معرفة عظمة هذا الوحي المنزل من عند الله تعالى إذ هو مادة الحياة كما أن الغيث مادة الحياة.
- ٣- معرفة منزلة النبي ﷺ والاعتراف بفضله والاطمئنان إلى صحة نبوته.
- ٤- الاطمئنان على أن وحي الله لنبيه وصل إلينا دون زيادة ولا نقصان ولا تغيير أو تبديل.
- ٥- معرفة فضل الله تعالى على الناس إذ لم يتركهم سدى وقد جاءهم الوحي في وقت تحتاجه الأمة .

## **أسباب النزول**

القرآن الكريم كله نزل لهداية الناس، هذا السبب العام لنزول القرآن كله ، ودليل ذلك قوله تعالى: ( إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشَرِّعُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ) فهذه آية واضحة في أن آيات القرآن كلها نزلت ابتداءً لهداية البشر.

هناك أدلة خاصة لبعض الآيات، ومثال ذلك : لما اتهمت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - في عرضها ، نزلت آيات سورة النور في قوله تعالى: ( إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِالْإِفْلَكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرَّاً لَّكُمْ ) نقول : سبب نزولها قصة أو حادثة الإفك التي وقعت لعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - . إذا هذا سبب خاص.

وعندما نتكلم عن أدلة النزول في كتب علوم القرآن نقصد بها هذا النوع الخاص وهي قليلة ومحدودة، يعني أن الآيات التي نزلت لأسباب خاصة قليلة ، مقارنة وموازنة بما نزل ابتداءً لهداية الناس.

### **تعريف سبب النزول:**

هو ما أنزل الله بشأنه قرآنًا ؛ وقت وقوعه ، كحادثة أو سؤال.

### **عنابة العلماء بأسباب النزول وأشهر المؤلفات فيها :**

اعتنى العلماء عنابة فائقة بدراسة أدلة النزول، وألفو مؤلفات كثيرة، وأول من أفرد هذه بالتأليف هو علي بن المديني (ت ٢٣٤هـ)، ومنمن ألف فيه عبد الرحمن بن محمدالمعروف بمطرف الأندلسى (ت ٤٢٠هـ)، ومنه أبو الحسن علي بن أحمد الوادى (٤٦٨هـ) وكتابه (أسباب النزول) ، وقد اختصر الجعبي هذا الكتاب بحذف أسانيده، ومنهم ابن الجوزي (٩٥٧هـ) وكتابه أدلة نزول القرآن، ومنهم ابن حجر العسقلانى (٨٥٢هـ) وكتابه العجب في بيان الأسباب، والسيوطى (٩١١هـ) ألف كتاب (باب النقول في أدلة النزول) .

## **الألفاظ الدالة على سبب النزول (صيغة سبب النزول) (كيف يعبر عن سبب النزول):**

استقرأ العلماء الألفاظ التي جاءت في الروايات المختلفة عن أسباب النزول فقسموها إلى قسمين :

**القسم الأول :** الألفاظ صريحة في السببية ، وهي الألفاظ التي تنص على السببية ولا تحمل غيره، وهي التي صرحت فيها الراوي بسبب النزول كأن يقول: (( سبب نزول هذه الآية كذا )) أو يقول: (( حدث كذا فأنزل الله كذا ))، بأن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على سبب النزول بعد ذكر سببها ، فهذه الألفاظ نصٌّ صريحٌ في السببية.

**القسم الثاني :** الألفاظ محتملة للسببية، ولما تضمنته الآية من أحكام، فهي ليست نصًا في السببية؛ كأن يقول الراوي: (( نزلت هذه الآية في كذا )) .

### **طريقة معرفة سبب النزول:**

إن الطريقة الوحيدة لمعرفة أسباب النزول مقصورة على التقليل الصحيح :

**أ- فإن رويت أسباب النزول عن صحابي:**

فهي مقبولة بشرطين : صحة السند، وأن تكون عبارته صريحة في السبب غير محتملة. لأن الصحابة من شاهدوا التنزيل وعاصروا الوحي؛ ولأن أقوالهم فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، ومن بعيد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه

**ب- وإن رويت أسباب النزول عن تابعي:**

فحكمه أنه لا تقبل روایته إلا بأربعة شروط: صحة سنده الرواية، وأن تكون عبارته صريحة في السبب غير محتملة. وأن تعضد برواية تابع آخر، وأن يكون  التابع من أئمة التفسير الآخذين من الصحابة; كمجاحد وعكرمة وسعید بن جبیر.

## **فوائد معرفة سبب النزول :**

- ١- بيان الحكمة التي دعت إلى تشرع حكم من الأحكام ، مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث رحمة بالأمة.
- ٢- معرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معانى القرآن لأن بعض الآيات يتوقف معناها على معرفته، وهي عظيمة القدر.
- ٣- ومن فوائده معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصوص لها، وبيان ذلك أن اللفظ قد يكون عاماً، ويقوم دليل على تخصيصه، فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع، لأن دخول السبب قطعي . وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي ظني، ولا يجوز إخراج القطعي بالظني . كقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ، وسبب نزول هذه الآية حادثة الإفك، ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب . لكن الآية الأخرى استثنى من تاب فقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبِلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ) فلفظ الآية عام ثم خصص بقوله : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) .
- ٤- يوضح من نزلت فيه الآية فينزل منزلته ، فلا يتهم البريء ، ولا يبرأ المتهم.
- ٥- ومن فوائد معرفة سبب النزول : كشف وجه من وجوده بلاغة القرآن الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها .

## **ـ تعدد الأسباب والنازل واحد :**

إذا جاءت روایتان في نازل واحد من القرآن وذكرت كل من الروایتين سببا صريحا غير ما تذكره الأخرى، نظر فيهما. فإذاما أن تكون إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة. وإنما أن تكون كلتاها صحيحة ولكن لإحداهما مرجع دون الأخرى. وإنما أن تكون كلتاها صحيحة ولا مرجع لإحداهما على الأخرى ولكن يمكن الأخذ بهما معا. وإنما أن تكون كلتاها صحيحة ولا مرجع ولا يمكن الأخذ بهما معا.

### **ـ وإليك الصور مع الأمثلة :**

**الأولى :** أن تكون إحدى الروایات صحيحة والأخرى غير صحيحة ، فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب. ورد الأخرى غير الصحيحة، **ومثال ذلك :** ما أخرجه الشیخان وغیرہما عن جنڈب قال: اشتکى النبی صلی اللہ علیہ وسلم فلم یقم لیلة او لیلتين فأئته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شیطانك إلا قد تركك فأنزل اللہ: {والضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ} ، وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمها وكانت خادم رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم: أن جروا دخل بيت النبی صلی اللہ علیہ وسلم فدخل تحت السرير فمات فمكث النبی صلی اللہ علیہ وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: "يا خولة ما حدث في بيت رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم؟ جبريل لا يأتيني" فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالنكسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبی صلی اللہ علیہ وسلم ترعداً لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فأنزل اللہ: {والضُّحَىٰ} إلى قوله {فتَرَضَىٰ} . هكذا جاءت الروایات فالحكم نقدم الروایة الأولى في بيان السبب لصحتها دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرف .

**الثانية :** أن تكون كل الروایتين صحيحة وإلحاداها مرجع- فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوة.

**مثال ذلك :** مثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبی صلی اللہ علیہ وسلم بالمدينة. وهو يتوكأ على عسيب. فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم: لو

سألتهموه. فقالوا: حدثنا عن الروح. فقام ساعة ورفع رأسه عرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيٍّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} . وما أخرجه الترمذى وصححه عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل. فقالوا: اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله: {وَيَسَأَلُوكُمْ عَنِ الرُّوحِ} .

فهذا الخبر الثاني يدل على أنها بمكة وأن سبب نزولها سؤال قريش إليها . أما الأول فصريح في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إليها وهو أرجح من وجهين: أحدهما أنه روایة البخاري أما الثاني فإنه روایة الترمذى ومن المقرر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره. ثانيهما أن راوي الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الروایة الأولى بخلاف الخبر الثاني فإن روایة ابن عباس لا تدل الروایة على أنه كان حاضر القصة ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء وفي الاستيقاظ ليست لغير المشاهدة ومن هنا أعملنا الروایة الأولى وأهملنا الثانية.

**الثالثة** : أن تكون الروایات كلها صحيحة ولا مرجع لها؛ لكن يمكن الجمع بينهما بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً لتقارب زمنيهما فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه .

مثال ذلك : مثال ذلك: ما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "البينة أو حد في ظهرك" . فقال يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يتلمس البينة. وفي روایة أنه قال: والذي بعثك بالحق إنني لصادق ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ} حتى بلغ {إِنَّ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} .

وأخرج الشیخان واللفظ للبخاري عن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصم بن عدي وكان سيدبني عجلان فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فقتلونه أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله وفي روایة مسلم فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره

رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها. فقال عويمر والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فجاءه عويمر فقال يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنله فقتلته ألم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك". فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة بما سمي الله في كتابه فلاعنها.

فهاتان الروايتان صحيحتان ولا مرجح لإدراهما على الأخرى ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما على اعتبار أن أول من سأله هو هلال بن أمية ثم قفا عويمر قبل إجابته فسأل بواسطة عاصم مرة وبنفسه مرة أخرى فأنزل الله الآية إجابة للحاديين معاً. ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال إدراهما وإهمال الأخرى إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه. ثم لا جائز أن نردهما معاً لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما. ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى لأن ذلك ترجيح بلا مرجح. فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً. وإليه جنح النووي وسبقه إليه الخطيب فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد أهـ.

**الرابعة** : استواء الروايتين في الصحة دون مرجح لإدراهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب فحكمها أن تحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان . قال الزركشي في البرهان: وقد ينزل الشيء تعظيماً لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه أهـ.

مثال ذلك ما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: "لأمثلن بسبعين منهم مكانك" فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوَقِّبْتُمْ بِهِ} إلى آخر السورة وهن ثلاثة آيات.

وأخرج الترمذى والحاكم عن أبي بن كعب قال "لما كان يوم أحد أصيـبـ من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثـلـواـ بهـ فـقـالـتـ الأـنـصـارـ لـعـنـ أـصـبـنـاـ مـنـهـ يـوـمـاـ مـثـلـ هـذـاـ لـتـرـيـنـ أـيـ لـتـزـيدـنـ عـلـيـهـمـ ، فـلـمـ كـانـ يـوـمـ فـتـحـ مـكـةـ أـنـزـلـ اللـهـ {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ} .

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة عقيبها معاً. وإن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها مرة في أحد ومرة يوم الفتح. وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية.

وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين في المدينة وتكون عدة مرات نزولها ثلاثة. وبعضهم يقول إن سورة النحل مكية ما عدا خواتيمها تلك فإنها مدنية وعليه فعدة مرات نزولها اثنان فقط.

وإذا استشكل على تكرار النزول بأنه عبث ما دامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد وحفظها الرسول صلى الله عليه وسلم واستظهراها الحفاظ من الصحابة ويمكن الرجوع إليها من غير حاجة إلى نزولها مرة أخرى.

فالجواب أن هناك حكمة عالية في هذا التكرار وهي تنبية الله لعباده ولفت نظرهم إلى ما في طي تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة والفوائد الجمة التي هم في أشد الحاجة إليها. فخواتيم سورة النحل التي معنا مثلاً نلاحظ أن الحكمة في تكرارها هي تنبية الله لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية في تحري العدالة وضبط النفس عند الغضب ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق والتدرع بالصبر والثبات. والاعتماد على الله والثقة بتائيده ونصره لكل من اتقاه وأحسن في عمله جعلنا الله منهم أجمعين آمين.

أضف إلى هذه الحكمة ما ذكره الزركشي آنفاً من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر وتذكير به خوف نسيانه.

## ـ تعدد النازل والسبب واحد :

قد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة على عكس ما سبق ولا مانع من ذلك لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس وهداية الخلق وبيان الحق عند الحاجة بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ما أخرجه ابن جرير الطبراني والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل شجرة فقال: "إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه". فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "علام تستمني أنت وأصحابك؟" فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلقوه بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم. فأنزل الله: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفَّارِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَلُكْ حَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} من سورة التوبة.

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذمي عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتُلُوا لَا كَفَرُوا لَا كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَانَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} من سورة آل عمران ا

هـ.

وأخرج الحاكم أيضا عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله: تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ۚ} وأنزلت {أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى}.

## عموم اللفظ وخصوص السبب :

ومعناه أن يأتي الجواب أعم من السبب ويكون السبب أخص من لفظ الجواب. وذلك جائز عقلاً وواقع فعلاً لأنه لا محظوظ فيه ولا قصور بل إن عمومه مع خصوص سبيه موف بالغاية ومؤد للمقصود وزيادة.

اختلاف العلماء في حكمه أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب؟

ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ سواء منها أفراد السبب وغير أفراد السبب. ومثال ذلك: حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته وقد نزل فيها قول الله تعالى:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} نجد فيها أن السبب خاص وهو قذف هلال ؛ لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عام - كما ترى - وهو لفظ {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} . وهو اسم موصول والموصول من صيغ العموم وقد جاء الحكم بالملائنة في الآية محمولا عليه من غير تخصيص. فيتناول بعمومه أفراد القاذفين في أزواجهم ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم سواء منهم هلال بن أمية صاحب السبب وغيره ولا تحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل من قياس أو سواه بل هو ثابت بعموم هذا النص. ومعلوم أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النص. ذلك مذهب الجمهور.

وقال غير الجمهور: إن العبرة بخصوص السبب. ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصورا على الحادثة التي نزل هو لأجلها أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية إنما يعلم بدليل مستأنف آخر هو القياس إذا استوفى شروطه أو قوله صلى الله عليه وسلم: "حكمي على الواحد حكمي على الجماعة" فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجه خاصة بهذه الحادثة وحدها على هذا الرأي. أما حكم غيرها مما يشبهها فإنما يعرف قياسا عليها أو عملا بالحديث المذكور.

ويجب أن نلاحظ أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم محله إذا لم تقم القرينة على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصورا على سببه لا محالة بإجماع العلماء.

وإلى هذا المعنى يشير ابن تيمية بقوله: قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا لا سيما إن كان المذكور شخصا كقولهم: إن الآية الظهار نزلت في امرأة قيس بن ثابت وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله وإن آية قوله: {وَأَنِ احْكُمْ بِئْتَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} نزلت فيبني قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة أو في قوم من اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فإن هذا لا ي قوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب: هل يختص بسببه؟ لم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين. وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها

سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته أهـ.  
ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرتين: أحدهما أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول  
عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور. وذلك النص قطعي المتن اتفاقاً وقد يكون مع ذلك  
قطعي الدلالة. أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدللاً عليه  
بذلك النص بل القياس أو الحديث المعروف وكلاهما غير قطعي.

الثاني أن أفراد غير السبب كلها يتناولها الحكم عند الجمهور ما دام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور فلا يسخبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس.

## المكي والمدني من القرآن الكريم

القرآن عندما نزل، نزل في مدة طويلة تبلغ ثلاثة وعشرون عاماً، منها ثلاثة عشر عاماً في مكة ، وعشرة أعوام في المدينة. ولأجل ذلك ذكر العلماء موقع نزول القرآن ، فالصحابة قد اهتموا بهذا الباب اهتماماً شديداً ، وضيّطوا لهذه الأمة موقع نزوله.

فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه روى البخاري بسنده عنه أنه قال: والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

### عدد السور المكية والمدنية وال سور المختلف فيها:

١-السور المكية: اثنان وثمانون .٢-السور المدنية: عشرون .٣-السور المختلفة فيها: اثنا عشر.

السور المدنية المتفق عليها: عشرون سورة (٢٠).

وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحرير، والنصر.

وأما السور المختلف فيها هل هي مكية أو مدنية على: اثنا عشر سورة (١٢).

وهي : الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصاف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، والناس.

وما تبقى تكون من السور المكية : وعددتها اثنان وثمانون سورة (٨٢) .

### تعريف المكي والمدني أو الفرق بين المكي والمدني :

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات:

**القول الأول:** من عرّفه باعتبار مكان النزول: فما نزل في مكة وما حولها ولو بعد الهجرة، فهو مكي، وما نزل في المدينة وما حولها، فهو مدني.

**القول الثاني :** أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة. وعليه يحمل قول من قال: إن ما صدر في القرآن بلفظ {يا أيها الناس} فهو مكي وما صدر فيه بلفظ {يا أيها الذين آمنوا} فهو مدني لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فخوطبوا بيا أيها الناس وإن كان غيرهم داخلاً فيهم .

**والقول الثالث:** من عرّفه باعتبار زمان النزول، وذلك يجعل الهجرة حدًّا فاصلاً: (( فالمكي ما نزل قبل الهجرة؛ وإن كان بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة؛ وإن كان بمكة، وما نزل في

## المكي والمدني من القرآن الكريم

أثناء الهجرة قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة ؟ فهو مكي )) .

وهذا التعريف الذي رجحه العلماء لأنّه حاصر وضابط ، ولا تخرج عنه آية من آيات القرآن ، خلافاً للقول الآخر ، لأن من عرفه باعتبار مكان النزول قالوا : ( المكي ما نزل بمكة وما جاورها ك (مني ، وعرفات ، والحدبية ) والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها ك (أحد ، وقباء ، وبدر) ، فإنّه غير حاصر ولا ضابط ، لأن ليس كل القرآن اختصر نزوله على هذه الأمكانة؛ بل هناك آيات قرآنية نزلت في تبوك ، والطائف ، وبيت المقدس وغيرها.

## طريق معرفة المكي والمدني:

### يعرف المكي والمدني بأحد طريقين:

الطريق (المنهج) الأول: النقلاني السمعي: وهي الآيات وال سور التي عرفنا أنها مكية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

الطريق (المنهج) الثاني: القياسي الاجتهادي: نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات وال سور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول "السماعي النقلاني" واستنبتوا خصائص وضوابط للسور المكية وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السورة المدنية قالوا إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس فسمي هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

**والذي اشتهر بمعرفة المكي والمدني من الصحابة رضوان الله عليهم** هو عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه روى البخاري بسنده عنه أنه قال: والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

## المكي والمدني من القرآن الكريم

### مميزات وخصائص السور المكية :

- ١- الدعوة إلى التوحيد وإبطال الشرك والكلام عن اليوم الآخر وإثبات البعث.
- ٢- فضح أعمال المشركين .
- ٣- قوة الألفاظ مع قصر الفوائل والإيجاز.
- ٤- الإكثار من قصص الأنبياء .
- ٥- الاهتمام بالأخلاق والتشريع من حيث العموم .

### ضوابط السور المكية :

- ١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية وهي (١٤) سجدة .
- ٢- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية ، وذكرت ثلاثة وثلاثين مرة، في خمسة عشرة سورة ، في النصف الأخير من القرآن ، لأنها كلمة رد وجزر تناسب عناد المشركين وكبرائهم.
- ٣- كل سورة مبدوعة بقسم فهي مكية، وهي خمس عشرة سورة هي "الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، القمر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر".
- ٤- كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي فهي مكية، ما عدا البقرة وآل عمران فإنهم مدنیتان بالإجماع، فيكون الباقي سبعة وعشرين سورة مكية.
- ٥- كل سورة مفتتحة بالحمد فهي مكية .
- ٦- كل سورة فيها (يا أيها الناس)، وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا)، فهي مكية كيونس، وفاطر.
- ٧- كل سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم الغابرة؛ فهي مكية سوى البقرة وآل عمران.

### مميزات وخصائص السور المدنية :

- ١- بيان تفاصيل أحكام الشريعة ، من عبادات ، ومعاملات ، وحدود ، ونظام أسرة ، والجهاد.
- ٢- مخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام .
- ٣- الكشف عن حقيقة المنافقين ، وبيان خطفهم وصفاتهم الズمية.
- ٤- طول المقاطع والآيات وال سور في الغالب.

### ضوابط السور المدنية :

- ١- كل سورة فيها ذكر الفرائض والحدود فهي مدنية .
- ٢- كل سورة فيها ذكر أهل الكتاب ومجادلتهم فهي مدنية .
- ٣- كل سورة فيها ذكر الجهاد ، أو الحث عليه ، أو توضيح أحكامه فهي مدنية .
- ٤- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية .
- ٥- كل سورة فيها (يا أيها الذين آمنوا)، وليس فيها (يا أيها الناس) ، فهي مدنية .

## المكي والمدني من القرآن الكريم

(تنبيه: أن ضوابط المكي والمدني قياسية أغلبية لا حتمية).

### أنواع السور المكية والمدنية:

قد تكون السورة كلها مكية وقد تكون كلها مدنية وقد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها فتلك أربعة أنواع:

النوع الأول سورة المدثر فإنها كلها مكية.

النوع الثاني: مثاله سورة آل عمران فإنها كلها مدنية.

النوع الثالث سورة الأعراف فإنها مكية. ما عدا آية {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ} قاله قتادة. واستثنى غيره هذه الآية المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه: {وَإِذْ أَخَذَ رِبُّكَ مِنْ نَبِيٍّ آدَمَ} وقال: إن تلك الآيات مدنية.

النوع الرابع سورة الحج فإنها مدنية ما عدا أربع آيات منها تبتدئ بقوله سبحانه {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى} إلى قوله {عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}.

### من فوائد العلم بالمكي والمدني:

أولاً: يساعد على فهم وتدبر القرآن بصورة دقيقة وسليمة.

ثانياً: الاستعانة به فيربط معاني القرآن بواقع الحياة ووقائعها وأحداثها.

ثالثاً: تمييز الناسخ من المنسوخ.

رابعاً: الوقوف على سيرة النبي ﷺ وذلك لأن نزول القرآن على النبي ﷺ ساير تاريخ الدعوة بمراحلها المختلفة.

خامساً: ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرجـه الحـكـيم بوجه عام.

## جمع القرآن الكريم

تضافت الأدلة الكثيرة التي توضح حفظ الله عَجَلَ لكتابه العزيز ، قال تعالى: ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )، وقال تعالى: ( وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ )، فهذه الأدلة وغيرها تدل بصورة قاطعة على حفظ الله عَجَلَ لكتابه من التغيير والتبدل على امتداد الزمان، وأن الخلق لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك، وقد هيأ الله الأسباب العظيمة التي من خلالها تحقق هذا الحفظ العظيم لكتابه العزيز، وذلك من خلال نوعين من أنواع الجمع تمّا في عهد النبي ﷺ واستمرّا إلى يومنا هذا؛ بل وزادت وسائل أخرى تعين على الحفظ له في عصرنا الحديث.

**وجمع القرآن الكريم عند إطلاقه كمصطلح يراد به واحد من معنيين وهما :**

**الأول :** جمعه بمعنى حفظه في الصدور كما قال تعالى: ( إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَةُ وَقْرَآنَهُ ).

**والثاني :** جمعه بمعنى كتابته وتدوينه في السطور .

### **جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور :**

**حفظ النبي ﷺ للقرآن :** من أبرز خصائص القرآن الكريم أن يسره الله عَجَلَ للحفظ، والفهم، والعمل قال تعالى: ( وَلَقَدْ يَسَّرَنَا الْقُرْآنُ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ) وقد تكفل الله عَجَلَ لرسوله ﷺ منذ بداية الوحي : { لَا تُحِرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَةُ وَقْرَآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } .

### **حفظ الصحابة ومن بعدهم للقرآن الكريم :**

أقبل أصحاب النبي ﷺ على تعلم القرآن الكريم حفظاً، وفهمًا، وعملاً، بصورة يندر لها مثيل، ومما دفعهم على حفظه، والإقبال عليه بصورة خاصة؛ تشجيع النبي ﷺ لهم على ذلك.

ومن خلال سنته العملية التي تشير بصورة واضحة إلى منزلة ومكانة أهل القرآن العالية عند الله عَجَلَ ؛ إذ كان النبي ﷺ يفضل بين الصحابة أحياً وأمواتاً بما معهم من قرآن، كما فعل بشهداء أحد، وتقدمه لإماماة الصلاة التي هي من أعظم العبادات دلالة على فضله ومكانته، وقد زوج النبي ﷺ الرجل الذي ليس عنده مهر بما معه من قرآن تشجيعاً لهم على الحفظ، فدلّ على فضل القراءة عن ظهر قلب لأنّها أمكن في التوصل إلى التعليم.

وقد تلقّى التابعون القرآن عن أصحاب النبي ﷺ حفظاً وفهمًا ، خاصة من أولئك الذين تفرغوا لتدريسه كابن عباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وغيرهم.

لذا استمر حفظ القرآن وجمعه في الصدور في هذه الأمة منذ تلك القرون المفضلة إلى يومنا هذا بسند متصل جيلاً عن جيل لم ينقطع في فترة من تاريخها الطويل .

## **والجمع بمعنى حفظه بالصدور مزايا وخصائص منها:**

- ١- أن جمع القرآن بمعنى حفظه هو أوائل علوم القرآن الكريم ظهوراً ونشأة.
- ٢- أنه دائم لا ينقطع إن شاء الله تعالى، إلى أن يأذن الله برفعه.
- ٣- أن الحفظ في الصدور خاص بالقرآن وليس هناك كتاب يحفظه أهله غير القرآن.
- ٤- أنه يجب على كل مسلم أن يحفظ من القرآن ما يؤدي به الصلوات.
- ٥- الوعيد لمن حفظ شيئاً من القرآن ثم نسيه.

## **جمع القرآن بمعنى كتابته وحفظه في السطور :**

كما اهتم النبي ﷺ بتشجيع الصحابة على حفظ القرآن في الصدور اهتم كذلك بحفظه في السطور، وقد مر جمع القرآن في السطور بثلاث مراحل مهمة في تاريخه وهي :

**المرحلة الأولى :** في عهد النبي ﷺ .

**المرحلة الثانية :** في عهد أبي بكر الصديق ؓ .

**المرحلة الثالثة :** في عهد عثمان ؓ .

كيف يجمع الشيء الواحد ثلث مرات فإذا كان جمِعَ في عهد الرسول ﷺ، فكيف يجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وإذا جمع في عهد أبي بكر ثانية فكيف يجمع ثالثة في عهد عثمان رضي الله عنه .

**والجواب :** أنه لا يراد بالجمع معناه الحقيقي في جميع المراحل. فالمراد بجمع القرآن في عهد الرسول ﷺ "كتابه وتدوينه" والمراد بجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه "جمع في مصحف واحد". والمراد بجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه "نسخه" في مصاحف متعددة، ويظهر بهذا أن الجمع معناه الحقيقي كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

## **المرحلة الأولى : جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد النبي ﷺ :**

### **أ/ كتاب الوحي :**

اهتم النبي ﷺ منذ بداية الوحي . على الرغم من قلة الكتاب، وعدم توفر وسائل الكتابة . بكتابة القرآن الكريم وذلك من خلال اتخاذه عدداً من كُتاب الوحي مع الإذن لل المسلمين بكتابته لأنفسهم ، كما قال ﷺ لأصحابه: ( لا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرُ الْقُرْآنِ فَلِيُمْحَهُ ).

**ومن أبرز كتاب الوحي** للنبي ﷺ ، الخلفاء الأربع، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي، وهو أول من كتب له الوحي بمكة، وأبي بن كعب الأنصاري الخزرجي، وهو أول من كتب للنبي ﷺ عند قدومه

المدينة، وزيد بن ثابت الأنباري الخزرجي، وهو أكثر الكتاب ملازمة للنبي ﷺ، ومعاوية بن أبي سفيان القرشي، طلب أبوه من النبي ﷺ في فتح مكة أن يجعله كاتباً بين يديه فكان بعد ذلك ملازماً للكتابة بين يدي النبي ﷺ رضي الله عنهم أجمعين.

**ب/ وسائل الكتابة** : لم تكن وسائل الكتابة ميسّرة ، بل كانوا يكتبون على وسائل بدائية توفرت لديهم على حسب الحال ؛ والتي منها :

**الرِّقَاع** : جمع رقعة ، وهي القطعة التي تكون من جلد أو قماش أو ورق .

**والعُسْب** : جمع عسيب، وهو طرف الجريد العريض بعد أن يكشطون الخوص.

**واللِّخَاف** : جمع لحفة ، بفتح فسكون ، وهي الحجارة الرقيقة .

**والأقتاب** : جمع قتب ، وهو قطع الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

**والأكتاف** : جمع كتف ، وهي العظام العريضة من أكتاف الحيوان كالإبل والبقر .

**ج/ مميزات جمع القرآن في عهد النبي ﷺ** : تميز بمميزات أبرزها ما يلي :

١- كانت كتابته بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، كما قال النبي ﷺ: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُوفٍ ، فَاقْرَأُوهُ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) ؛ لأنه كتب كما أنزل .

٢- كتب وجمع تحت رعاية إلهية ، إذ لو كان فيها أدنى ملاحظة ، لأخبر النبي ﷺ .

٣- كان مشتملاً على بعض الآيات التي نسخت تلاوة، لأنها ظلت مكتوبة ولم تخرج من المكتوب حتى توفي النبي ﷺ ، ولكن الصحابة كانوا يعلمون بنسخها قطعاً ، فمن عائشة أنها قالت: ((كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمُنَ )) ، ثُمَّ تُسْخِنَ ((بِحَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ )) ، فَتُؤْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ)).

٤- أجمع العلماء على أنه مرتب الآيات ، واحتلوا في ترتيب السور .

٥- لم يكن القرآن الكريم قد جمع في مصحف واحد ، وإنما كان مكتوباً لكن مفرقًا على الرقاع ، والعسب ، والأقتاب ، ونحوها ، ولهذا قال زيد بن ثابت عن الجمع الذي تم في عهد أبي بكر الصديق : (( فَتَتَبَعَتِ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنْ الْعُسْبِ وَاللِّخَافِ ، وَصُدُورِ الرِّجَالِ )) .

**د/ أسباب عدم جمع القرآن في مصحف واحد في عهد النبي ﷺ** :

١- الأئم من ذهاب شيء من القرآن الكريم، والنبي ﷺ موجود، والصحابة كانوا إذا اختلفوا في شيء رجعوا إلى النبي ﷺ لا إلى المكتوب. والله تعالى قد أمن نبيه ﷺ من النسيان بقوله سبحانه وتعالى: {سَنُنْفِرُكُمْ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} .

٢- ما كان يترقبه النبي ﷺ من ورود ناسخ لبعض الآيات، إذ التشريع لم يكن قد اكتمل.

٣- كلما نزل شيء جديد اضطروا إلى تغييره.

٤- قصر الفترة بين اكتمال نزول القرآن ووفاة النبي ﷺ، وهي لم تتجاوز تسع ليالٍ فقط، وهي مدة لا تكفي لجمع القرآن الكريم .

٥- توفر عدد كبير من حملة القرآن وكتابه، بصورة لا يخشى معها ذهاب شيء من القرآن الكريم .

**المرحلة الثانية: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق**

## أ/ أسباب الجمع :

تولى أمر الأمة بعد وفاة النبي ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد واجهته فتنة عظيمة ، من أبرزها ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام ، وامتناع بعضها عن أداء الزكوة ، مما دعا الصديق رضي الله عنه إلى أن يحزم أمره ، ويجرد جيوشه لمقاتلة المرتدين ، والمانعين.

وكان قوام هذه الجيوش أصحاب النبي ﷺ ، ومن أبرزهم حملة القرآن الكريم ، وقد اشتد القتال بال المسلمين في معركة اليمامة، وقتل الكثير من الصحابة، ومن حملة القرآن؛ وذلك لشراسة المعركة، وكثرة المرتدين حتى قيل أن الذين قتلوا خمسمائة، وقيل سبعمائة، وقيل أكثر، فخشى الفاروق عمر رض أن يشتد القتال بالقراء في الموضع الأخرى فيضيع شيء من القرآن بمقتل حملته في المعارك، إذ العلم يقبض بقبض أهله، ولذا جاء إلى الصديق رض وحثه على جمع القرآن في مكان واحد، على مصحف إمام، بدلاً من العسب، والرفاع، واللخاف، ونحوها.

ومن هنا يظهر لنا أن من أسباب الجمع الأساسية الذي تم في عهد أبي بكر

## الصديق هو : رضي الله عنه

**أولاً:** الخوف من ذهاب شيء من القرآن الكريم بموت حملته .

**ثانياً** : أنّهم كانوا يريدون جمعاً للقرآن الكريم؛ يتم بحضور أكابر الصحابة ، وينعقد الإجماع عليه ، على أنّه هو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ دون زيادة أو نقصان . وذلك سداً لباب الفتنة؛ التي ربّما كانت تقع فيما بعد؛ لو لم يقدّر الله هذا العمل العظيم؛ الذي تمَّ بعد معركة اليمامة في السنة الثانية عشر للهجرة .

ثم اختير زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا المهمة وذلك لأسباب عامة، منها :

١- كونه من كتاب الوحي ومن حفاظ القرآن الكريم .

٢- أنه شهد العرضة الأخيرة.

٣- أنه قرأ القرآن مرتين على النبي ﷺ بعد العرضة الأخيرة .

٤ - أنه كان أكتب القوم وأحسنهم خطأ .

- ب/ منهج الجمع الذي تم في عهد أبي بكر الصديق** رضي الله عنه : وقد قام هذا الجمع الذي اعتمد فيه على المكتوب ، والمحفوظ ، على ثلاثة أسس ثابتة ، تدل على متناته ، ودقته ، وهي :
- ١- لا يأخذون شيئاً من المحفوظ في الصدور ؛ إلا إذا تلقاه الصحابي من فم النبي ﷺ مباشرة ، دون واسطة .
  - ٢- لا يعتمدون على شيء من المكتوب من القرآن الكريم ؛ إلا إذا كان قد كتب بين يدي النبي ﷺ .
  - ٣- لابد لمن تلقى شيئاً كتابةً ، أو حفظاً من رسول الله ﷺ أن يشهد له شاهدان ، كما قال أبو بكر لزيد وعمر ! : (( أقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكمَا بشهادتِين على شيءٍ من كتابِ الله فاكتتبوا )) .

**ج/ مميزات جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق** رضي الله عنه :

- ١- اقتصر في هذا الجمع على ما لم تنسخ تلاوته من الآيات .
  - ٢- كان على الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن ؛ لأنَّ مهمة الصديق كانت منحصرة في التحقق من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، وجمعه في مكان واحد خشية الضياع .
  - ٣- كان مرتب الآيات بالإجماع وفي ترتيب السور خلاف .
  - ٤- ظفر هذا الجمع بإجماع الأمة عليه لأنَّه قام على أدقَّ المعايير في التثبت والتوثيق ، وهذا يدل على مكانة هذا الجمع .
  - ٥- جمع في نسخة واحدة حفظت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
- فكان الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه .

**المرحلة الثالثة: جمع القرآن بمعنى نسخه في عهد عثمان** رضي الله عنه :

**أ/ أسباب الجمع :**

فكان السبب لهذا الجمع هو قطع دابر الخلاف ، وحسن مادة النزاع في قراءة القرآن الكريم ، بسبب اختلاف الأحرف السبعة ؛ وذلك بجمع الناس على حرف واحد ، ورسم واحد ، يجمع في مصحفٍ إمام ، يقرأ منه أهل كل مصر ، ويحرق ماعدها من مصاحف وصحف .

**المكافون بالجمع :** زيد بن ثابت ، عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وهؤلاء الثلاثة من قريش.

**ب/ مميزات جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه :**

- ١- جمع القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة ، قال ابن القييم رحمه الله : (( جمع عثمان الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة ؛ التي أطلق لهم الرسول ﷺ القراءة بها لما كان ذلك مصلحة )) .

- ٢- كتب بلغة قريش ، ورسم برسم يحتمل لأوجه القراءات الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ .
- ٣- كان مرتب الآيات وال سور على الوجه المعروف اليوم في المصاحف دون خلاف .
- ٤- نسخ القرآن في عدد من المصاحف .
- ٥- جمع بهدف حمل الناس على القراءة من هذا النسخ ، وتحريق ما سواه من صحيفة، ومصحف ؟ كما جاء في رواية البخاري : (( وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفْقٍ بِمُصْحَّفٍ مِمَّا نَسَّحُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنْ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ ، أَوْ مُصْحَّفٍ أَنْ يُحْرَقَ )) .

### ج/ الفرق بين جمع أبي بكر الصديق وجمع عثمان رضي الله عنهمما:

اعتنى العلماء بالحديث عن الفرق بين الجمدين اللذين تمما في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهمما، وذلك لإزالة اللبس الذي قد يقع، ولتوسيع مميزات كل جمع، ولذا يمكن تلخيص أهم هذه الفروق فيما يلي :

- ١- أن البعض لجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظه، أما جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فلكرة الاختلاف في وجود القراءة.
- ٢- أن جمع أبي بكر رضي الله عنه على الأحرف السبعة، أما جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فقد كان على حرف واحد من الأحرف السبعة .
- ٣- أن جمع أبي بكر رضي الله عنه كان مرتب الآيات وفي ترتيب السور خلاف، أما جمع عثمان رضي الله عنه فقد كان مرتب الآيات وال سور باتفاق.
- ٤- أن الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه بمعنى الجمع في مصحف واحد وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه ، فبمعنى نسخه في مصاحف متعددة.

### الشبه المثارة حول جمع القرآن الكريم

أثار أعداء الإسلام قديماً وحديثاً بعض الشبهات حول الإسلام ، ورسوله ، وكتابه ، ولازال خلفهم يعيد صياغة هذه الشبهات ، ويطرحها بأسلوب العصر الذي هم فيه ، وربما اغتر بها بعض من ينتسب إلى الإسلام ، وظنها حقائق علمية، وحججاً منطقية ، لشدة ما يعتني بتزيينها وبهرجتها . فمن هذه الشبه :

الشبهة الأولى :

قالوا : إن في القرآن ما ليس منه .

واستدلوا على ذلك بما روي من أن ابن مسعود أنكر أن المعاوذتين من القرآن . وأن مصحف ابن مسعود قد أسقطت منه الفاتحة .

الجواب :

١- ما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه لم يصح . وهو مخالف لِإجماع الأمة .

٢- وعلى فرض صحته ، فالذي يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ فتوقف في أمرهما .  
**الشبهة الثانية :**

يزعم بعض الناس أن أبا بكر وعثمان ! حرفوا القرآن ، وأسقطوا بعض آياته وسوره . فحرفو لفظ . { أُمَّةٌ هي أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ } ، والأصل " أئمة هي أركى من أئمتك " . وأسقطوا من سورة الأحزاب آيات فضائل أهل البيت ، وقد كانت في طولها مثل سورة الأنعام . وأسقطوا سورة الولادة بتمامها من القرآن .

**الجواب :** ويحتجب عن هذه الشبهة بما يلي :

١- أن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها ، ودعواي لا بينة عليها .

٢- تبرأ بعض علمائهم من هذا الافتراء ونفيوه .

٣- انعقد الإجماع بتواتر القرآن الذي بين دفتي المصحف .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين " . وقال في جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه : " يا معاشر الناس ، اتقوا الله ، وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم : حراق مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله

ﷺ

**الشبهة الثالثة :**

زعم بعض الناس أن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى حفظ الصحابة ، وقد قتل بعضهم ، وذهب معهم ما كانوا يحفظونه .

**الجواب :**

ويحتجب عليهم بأن ما كان يحفظه الشهداء من القرآن ، كان يحفظه كثير غيرهم من الأحياء .

بدليل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " وأخشى أن يموت القراء من سائر المواطن " . ومعنى هذا أن القراء لم يموتونا جميعاً . ومعلوم أن أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم قد حفظوا القرآن كله ، وهؤلاء عاشوا وقت جمع القرآن . وقد تقدم أن القرآن كتب بين يدي النبي ﷺ وكتابه معروفون مشهورون .

## ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم

معنى الآية في اللغة: تطلق على المعجزة ، والعلامة ، البرهان والدليل .

وفي الاصطلاح:

طائفة من الحروف والكلمات ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن .

طريقة معرفة الآية :

لا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوفيق من الشارع لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيها آية ولم يعدوا نظيرها {المص} إنما هو محض تعليم وإرشاد بدليل أن العلماء عدوا حم {آية وعدوا } طس آية ولم يعدوا نظيرها وهو {يس} آية وعدوا {المر} وهو آيتين بل آية واحدة فلو كان الأمر مبنيا على {كهيущ} آيتين ولم يعدوا نظيرها وهو {عسق} القياس لكان حكم المثلين واحدا فيما ذكر ولم يجيء هكذا مختلفا .  
وبعض العلماء يذهب إلى أن معرفة الآيات منه ما هو سمعي توقيفي ومنها ما هو قياسي .

إطلاقات الآية عند العلماء:

أ- جزء من آية. ب- الآية في المعنى الاصطلاحي. ج- على ما هو أكثر من ذلك .

عدد آيات القرآن: أجمع العلماء على أنها ( ٦٢٠٠ آية )، وختلفوا فيما زاد على ذلك. فقيل ٦٢٠٠، وقيل ٦٢٠٤، وقيل ٢٦١٤، وقيل ٢٦٢٥، وقيل ٢٦٣٦ آية.  
**سبب الاختلاف في عدد آيات القرآن:** أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآيات ليعلم أصحابه أنها رأس آية، حتى إذا علم ذلك صار يصل الآية بما بعدها لتمام المعنى، فيحسب من لم يسمع النبي ﷺ أنها ليست فاصلة فيعد الآيتين آية واحدة، ولذا اختلف العدد.. وليس لهذا أثر يذكر ما دام القرآن سالماً من الزيادة أو النقصان.

- **ترتيب الآيات في سور القرآن** : انعقد الإجماع على أن ترتيب الآيات في القرآن توقيفي ، فلقد كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول - ﷺ - ويرسله إلى موضع كل آية من سورتها ، ثم يقرؤها النبي - ﷺ - على أصحابه ، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها معينا لهم السورة وموضع الآية منها .

فعن عبد الله بن الزبير قال : " قلت لعثمان : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَزْوَاجًا } ] البقرة : ٢٣٤ [ قد نسختها الآية الأخرى ، فلِمَ تكتبها أو تدعها ؟ قال : " يا ابن أخي ، لا أغيّر شيئاً من مكانه " رواه البخاري .

- وجاءت الأحاديث الصحيحة بفضل آيات من سور بعضها ، وثبتت قراءة رسول الله - ﷺ - لسور عديدة بترتيب آياتها في الصلاة أو الخطب .  
**حكم الالتزام بترتيب الآيات في السور:** واجب وتحرم مخالفته .

## ترتيب سور القرآن الكريم

- معنى السورة في اللغة: يراد بها : المنزلة و الشرف والرفة  
- في الاصطلاح : طائفة من آيات القرآن ذات بداية ونهاية، مرتبة بترتيب النبي ﷺ ، مسماة باسم خاص.

### مسألة ترتيب السور:

اختلاف العلماء في ترتيب سور القرآن على ثلاثة أقوال :

**القول الأول** : ذهب عدد من العلماء إلى أن ترتيب السور توقيفي من النبي ﷺ أخذه عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين، ليس للاجتهاد فيه أي مجال، وأنه لم توضع السور في موضعها إلا وفق ما نزل به جبريل على النبي ﷺ، وأن ترتيب السور كترتيب الآيات سواء .

ودليلهم قول النبي - ﷺ - لوفد ثقيف : " طرأ على حزب من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه ". قال أوس : فسألنا أصحاب رسول الله - ﷺ - قلنا : كيف تحربون القرآن ؟ قالوا: نحربه ثلاثة سور ، وخمس سور وسبعين سور ، وتسعة سور ، وإحدى عشرة سورة ،

وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من (ق) حتى نختم " .  
وأجمع الصحابة على المصحف الذي كتب في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

**القول الثاني:** أن ترتيب السور بعضه توفيقي من النبي ﷺ ، وبعضه الآخر كان اجتهادياً الصحابة . فما ورد فيه دليل على ترتيبه يكون توفيقي ، وما لم يرد فيه دليل يتركه النبي ﷺ لاجتهاد الصحابة ، ومعيار تحديد السور المرتبة توفيقاً هو ما اشتهر من قراءة النبي ﷺ فما وردت قراءته مرتبًا حكم بتوفيق ترتيبه، وما لم يرد مرتبًا حكم باجتهاد الصحابة في ترتيبه وهو الراجح في ذلك .

**القول الثالث:** أن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة ! .

#### - خلاصة الخلاف :

سواء كان الترتيب توفيقياً أو اجتهادياً فإنه ينبغي احترامه، ولا سيما في كتابة المصحف، لأن الصحابة أجمعوا على ذلك بعد جمع مصحف عثمان، والإجماع حجة، ولأن الخلاف يجرنا إلى فتنه ، ودرء الفتنة وسد الذرائع واجب .

**حكم ترتيب القرآن في التلاوة :** كان أغلب فعل النبي - ﷺ - ترتيب السور في التلاوة والصلوة ، وربماقرأ في الركعة الواحدة بما يخالف الترتيب المأثور ، كقراءاته البقرة ثم النساء ثم آل عمران في قيام الليل ، فهو مستحب وليس بواجب .

**عدد السور:** مائة وأربع عشرة سورة .

#### **أقسام السور باعتبار الطول والقصر:** قسم العلماء السور إلى أربعة أقسام:

- ١ - الطوال: وهي سبع: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام والأعراف، والسابعة قيل: الأنفال وبراءة لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وقيل يونس.
- ٢ - المئون: التي تلي الطوال وهي ما تزيد آياتها عن مائة أو تقاربها.
- ٣ - المثاني: التي تلي المئين؛ وهي السور التي آياتها أقل من مائة، وسميت مثاني لأنها

تنى أكثر مما يتنى الطوال والمعون.

٤- المفصل: التي تلي المثاني من قصار سور سمى بذلك لكثرة الفواصل التي بين سور بالبسملة، وقيل لقلة المنسوخ فيه.

وقد اختلف في أوله على أقوال، فقيل: أوله (ق)، وقيل الحجرات.  
وللمفصل طوال وأوساط وقصار، فالطوال من أوله إلى سورة النبأ ، وأوسطه من سورة النبأ إلى سورة الضحى ، وقصاره من سورة الضحى إلى آخر القرآن.

### فوائد معرفة الآيات والسور:

لتجزئة القرآن الكريم إلى آيات وسور فوائد وحكم ، منها :

- ١- العلم بأن إعجاز القرآن وقع في قصاته ولم يقع في طواله كسورة الكوثر .
- ٢- الوقوف على سنة النبي ﷺ في القراءة ، إذ الوقوف على رؤوس الآيات سنة .
- ٣- التيسير على الناس في فهم القرآن، لأن كل سورة من القرآن تحوي محاور رئيسية وفرعية تتحدث عنها .
- ٤- التيسير على الناس في حفظ القرآن ، فكلما أتم القارئ حفظ سورة منه كان ذلك أنشط وأبسط لحفظ السورة التي تليها .

## **رسم المصحف وكتابته وشكله**

### **كتابة القرآن الكريم**

كتب القرآن جميعه بين يدي النبي ﷺ، غير أنه كان مفرقا في العسب، واللخاف، والأكتاف، والرفاع، ونحوها، وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه شيء من القرآن دعا بعض كتاب الوحي، فيأمره بكتابة ما نزل، ويرسله إلى موضعه من سورته، ولم يجاور الرسول ﷺ الرفيق الأعلى إلا القرآن كله مكتوب مسطور.

ثم كتب في عهد الصديق رضي الله عنه في مصحف، وكانت كتابته من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ.

ثم كتب في عهد عثمان رضي الله عنه في المصاحف على ما هو عليه، وكانت كتابته من عين ما كتب في عهد الصديق رضي الله تعالى عنه.

**رسم المصحف أو الرسم العثماني** يراد به: الوضع الذي ارتضاه الصحابة في عهد عثمان -رضي الله عنه- في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه.

### **قواعد رسم المصحف:**

الأصل في المكتوب أن يكون موافقا للمنطوق، من غير زيادة ولا نقص، ولا تغيير ولا تبديل، مع مراعاة الابتداء به والوقف عليه، والفصل والوصل، ولم تكن هذه القواعد منهجاً معلوماً للصحابة يلتزمون عند كتابة المصحف، وإنما هي قواعد استنبطها العلماء بعد ذلك عن طريق الاستقراء والتتبع.

كما أن هذه القواعد غير لازمة أو مطردة في كل كلمة قرآنية إذ يخرج عن كل قاعدة عدد من الكلمات أحياناً، وقد يلتزم في كلمة واحدة كتابتها وفق القاعدة في موضع وبخلافها في موضع آخر، فطريق الكتابة للمصحف هو النقل وحده.

## من أهم قواعد رسم المصحف

- ١/ قاعدة الحذف: حذف الألف تحذف في ثلاثة مواضع  
أ\_ الإشارة "يأيها" ب/ الاختصار (العالمين) ج / الاقتصار (الميعاد)، و  
الياء في "يا عِبَادِ فَاتَّقُونِ" ، والواو في "فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ" ، واللام في (الليل،  
واللائي، والتي، واللاتي، والذي) ، والنون في موضعين (فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءَ)  
و(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ )
  - ٢/ قاعدة الزيادة: وذلك كزيادة الألف في "تَفْتَوَا ، مُلَاقُوا رَبِّهِمْ" ، و الياء  
في "بَأَيْدِ" ، والواو في "أُولُوا الْأَلْبَابِ".
  - ٣/ قاعدة الهمز: وذلك لأن تكتب حال سكونها بحرف حركة ما قبلها  
"أئذن ، أوتمن".
  - ٤/ قاعدة البدل: وذلك ككتابة الألف واواً للتفخيم في "الصلة" ، وكتابة  
النون ألفاً في نون التوكيد المخففة "لِسْفَعًا" ، و هاء التائيث تاء مفتوحة في  
نحو "رحمت".
  - ٥/ قاعدة الوصل والفصل: وذلك كوصل "أن" بـ "لا" {أَلَا تَرُرُ وَازِرَةً } .
  - ٦/ قاعدة ما فيه قراءتان: فإنه يكتب برسم إحداهما ، نحو مالك.  
هذه القواعد هي أهم الفوارق بين الرسم العثماني والإملائي.
- \* رسم المصحف توقيفي أم اصطلاحي:** في المسألة عدة أقوال  
لكن القول الراجح منها ما ذهب جمهور العلماء إلى أن رسم المصحف  
العثماني توقيفي لا تجوز مخالفته واستدلوا:  
بأن القرآن الكريم كتب كله بين يدي رسول الله ﷺ، وكان ي ملي على  
كتاب الوحي، ويرشدهم في كتابته بوحي من جبريل عليه السلام.  
وكذلك لما توفي الرسول ﷺ، وجمع القرآن، أجمع الصحابة على رسمه ولا

سيما الخلفاء الراشدون ولم يخالف في ذلك أحد وإن جماعهم حجة.

أهم المؤلفات في رسم المصحف :

- ١ \_ المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار لأبي عمرو الداني .
- ٢ \_ الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف ابن وثيق الأندلسي .
- ٣ \_ البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان بن عفان . محمد بن يوسف الجهني .
- ٤ \_ عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لأبي العباس أحمد بن البناء .
- ٥ \_ رسم المصحف د غانم غندور .
- ٦ \_ جامع البيان في معرفة رسم القرآن علي إسماعيل السيد .

### شكل القرآن:

الشكل: هو ما يدل على عوارض الحرف؛ من حركة وسكون، سواء أكان ذلك في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها.

فالعرب في عهدهم الأول لم يكونوا يعرفون الشكل بمعناه الاصطلاحي بل كانوا ينطقون بالألفاظ مضبوطة مشكولة بحسب سليقتهم وفطرتهم العربية من

غير لحن، ولا غلط، فلما اتسعت رقعة الإسلام واحتلَّت العرب بالعجم فسدت الفطرة العربية، ودخل اللحن في الكلام، وحدثت حوادث نبهت المسلمين إلى القيام بحفظ القرآن الذي هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم من أن يتطرق إليه اللحن والخطأ.

أبو الأسود الدؤلي بطلب من والي البصرة، هو من وضع علامات الإعراب، لكي تبين إعراب الكلمات ومنع اللحن فيها، فجعل للفتحة نقطة فوق الحرف، وللكسرة نقطة أسفله، وللضمة نقطة بين الحرف، وللتنوين نقطتين، وسار الناس على هذا النهج مدة، ثم بدءوا يزيدون ويبتكرنون فجعلوا عالمة للحرف المشدد كالقوس ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة، أو كسرة، أو ضمة .

ثم وبعد أن أمن الناس من اللحن ، ظهر نوع آخر من الخطأ وهو التمييز بين الحروف التي تتحد صورتها بدون نقط كالباء والباء والثاء، وكالجيم والحاء، وكالدال والذال، ونحوها وشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غير معجمة.

مما دعا الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أن يأمر الحجاج بن يوسف الثقفي واليه في العراق أن يختار من العلماء من يقوم بهذا العمل.  
واختار الحجاج بن يوسف لهذا العمل عالمين هما:

١ - يحيى بن يعمر العدواني.

٢ - نصر بن عاصم الليثي.

فقاما بإعجام الحروف بوضع النقاط المعروفة إلى يومنا هذا.

ثم لثلا يقع خلط بين نقط الإعجام ونقط الإعراب قام الخليل بن أحمد، بتغيير نقط الإعراب إلى علامات الإعراب المعروفة الآن حتى لا يقع خلط بين نقط الإعراب ونقط الإعجام على النحو التالي:

- ١ - "ـ" فوق الحرف للفتح.
- ٢ - "ـ" تحت الحرف للكسر.
- ٣ - "ـ" فوق الحرف للضم.
- ٤ - "ـ" فوق الحرف للتشديد وهي رأس ش من شديد.
- ٥ - "ـ" فوق الحرف للسكون وهي رأس خ من "خفيف".

موقف العلماء من نقط المصحف وشكله والتحسينات على الرسم العثماني:  
كان العلماء في الصدر الأول يكرهون نقط المصحف وشكله ونحوهما  
مبالغة منهم في المحافظة على القرآن ، وكتابته في المصاحف على هيئة ما  
كتب بين يدي النبي ﷺ.

ولكن الحال قد تغيرت عما كان في العهد الأول: فاضطر المسلمون إلى نقطه  
وشكله للمحافظة على القرآن من اللحن والتغيير والتصحيف، وللتيسير على  
الحفظ والقارئين، وللحاجة الماسة لسلامة القرآن من اللحن وفساد اللسان  
العربي، انتهى الأمر في حكمه أنه للاستحباب والإباحة .

## — نزول القرآن على سبعة أحرف :

المراد بالأحرف السبعة :

أما الأحرف فجمع حرف ، وله في اللغة على عدة معان :

١— يطلق على الحرف من حروف الهجاء المعروفة أ. ب . ت .

٢— يطلق على اللغة فيقال : حرف قريش، وحرف ثقيف، أي : لغة قريش ولغة ثقيف .

٣— يطلق على طرف الشيء، وشفيه، وحده، وجنبه .

٤— يطلق على وجه القراءة، فيقال : حرف ابن مسعود أي : قراءته .

أما المراد بالأحرف السبعة :

اختلف العلماء كثيراً في المراد بالأحرف السبعة . قال ابن حبان : (اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولًا)، وقال السيوطي: (اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولًا) .

والقول الأشهر وهو ما ذهب إليه أكثر العلماء كسفيان، وابن وهب، وابن جرير الطبرى، والطحاوى ، وهو: أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه إذا اختلفت لغة العرب في الكلمة جاء القرآن بسبع لغات منها، واختلفوا في تحديد هذه اللغات السبع فقيل :

١—(قريش، هذيل، تميم، هوزان، كنانة، ثقيف، اليمن) .

٢— (قريش، هذيل، تميم، هوزان، الأرد، ربيعة، سعد بن بكر) ، وقيل غير ذلك .

## الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف :

ذكر العلماء تواتر نزول القرآن على سبعة أحرف، وتواترت الأحاديث كلها في الأحرف السبعة، وقد ذكر السيوطي أنه رويت عن واحد وعشرين صحابياً، وسوف نذكر بعض منها :

١- روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقراني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف" .

٢- وروى البخاري ومسلم أيضاً واللفظ للبخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتى سلم ثم لبيته بردائه أو بردائيه فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت له: كذبت فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقراني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأني سورة الفرقان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرسله يا عمر" : اقرأ يا هشام فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هكذا أنزلت" . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه" .

٣- روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضبةبني غفار. قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف. فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا .

## **أهم المؤلفات :**

- ١ – شرح حديث (أنزل القرآن على سبعة أحرف) لابن تيمية .
- ٢ – الكواكب الدرية فيما ورد في إنزال القرآن على سبعة أحرف من الأحاديث النبوية .  
تأليف محمد بن علي الحسيني المعروف بـ الحداد .
- ٣ – الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن . محمد بخيت .
- ٤ – الأحرف السبعة ومتزلة القراءات منها . د حسن ضياء الدين .
- ٥ – الأحرف السبعة . مناع القطان .

## **الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف :**

- التيسير على الأمة والرحمة بهم .
- تحقيق انتشار الدعوة الإسلامية .
- الإيجاز والإعجاز، وبيان ذلك أن في تعدد الأحرف كمال الإعجاز مع غاية الإيجاز .
- الدلالة على مصدر القرآن وأنه وحي من الله .
- توحيد لغات العرب ووحدة الأمة الإسلامية .
- أن الأحرف السبعة من خصائص أمّة محمد صلّى الله عليه وسلم .
- أن الأحرف السبعة من خصائص القرآن الكريم .

## الأمثال في القرآن

المثل في اللغة : المثل والمِثَل والمَثَل كالتَّبَه والتَّبَه والتَّبَه لفظاً ومعنى .

قال الراغب الأصفهاني : " (مثل) أصل المثل الانتساب، والمُمثَل المُصوَر على مثال غيره يقال: مثل الشيء، أي انتصب وتصور، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم(من أحب أن يمثل له الرجال فليتبواً مقعده من النار)، والتمثال: الشيء المصور، تمثل كذا أي تصور ومنه قوله تعالى : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوْحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) .

والمثل في القرآن : فهو إبراز المعنى في صورة حسيّة موجزة تكسبه روعة وجمالاً، ولها وقوعها في النفس سواء كانت تشبيهاً أو قوله مرسلاً .

### أنواع الأمثال في القرآن :

١/ **الأمثال المصرحة** : وهي التي يصرح فيها بلفظ المثل أو بما يدل عليه من تشبيه أو نظير أو سياق أو آية وهذا كثير في القرآن . ومن الأمثلة قوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِّي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) .

٢/ **الأمثال الكامنة** : وهي التي لم يصرح فيها المثل ولكنها دلت على معانٍ رائعة موجزة ، قال تعالى : (لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) .

٣/ **الأمثال المرسلة** : وهي ضرب المثل بالأيات القرآنية في بعض الأحوال . ومنه قوله تعالى : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ) .

### أشهر المؤلفات :

ـ الأمثال القرآنية : على محمد الماوردي .

ـ الأمثال في القرآن لابن القيم .

— أمثال القرآن . الجنيد القواريري .

— أمثال القرآن . محمد حسين السلمي .

— أمثال القرآن . نفطويه .

### فوائد الأمثال في القرآن :

١— إظهار المعنى المعمول المجرد في صورة حية ملموسة متحركة . كالمثل الذي يضرب الله تعالى لمن ينفق ما له رثاء الناس بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتُكُمْ بِالْمَنِ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالُهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانِ عَيْنِهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابْلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ) .

٢— قوة الإقناع والحججة ، ففي قوله تعالى : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) . فالحججة في هذا المثل تثبت أن انفراد المالك الذي تجب طاعته أفضل وأكرم للمملوك من تعدد المالكين ، فالأمراء ليسوا بمتتساوين (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) .

٣— الترغيب . (مَنَّئُ الَّذِينَ يُفْقِدُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبَعَ سَبَابِلَ فِي كُلِّ سُبُنْلَةٍ مِائَةً حَبَّةً وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ) .

٤— الترهيب . (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً يُؤْتَيْهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرُتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْحُوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

٥— المدح . (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيْبَةً كَشَجَرَةً طَيْبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \* تُؤْتَيِ الْكُلُّهَا كُلَّهَا حِينَ يُإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

٦- التنفير (وَلَا يَعْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، أَيْحُبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُتُمُوهُ)

### أقسام القرآن .

القسم في اللغة : الحلف واليمين والقسم بمعنى واحد .

اصطلاحاً : ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه أو على صحته أو بطلانه، بمعنى  
معظم عند الحال حقيقة أو اعتقاداً .

صيغته : صيغة القسم الأصلية أن يؤتى بالفعل (أقسم) أو (أحلف) متعدياً بالباء إلى المقسم  
به ثم يأتي المقسم عليه وهو جواب القسم . ومثال ذلك (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا  
يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ) .

### أشهر المؤلفات :

١/ البيان في أقسام القرآن لابن القيم .

٢/ الإمعان في أقسام القرآن . عبد الحميد الفراهي .

٣/ آيات القسم في القرآن . أحمد كمال المهدى .

### أركان القسم :

١/ فعل القسم (أقسم) أو (أحلف) .

٢/ أداة القسم ، أو حروف القسم (الباء، الواو، التاء، اللام، ومن) ، ولم يرد في القرآن إلا  
 بالأحرف الثلاثة الأولى .

٣- المقسم به، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولا يجوز القسم بغير الله ولله سبحانه أن يقسم  
 بما شاء من مخلوقاته .

٤- المقسم عليه أو جواب القسم .

**أنواع القسم في القرآن :** وهو نوعان :

النوع الأول : **قسم ظاهر** : وهو ماتوا فرت فيه أركان القسم الأربع ، أو حذف منه أولها وهو فعل القسم كقوله تعالى : (فَوَرَّتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِنَّهُ لَحَقٌ مِّثْلًا مَا أَنْكُمْ تَنْطِفُونَ) . أو حذف منه جواب القسم إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه ، وهي طريقة القرآن .

النوع الثاني : **قسم مضمر** : وهو ما حذف منه فعل القسم وأداته والمقسم به ، وتدل عليه اللام المؤكدة للقسم ، والتي تدخل على جواب القسم ، كقوله تعالى : (﴿لَتَبْلُوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾) ، أي : والله .

**فوائد القسم :**

١/ تأكيد المقسم عليه .

٢/ لفت الأنظار إلى ما يحويه الكون من أسرار عجيبة ، وآيات عظيمة ، وما فيه من نظام بديع محكم ، والدلالة على عظمت خالقها .

٣/ إقامة الحجة على المشركين وإثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤/ إظهار فضل المقسم به وعظمته .

٥/ امتناع إنكار الخصم في المقسم .

٦/ بلاغة الإيجاز في المقسم .

الدكتور نور الدين عشر

مُؤثِّسُ قِيَسٍ لِّعِلَّةِ الْقُرْآنِ وَالشَّرِفَةِ بِجَامِعَةِ دِمَشْقَةِ  
أَسْتَاذٌ فَضِيلٌ وَالْمُؤْمِنُ بِكِلَّاتِ الْأَسْرِيَّةِ وَالْأَدَابِ بِجَامِعَةِ حَسَنِ دِجلَبِ

عِلْمُ الْقُرْآنِ الْكَلِمَاتِ



علوم القرآن الكبير

حُفُظَ الْطِبْعَ مَحْفُوظَةٌ لِلْأَوْلَى  
الْطِبْعَةُ الْأُولَى  
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

مطبع الصيدلاني

دمشق - هاتف ٢٢٢١٥١٠

عدد النسخ (١٠٠٠)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وصلى الله على سيدنا محمد هادي البشرية ، ومنقذ بني الإنسان ، على مدى السنين والأزمان ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن القرآن الكريم هو هداية الله العظمى ، وبيته الخالدة ، وهو شريعة الله ودينه الذي ارتضاه لعباده ، من ابتغى الهدى في غيره فلن يقبل منه ، ومن اعتصم به فلن يصل عن صراط ربه ، وهو الروح الذي يطير به الإسلام إلى القلوب ، والمد الساري في تغذية الأرواح والنفوس ، والنظام الكامل الكافل لسعادة الإنسان ، في هذه الدنيا ، ثم في الآخرة في أعلى الجnan .

فلا عجب أن تكثُر الدراسات حوله حتى لا تحصى ، وأن تفيض القرائح والأقلام بالمؤلفات من دراسته حتى لا تستقصى ، وإن من أهم دراسة تتأكد على دارس القرآن خاصة ، والمثقف المسلم عامة هي هذه الدراسة التي نقدم فيها هذا الكتاب ، تبيان مصدر هذا القرآن الإلهي ، وننزله لهدايتنا ، وأصول تفسيره ، وما يلزم من علوم ودراسات ضرورية لحسن فهمه ، وتبرز إعجازه في فنون بيانه ، وعجائب معانيه ومضامينه ، تثلج قلب القارئ بحلاؤه اليقين

بكتاب الله ، وحقيقة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، مؤيداً بالأدلة الساطعة والحجج اليقينية القاطعة ، وضمنته إيضاحاً لما التبس على بعض الكاتبين ، وتصحيحاً لما خطط فيه بعض المعاندين ، من أجانب مستشرقين ، أو أتباع لهم من جلدتنا مقلدين .

وراعيت في ترتيبه ما يتصل بالتفسير ، ثم الإعجاز ، وفي أسلوبه وضوح العبارات ، والاقتصار على المهمات ، مما يحتاجه دارسو الشرع الحنيف ، وراغبو الثقافة في ضوء القرآن الكريم .

ونود أن ننبه أخيراً إلى أن كل مسلم يحتاج إلى هذه الدراسة ، فإن أحْسَنْتَ بشيء في صدرك فارجع إلى هذه الدراسة وتأملها ، لتتجدد راحة القلب بالإيمان ، وادع إليها من تحبه ومن تريده قربه إلى كتاب الله ، لأنها تزيد اليقين بكتاب الله تعالى ، وترسخه .

قال تعالى : «**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُوْنَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا**  
**الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُضُ عَلَيْهِمْ أَرْجُوا**» .

كتبه

نور الدين عتر

خادم القرآن وعلومه والحديث وعلومه

## الفصل الأول

# التعريف العام بعلوم القرآن

هذا التعبير «علوم القرآن» يدل لغة على أنواع العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم .

وهكذا كان يستعمل في عصور المتقدمين ، فيراد به علوم تؤخذ من القرآن من علوم الشرع ، كالعقيدة ، أو الفقه ، أو الأخلاق ، أو سن المعرف العامة حول الإنسان ، والكون ، والطبيعة ، والنبات ، والسماء والأفلاك .

كما يراد بـ «علوم القرآن» لغة علوم تخدم معاني القرآن مباشرة ، وتوصل إليها ، أو تدور حوله ، أو تُستمدُّ منه ، فيدخل تحت هذا التعبير بهذا الاستعمال اللغوي الثاني علوم كثيرة ضخمة ، مثل : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وسائل علوم الدين واللغة والبلاغة ، وغير ذلك ، من علوم ، درس العلماء في تأليفهم فيها القرآن كله في ضوء كل علم دراسة تفصيلية .

ثم جعل العلماء هذه العبارة : «علوم القرآن» اسم علم ، يراد به معنى خاص يدل على علم خاص غير ما سبق كله ، لأن هذا المعنى الجديد يختص بأنه علم واحد يجمع ضوابط تلك العلوم المتصلة بالقرآن من ناحية كلية عامة ، أما علوم القرآن بالمعنى اللغوي فإن كل علم منها يدرس القرآن كله من زاوية اختصاصه آية آية دراسة تفصيلية .

وبناء على ذلك يمكن أن نعرف «علوم القرآن» باعتباره إسماً لعلم واحد فنقول :

«علوم القرآن في الاصطلاح : هو المباحث الكلية التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه وجمعه ، وكتابته ، وتفسيره ، وإعجازه وناسخه ومنسوخه ، وغير ذلك»<sup>(١)</sup> .

### التصنيف في علوم القرآن :

وبالنظر لأهمية هذا العلم كثرت الدراسات فيه في القديم والحديث ؛ فكتب كثير من المفسرين في مقدمات تفاسيرهم بحوثاً هامة في علوم القرآن ، عنوا فيها بما يتعلق بأصول تفسيره وإعجازه ، على مثال مقدمة الطبرى ، لتفسيره «جامع البيان» ، والقرطبي لتفسيره «الجامع لأحكام القرآن» .

وصنف العلماء مؤلفات مستقلة تشمل كل علوم القرآن ، مثل هذه الكتب الهامة :

١ - «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» ، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ .

٢ - «البرهان في علوم القرآن» ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ .

٣ - «الإتقان في علوم القرآن» ، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ . وقد بناء على كتاب البرهان ، وأضاف إليه فوائد وبحوثاً .

وفي هذا العصر اقتصر الباحثون في هذا العلم على أهم ما يحتاج إليه الدارس في هذا العصر ، اعتماداً على تكميله بحوث أخرى من علوم شرعية

(١) ومن هنا ندرك الخطأ الواضح الذي وقع فيه من عرف علوم القرآن فقال : «هي جميع المعلومات والبحوث التي تتعلق بالقرآن . . . . .» .

فقد خلط بين المعنى اللغوي وهو يدل على علوم كثيرة ، والمعنى الاصطلاحي وهو علم واحد ، ألا ترى إلى قوله «هي» . وهكذا استمر الخطأ . . . .

ولغوية أو اعتقادية مقررة في مناهج معاهد العلوم والدراسات الإسلامية .

ومن أهم المؤلفات المعاصرة ما يلي :

١ - «مناهل العرفان في علوم القرآن» ، للعلامة الكبير محمد عبد العظيم الزرقاني . وهو كتاب حافل واسع المحتوى ، عذب الأسلوب يقع في مجلدين .

٢ - «المدخل إلى دراسة القرآن الكريم» ، لفضيلة أستاذنا الدكتور العلامة الشيخ محمد محمد أبو شهبة .

٣ - «البيان في علوم القرآن» ، لفضيلة أستاذنا الدكتور العلامة الشيخ عبد الوهاب غزلان .

٤ - «مباحث في علوم القرآن» ، للأستاذ الدكتور صبحي الصالح .

٥ - «من روائع القرآن» ، للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

وقد قسم بعضهم كتابه أبواباً . منها : «باب تاريخ علوم القرآن» و «باب علوم القرآن» .

ونرى في هذا التقسيم خللاً وضعفاً ، لأن العنوان الثاني : «علوم القرآن» يوهم أن الأبحاث الأخرى ليست من علوم القرآن ، وهي قطعاً من علوم القرآن ، فكيف تستبعد عن هذا العنوان ولا تدرج تحته .

ونود التنبيه إلى أن التصنيف في علوم القرآن بالمعنى الأول مستمر أيضاً لم ينقطع ، وذلك تلبية لحاجة العصر من كشف دسائس وفضح أباطيل ، أو تفصيل مسائل واستيفائها بالبحث ، أو لإظهار مزيد من أوجه الإعجاز الذي أفاده تقدم العلوم ، الأمر الذي يزيد اليقين بأن هذا القرآن كاتب الله المعجز على الدوام .

﴿تذكرةً لمن يخشى . تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلي﴾ .

\* \* \*

## الفصل الثاني القرآن والوحى وتنزلاه

### القرآن

هذا الإسم «قرآن» في اللغة : على أصح الآراء مصدر على وزن غُفران ، بمعنى القراءة ، ومنه قوله تعالى : «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ». .

وأما تعريف القرآن اصطلاحاً : فقد تعددت تعاريف العلماء للقرآن ، بسبب تعدد الزوايا التي ينظر العلماء منها إلى القرآن - وإن كان التعبير بأنه الكلام المعجز كافياً - ونحن نختار هنا التعريف المناسب لغرض دراستنا ، أعني التمهيد بمعارف عامة وهامة موجزة عن القرآن الكريم فنقول :

«القرآن هو كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتبعد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه». .

وقد اشتمل هذا التعريف على الصفات التالية للقرآن ، وتعتبر في اصطلاح أهل التعريف قيوداً تشمل المعرف وتميزه عما عداه وهي :

آ) كلام الله المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم :  
وتتضمن هذه الجملة أموراً ذكر منها :

١ - إبعاد كل كلام لغير الله تعالى - مهما كان عظيماً - عن أن يسمى  
قرآنًا ، وسواء في ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الإنس  
والجن والملائكة ، فكل ذلك لا يسمى قرآنًا .

٢ - قوله : «على محمد» : احتراز عما أنزل على الأنبياء السابقين ، كالتوراة والإنجيل ، والزبور وغيرها ، فلا يسمى شيء منها قرآنًا .

### ب) المكتوب في المصاحف :

وهذه مزية للقرآن أنه دُون وحُفظ بالكتابة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبإشرافه واعتنائه الزائد .

ثم لما قام الصحابة بجمع القرآن في المصحف وكتبوا المصاحف في عهد عثمان ، أجمع الصحابة على تجريد المصحف من كل ما ليس قرآنًا ، وقالوا : جرّدوا المصاحف ، فمن أدعى قرآنية شيء ليس في المصاحف فدعوه باطلة كاذبة ، وهو من المفترين على الله وعلى رسوله .

### ج) المنقول بالتواتر :

أي أن القرآن قد نقله جمّع عظيم غير لا يمكن تواطؤهم على الكذب ولا وقوع الخطأ منهم صدفة ، هذا الجمع الضخم ينقل القرآن عن جمّع مثله وهكذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك يفيد العلم اليقيني القاطع بأن هذا القرآن هو كلام الله تعالى المتزل على نبيه صلى الله عليه وسلم . وهذه خصوصية ليست لغير القرآن من كتب السماء . فإن الكتب السابقة لم يُتّح لها الحفظ في السطور ولا في الصدور ، فضلاً عن أن تنقل بالحفظ نقلًا متواترًا جيلاً عن جيل .

أما القرآن فقد جعل الله فيه قابلية عجيبة للحفظ ، كما قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ يَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهُلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾** .

بل إن هذه الخصوصية ، خصوصية حفظ القرآن في الصدور بلغت مبلغًا عجيباً ، فهذه أمم العجم ، تحفظ القرآن عن ظهر قلب حفظاً متيناً لا يتطرق إليه خلل ولا بكلمة واحدة ، ولا تفريط في حكم تجويد ، وتتجدد أحدهم مع حفظه هذا لا يدرى من العربية شيئاً .

### د) المتبعد بتلاوته :

أي أن مجرد تلاوة القرآن عبادة يثاب عليها المؤمن ، ولو لم يكن

استحضر نية تحصيل الثواب بالتلاوة ، كما أن الصلاة لا تصح إلا بتلاوة شيء منه ، وقد وردت نصوص كثيرة غزيرة في الحض على تلاوة القرآن وبيان فضلها وعظمة ثوابها ، وألف العلماء في ذلك كتاباً كثيرة نافعة<sup>(١)</sup> . وهذا القيد يخرج من اعتبار القرآن القراءات الشاذة ، لأننا غير متعبدين بها ، وكذا الأحاديث القدسية .

### هـ) المعجز ولو بسورة منه :

الإعجاز أعظم خصائص القرآن ، حتى لو عُرِّفَ القرآن بهذه الصفة : «الكلام المعجز» لكتابه تمييزه والتعريف به .

والقرآن معجز بجملته ، كما أنه معجز بأي سورة منه ، ولو كانت هي أقصر سورة من سورة .

قال تعالى : «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُلُ ظَهِيرَاً»<sup>(٢)</sup> .

وقال تبارك أسماؤه : «وَإِنْ كُتُّمْ فِي رَبِّبِ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُتُّمْ صَادِقِينَ . إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»<sup>(٣)</sup> .

وهذا الإعجاز برهان قاطع على أن القرآن كلام الله تعالى ، وأنه الحق الذي يجب الإيمان به واتباعه ، والحذر من مخالفته وعصيائه .

### أسماء القرآن :

عرفنا أن لفظة القرآن هي أشهر أسماء القرآن الكريم ، بل هي الاسم العلم الدال على هذا الكتاب العزيز ، وللقرآن الكريم أسماء أخرى كثيرة يشير كل منها إلى جانب من خصائص القرآن أو فضائله ، أو أهدافه ، وقد عني العلماء بإحصائه واستقصائه وشرحها .

(١) نذكر للقارئ منها كتاب «تلاوة القرآن المجيد» لفضيلة أستاذنا العلامة الشيخ عبد الله سراج الدين . (٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٨ . [ظهيراً : ناصراً ومؤيداً] .

(٣) سورة البقرة ، الآيات ٢٣ - ٢٤ .

ومن أشهر أسماء القرآن الكريم :

«الكتاب» : وهذه المادة مأخوذة في أصلها من الكتب ، أي الجمع ، ومنه الكتبية للجيش لاجتماعها ، ثم أُطلقت على الكتابة ، لجمعها الحروف<sup>(١)</sup> ، وسمى القرآن بذلك لأنّه يجمع أنواعاً من القصص والأيات والآحكام والأخبار على أوجه مخصوصة ، كما ذكروا .

إلا أنا نرى حقاً ما قرره المحقق الدكتور محمد عبد الله دراز<sup>(٢)</sup> أن في تسمية القرآن بهذين الاسمين : القرآن والكتاب : «إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضوع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل ، على هيئة التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظاً في حِرْزٍ حَرِيزٍ ، إنجازاً لوعده الذي تكفل بحفظه حيث يقول : «إِنَّا نَحْنُ نَرْتَلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»<sup>(٣)</sup> ، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبدل وانقطاع السند ، فإن الله لم يتکفل بحفظها ، بل وَكَلَّها إلى حفظ الناس فقال تعالى : «وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ»<sup>(٤)</sup> ، أي بما طُلب إليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأيد وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها ، فكان جاماً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان

(١) كما اتفقت عليه المعاجم ، فلا معنى للالتفات لما كتبه بعض المستشرقين من إرجاع هذه الكلمة أو غيرها إلى أصل غير عربي من الآرامية أو غيرها ، فذلك زعم لا أرومته له .

(٢) في النَّبَأِ الْعَظِيمِ ص ٧ - ٩ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٩ .

ساداً مَسْدَهَا ولم يكن شيء منها ليسد مَسْدَهَا ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه ، «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» .

ومن أسماء القرآن :

«النور» : قال تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا»<sup>(١)</sup> .

ومناسبة هذه التسمية أن القرآن يكشف الحقائق ويجلوها بيانه الناصع ، وبرهانه الساطع ، و يجعلنا ندرك غوامض الحلال والحرام ، وما لا يستقل العقل بالتوصل إليه من علوم العقيدة والشريعة وغيرها .

«الفرقان» : قال تعالى : «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»<sup>(٢)</sup> .

ووجه هذه التسمية : أنه فرق بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، وذلك لغاية كماله في الهدایة والبيان .

## الوحى

معنى الـوحى لغة :

قال الإمام ابن فارس<sup>(٣)</sup> : «الواو والباء والحرف المعتل : أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك ، فالـوحى الإشارة ، والـوحى : الكتاب والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان» .

ويختص معنى الـوحى لغة إضافة إلى ما قاله ابن فارس بتضمنه معنى السرعة ، فالإشارة السريعة هي التي يقال لها : وحي .

وورد الـوحى في القرآن بمعنى الإلهام ، كما في قوله تعالى : «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمَّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ»<sup>(٤)</sup> .

(٣) معجم مقاييس اللغة .

(١) سورة النساء ، الآية ١٧٤ .

(٤) سورة القصص ، الآية ٧ .

(٢) أول سورة الفرقان .

كما ورد بمعنى الوسوسة : «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوْحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ»<sup>(١)</sup>.

أما في الاصطلاح الشرعي : فالوحي هو إعلام الله تعالى لمن اصطفاه من عباده بطريق خفية سريعة .

مراتب الوحي :

وإذا ابتعينا التفصيل لهذا الإجمال عن الوحي ، وتساءلنا عن كيفياته وأحواله وأثاره فإن خير مرجع يتحقق لنا تلك الأمانة هو صاحب الوحي نفسه ، في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة .

كما جاء في الحديث الصحيح : «أولُ ما بُدِئَءَ به رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رَؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حَرَاءَ ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعْبُدُ - الْلَّيَالِي ذَوَاتُ الْعَدْدِ ، قَبْلَ أَنْ يَنْزَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِمَثْلِهَا» .

«حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : أقرأ ، قال : ما أنا بقاريء ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : أقرأ ، قلت ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : أقرأ ، قلت : ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطني الثالثة فقال : أقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . أقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم». فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الرُّوع . فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - : لقد خشيت على نفسي . فقالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لنصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نواب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرئاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب في

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢١ .

الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقلت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال لها ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى .

قال لها ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جَدْعُ ، ليتنى أكون حياً إذ يُخْرِجُكَ قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أوَ مُخْرِجٍ هُمْ !؟» قال : نعم ، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يُدْرِكْني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحي» .

قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : وهو يحدث عن فترة الوحي : فقال في حدبه : «بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاء في حراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض ، فرّعَتْ منه فرجعت ، فقلت : زَمْلُونِي زَمْلُونِي ، فأنزل الله عز وجل : «يا أيها المدثر . قم فأنذر» إلى قوله : «والرُّجْزَ فاهْجُر» . فَحَمِيَ الوحيُ وتواتر»<sup>(١)</sup> .

كيفيات الوحي :

وليست مراتب الوحي مقتصرة على هذين الحالين اللذين عرفناهما من الحديث ، : الرؤيا والأخذ من الملك ، بل إن له مراتب وكيفيات عدة ذكر القرآن الكريم أصولها في قوله تعالى : «وما كان ليشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إله على حكيم»<sup>(٢)</sup> . وقد دلت هذه الآية الجامعة على كيفية الوحي وأنها ثلاثة لا رابع لها ، وسماتها العلماء مراتب الوحي ، وهي :

(١) أخرجه البخاري في أول صحيحه وغيره . غطني : ضمني وعصرني بقوة . زملوني : لفظوني بالثياب . الرُّوع : الفرع . الناموس : صاحب السر . جَدْعُ : شاب . لم ينشب : لم يلبث .

(٢) سورة الشورى : الآية ٥١ .

١ - أن يلقى الله ما يريد إلقاءه إلى النبي مباشرة بطريق خفي سريع دون واسطة .

٢ - أن يكلم الله النبي ، من وراء حجاب تكليماً .

٣ - أن يُرسِّل الله المَلَك إلى النبي فيلقي إليه ما أمره الله تعالى به .

وقد بحث العلماء في هذه المراتب - ومرادهم كيفيات الوحي - واستقصوا أحوالها فيما ورد من وصف الوحي من الكتاب والسنّة ، وأوصلوها إلى سبع مراتب ينقسم إليها الوحي ويقع بها ، ومنهم من جعلها ثمانية مراتب<sup>(١)</sup> ، وترجع كلها إلى المراتب الأساسية التي ذكرتها الآية ، وتدرج في ضمنها ولا تتجاوز حدتها ، كما يتضح من هذا البيان الذي يشرحها :

**المرتبة الأولى :** الرؤيا الصادقة ، وذلك كما ورد في حديث عائشة : «أول ما بُدئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم» ، والوحي في هذه المرتبة إما أن يكون بإلقاء الله أو بواسطة المَلَك فهو داخل في الآية لا يخرج عنها.

**المرتبة الثانية :** أن يأتيه المَلَك فيلقي في رُوعه وقلبه من غير أن يراه ، كما أخرج الشهاب والحاكم عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : «إن رُوح القدس نَقَث في رُوعي : أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ...»<sup>(٢)</sup>.

**المرتبة الثالثة :** أن يَتَمَثَّل له المَلَك رجلاً فيخاطبه فيعي عنه ما يقول : كما في الحديث المشهور من سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن

(١) انظر في ذلك الروض الأنف للسهيلي ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٤ ، وزاد المعاد لابن القيم ج ١ ص ٧٧ - ٨٠ (ط. الرسالة) ، والإتقان للسيوطى ج ١ ص ٤٤ ، والمواهب اللدنية للقسطلاني ، وشرحه للزرقاوى ج ١ ص ٥٥ ، وغيرها .

(٢) مسند الشهاب بلفظه ج ٢ ص ١٨٥ والمستدرك بنحوه ج ٢ ص ٤ وله شواهد كثيرة تقويه .

الإسلام والإيمان والإحسان وال الساعة . وهو متفق عليه .

المرتبة الرابعة : أن يأته الملك على حاله الملوكية ويوحى إليه ، وفي هذه المرتبة يأته الوحي مثل صلصلة الجرس ، وكان ذلك أشد الوحي عليه صلى الله عليه وسلم .

المرتبة الخامسة : أن يأته الملك جبريل ويظهر له في صورته الملوكية العظيمة التي خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه . وهذا وقع له صلى الله عليه وسلم مرتين : إحداهما في الأرض ، والثانية : في السماء ليلة المراج عن سدرة المنتهى ، كما قال تعالى في سورة النجم<sup>(١)</sup> : ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَّهِي . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ .

وهذه المراتب الأربع التي بعد الأولى كلها صور لمرتبة واحدة لا تخرج عنها ، ذكرها القرآن في قوله تعالى : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء﴾ .

المرتبة السادسة : كلام الله تعالى للنبي من وراء حجاب ، كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة المراج بعد أن استقرت فريضة الصلوات على الخمس فنودي : ﴿أَحْكَمْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَقْتُ عَلَى عِبَادِي﴾ ، وكما وقع لموسى عليه السلام : ﴿وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ .

المرتبة السابعة : كلام الله تعالى للنبي وحياً بلا واسطة ملك ولا حجاب : كما أوحاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المراج وهو فوق السموات من فرض الصلوات ومضاعفة الحسنات بعشر أمثالها ، وغير ذلك ، وهي مرتبة داخلة في قوله : ﴿أَنْ يُكَلِّمُهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي إعلاماً خفياً .

لكن بعضهم استشكل ما وردت به الأحاديث في هذه المرتبة وقال به أكثر

(١) الآيات : ١٣ - ١٨ .

العلماء أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه عزّ وجلّ ليلة المراجـج كـيف يـتفق مع قوله : «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» وليس هنا حـجاب ؟

إـلا أنـ هذا الإشكـال في الحـقيقة غـير واردـ هنا إـذا ما عـلمـنا أنـ الـوحـي الإـلهـي في هـذـه المرـتبـة لا يـشـبه خـطـابـ الـخـلقـ ، بل هو دـاخـلـ في قـولـه إـلا وـحـيـاـ ، لأنـ الـوحـي إـعلاـمـ في خـفـاءـ ، وقد أـبـانـ الإـمامـ الـمـفسـرـ الـبيـضاـويـ عنـ ذـلـكـ في تـفسـيرـهـ لـهـذـهـ الآـيـةـ وـهـوـ يـفـسـرـ «إـلاـ وـحـيـاـ» : «كـلامـاـ خـفـيـاـ يـدـركـ بـسرـعـةـ ، لأنـهـ تـمـثـيلـ ، ليسـ فـيـ ذاتـهـ مـرـكـباـ مـنـ حـرـوفـ مـقـطـعـةـ يـتـوقـعـ عـلـىـ تـمـوجـاتـ مـتـعـاقـبـةـ» ، فـأـزـاحـ بـذـلـكـ شـبـهـةـ خـرـوجـ هـذـهـ المرـتبـةـ عـنـ حدـ الآـيـةـ الـكـرـيمـةـ .

#### مـظـاهـرـ الـوحـيـ :

والـوحـيـ فـيـ أيـ مـرـتبـةـ منـ مـرـاتـبـهـ أـمـرـ عـظـيمـ يـقتـضـيـ منـ إـلـهـانـ أنـ يـتـجاـوزـ حدـودـ الـمـادـةـ وـعـالـمـ الشـهـادـةـ لـيـتـصـلـ بـالـمـلـائـكـةـ وـعـالـمـ الغـيـبـ ، وـذـلـكـ يـقتـضـيـ منـ صـاحـبـهـ اـسـتـعـداـداـ يـهـيـئـهـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ أـوـلـئـكـ الـأـخـيـارـ الـذـينـ اـصـطـفـاهـمـ مـنـ خـلـقـهـ لـهـذـهـ الـمـنـزـلـةـ ، وـكـثـيرـاـ مـاـ كـانـ يـحـدـثـ لـلـنـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ مـشـقـةـ شـدـيـدةـ فـيـ التـلـقـيـ مـنـ الـمـلـكـ . قـالـتـ عـائـشـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ : إنـ الـحـارـثـ بـنـ هـشـامـ سـأـلـ رـسـولـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـقـالـ : ياـ رـسـولـ اللـهـ كـيفـ يـأـتـيـكـ الـوحـيـ ؟ فـقـالـ رـسـولـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : «أـحـيـانـاـ يـأـتـيـنـيـ مـثـلـ صـلـصلـةـ الـجـرسـ وـهـوـ أـشـدـهـ عـلـيـيـ ، فـيـفـصـمـ عـنـيـ وـقـدـ وـعـيـتـ عـنـهـ مـاـ قـالـ ، وـأـحـيـانـاـ يـتـمـثـلـ لـيـ الـمـلـكـ رـجـلـاـ فـيـكـلـمـنـيـ فـأـعـيـ مـاـ يـقـولـ» . قـالـتـ عـائـشـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ : «وـلـقـدـ رـأـيـتـهـ يـنـزـلـ عـلـيـهـ الـوحـيـ فـيـ الـيـوـمـ الشـدـيدـ الـبـرـدـ فـيـفـصـمـ عـنـهـ وـإـنـ جـبـيـنـهـ لـيـفـصـدـ عـرـقاـ»<sup>(1)</sup> .

وـمـنـ آـثـارـ الـوحـيـ وـمـظـاهـرـهـ عـلـىـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ مـاـ وـرـدـتـ بـهـ هـذـهـ الأـحـادـيـثـ :

1 - ما ذـكرـ فـيـ حـدـيـثـ السـيـدـةـ عـائـشـةـ الـذـيـ روـيـنـاهـ سـابـقـاـ .

(1) مـتـفـقـ عـلـيـهـ : الـبـخـارـيـ فـيـ مـطـلـعـ صـحـيـحـهـ صـ ٣ - ٢ وـمـسـلـمـ فـيـ الـفـضـائلـ (بـابـ عـرـقـ الـنـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ . . . . ) جـ ٧ صـ ٨٢ .

وأخرج البخاري أول صحيحه وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : «**لَا تُحَرِّكْ بَه لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**» ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس فأنا أحركمها لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، وقال سعيد أنا أحركمها كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل : «**لَا تَحْرُكْ بَه لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقُرْآنَهُ**» ، قال جمِيعه لك صدرك وتقرأه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، قال فاستمع له وأنصت ثم إن علينا بيانه ، ثم إن علينا أن تقرأه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأ النبي صلى الله عليه وسلم كما كان قرأ .

٢ - أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي سمع عند وجهه دوي كدوبي النحل : عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوبي النحل ، فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال : «اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وأثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عننا وأرضنا ، ثم قال : لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ، ثم قرأ علينا : «قد أفلح المؤمنون... حتى ختم العشر»<sup>(١)</sup> ، أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

٣ - أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي ثقل جسمه حتى يكاد يرضُّ فخذُه فخذَ الجالس إلى جنبه .

(١) وهي : «قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو مغرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروعهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتهى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راغعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» .

وانظر الحديث في المسند رقم ٢٢٣ والترمذى ج ٢ ص ٣١٦ - ٣١٧ والمستدرك

عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه :

«لا يُستوي القاعدونَ من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُملأها على قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت . - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذني ، فنفلت علي حتى خفت أن ترضي فخذني ثم سرّي عنه فأنزل الله : «غير أولي الضرر» ، أخرجه البخاري بلفظه وأحمد وأبو داود وغيرهم<sup>(١)</sup>.

٤ - أنه صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي بركت به راحلته .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : «إن كان يوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته فتضرب بجرانها» أخرجه أحمد .

وعن عروة بن الزبير : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تحرّك حتى يُسرى عنه . أخرجه ابن جرير ، وهو مرسل ، والجران باطن عنق الناقة .

وقد حضَّ النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على أن يجعل ليوم الوحي اهتماماً وتوجهاً خاصاً إلى الله ، بمجاهدة النفس والتصفية لها بصيام مستحب ، تكميلاً ومتابعة لمجاهدتها بالصيام المفروض في شهر رمضان حتى تصفو النفوس من أكدارها وتُخلصُ القلوب وجهتها نحو بارئها سبحانه ، وتُقبلَ عليه بقوة وعزم ، وعلى العالم بالمكارم والإصلاح ودعوة الخير الذي نزل به الوحي في ذلك اليوم ، أخرج مسلم<sup>(٢)</sup> عن أبي قتادة الأنباري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم الإثنين فقال : «فيه ولدت ، وفيه أنزل عليّ»<sup>(٣)</sup> .

(١) البخاري : ج ٦ : ٤٧ وأبو داود ج ٣ : ١١ والمسند ج ٥ : ١٨٤ .

(٢) في صحيحه كتاب الصيام ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣) وبهذه الدراسة يتبيّن لنا بجلاء الفرق بين الوحي والإلهام أو الكشف ، وذلك من وجوه كثيرة ذكر منها :

١ - إن الوحي أخذ وتلّق من ذات خارجية علوية آمرة قاهرة ، تلتقاء شخصية النبي مذعنة ضعيفة مأمورة . أما الإلهام والكشف فيدخل فيما عنصر الحدس =

## الرد على منكري الوحي

وقد أثار أعداء الأنبياء والكافرون ببعثة الرسل الشبهات حول ثبوت الوحي من الله تعالى لهؤلاء الخيرة المصطفين من عباده ، وتعللوا في إنكارهم بتعللات مختلفة ، بدأها أوائلهم في العصور السالفة الغابرة وجددها أواخرهم في العصور الخالفة الحاضرة .

ويتلخص أهم ما قالوه في دعوين سبق إليهما الكفرا المشركون من قبل ، حين زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم مجنون ، أو أنه مصاب بمرض عصبي ، وزعموا أنه يأتي رئي من الجن يلقي إليه هذا القرآن ، ولما كان منكروا النبوة في هذا العصر ينكرون الجن فقد صاغوا شبّهتهم باسم «الوحي النفسي» .

ولا شك أن دعوى المرض العصبي كذب واضح يدل على الجهل الفاضح بشخص محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم ، بل يدين قائله بأنه بلغ به العناد والتتجني على الحقيقة مبلغاً فقد به توازنه العقلي ، فال تاريخ يشهد بأدله القاطعة للنبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أعظم الناس خلقاً ، وأوسعهم أفقاً ، وأشجعهم قلباً ، وأسخاهم يداً ، لا تصمد أمامه معضلة ، ولا يتعدّد أمامه موقف إلا واجهه بأحسن الحلول وأعلاها وأفضلها ، وأنه كان أفصح الناس لساناً وأعذبهم بياناً ، مما يشهد بأنه صلى الله عليه وسلم أكمل العالم عقلاً وتفكيراً وأنه أمة وحده في علو أخلاقه وثباته وحلمه ، وكمال عقله ورباطة

---

= والتخمين وعمل الذهن غير الشعوري .

٢ - إن الوحي يقع في القلب علمًا يقينياً اضطرارياً لا يقبل التغيير ولا التبدل ، أما الكشف أو الإلهايم فهو أمر يقع في النفس فتعرفه معرفة دون اليقين ، وقد تتحمس له كاليلقين ، لكن كثيراً ما يظهر الخطأ فيه .

٣ - إنه يجب الأخذ بالوحي قطعاً ، لكن لا يجوز الأخذ بالإلهايم أو الكشف وإن تكرر صدقه إلا بعد عرضه على دلائل الشرع ، لأن الوحي معصوم ، أما الإلهايم وكذا الكشف ونحو ذلك فليس شيء منها معصوم ، فلا بد من مراجعة ذلك .

جأشه ، ولهذا رد القرآن على هؤلاء بأنهم هم الذين فقدوا رشدهم : ﴿فَسَبَّصُرُوا وَيَصِرُونَ بِأَيْكُمُ الْمَفْتُون﴾ .

وأما دعوى (الوحى النفسي) فقد وجدت لدى المنكرين ومثيري الشبهات مرتعاً خصياً ولا سيما اليهود من المستشرقين<sup>(1)</sup> لما فيها من التلبيس الخبيث والمكر في الدس والافتراء الذي يضفي على هذه الفرية مسحة كاذبة من دعوى البحث العلمي العصري .

ولأن الثابت المقرر من مظاهر الوحى وأثاره ليثبت بطلان هذه الدعوى وكذبها ، من وجوه كثيرة جداً ، نذكر منها :

١ - إعجاز القرآن ، فإن نفس محمد صلى الله عليه وسلم مهما صفت فإنها ستظل كسائر المتعبدين والعباقرة يأتون بالشيء العظيم لكن لا يعجز أمثالهم أن يلحقوا بهم أو يسبقوهم ويتفوقوا عليهم ، وهذا القرآن الذي أوحى به إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم معجز تحدى الجن والإنس ، والأولين والآخرين ، فأنى يمكن أن يكون هذا الكتاب إلا من عند الله .

٢ - إن حادث الوحى يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه آتٍ من ذات مستقلة خارجة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك واضح في حديث بدء الوحى في غار حراء ، حيث إن الملك جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجأة كما في الحديث الصحيح المتفق عليه : «فجاءه الملك فقال اقرأ ، قلت : ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقاريء . . . .

فهذا الحادث يوضح أن هناك ذاتاً خارجة عن ذات محمد وشخصه تملئ عليه وتأخذه وتغطّه أي تضمه وتعصره عصراً شديداً ، وتقول له : اقرأ ، فهي ذات متكلمة ، وهي ذات آمرة ومؤثرة في بدنها بالضغط الشديد عليه ، حتى يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «لقد خشيت على نفسي» . وذلك يثبت بطلان زعم الوحى النفسي ويفنّده تفنيداً .

(1) مثل جولد زيهير .

٣ - إن الوحي كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم غير مرتبط بإرادته أو رغبته ، ولا بتفكيره أو بحثه لدى وقوع المهمات ، فربما كان في بيته يأخذ شيئاً من الراحة فينهض والبشر على محياه وقد نزلت سورة ، كما ثبت الخبر في نزول سورة الكوثر كما أخرج ذلك مسلم في صحيحه ، ومن القرآن ما تنزل في هزيع أخير من الليل ، كآية التوبة على الثلاثة الذين خلُفوا ، وأية «والله يعصمك من الناس» وكان النبي صلى الله عليه وسلم في خيمته والحرس حوله ، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الخيمة فقال : «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله تعالى»<sup>(١)</sup> ولهذا كثرت أقسام القرآن بحسب أوقات نزوله ، فمنه السفرى والحضرى ، ومنه الليلي والنهارى ، ومنه ما نزل مشيئاً ، ومنه... . مما فصله علماؤنا في مصادر علوم القرآن .

٤ - «إن عقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض حيث يخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان ، ويقييد بحدودهما وآفاقهما ، بينما يتخطى القرآن دائمًا نطاق هذه الحدود ، ليدلّ من خلال رحابة موضوعاته إلى أن دور محمد - صلى الله عليه وسلم - فيه إنما هو الحفظ والوعي ، أو الأخذ والتلقى ، ثم الإبلاغ للعالم .

بل إن جميع معارف الإنسان في عصر نزول القرآن - لا معارف النبي ومعارف بيته - و المعارف عصور لاحقة لا تمثل شيئاً من شمول المعارف القرآنية وتنوعها وعمقها ، فضلاً عما في معارف القرآن من تصحيح تلك المعارف وتقويم عوجها من جذورها ، حتى ما كان منها متعلقاً بما هو سابق لعصر نزول القرآن ، فليت شعرى إن لم يكن هذا وحياً من يعلم السر في السموات والأرض فأي شيء يكون»<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

(١) البرهان ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) باختصار وتصرف عن كتاب «الظاهرة القرآنية» تأليف مالك بن نبي رحمه الله ، وليرجع إلى هذا الكتاب ففيه فوائد هامة . وانظر ما يأتي في الإعجاز العلمي وفي بحث «الكون في القرآن» .

## الفصل الثالث نَزُولُ الْقُرْآنِ مَنْجَمًا وَأَسْرَارُه

لقد حدثنا القرآن عن نزوله في مناسبات كثيرة يدور قطب بحثنا هنا على هذه الجمل منها :

«شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان» .

«إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا مُنذرين» .

«إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدرك ما ليلة القدر . ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر» .

«بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ» .

وظاهر الآية الأولى يستدعي البحث ، لما هو معلوم عند الجميع أن القرآن لم ينزل جملة واحدة ، إنما نزل مفرقاً ، وقد تسأله عن ذلك الدارسون منذ العصر الأول ، كما روي :

عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال : وقع في قلبي الشك من قوله تعالى : «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» قوله : «إنا أنزلناه في ليلة القدر» ، وقد أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وشهر ربيع ، فقال ابن عباس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر ، وفي ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على موقع النجوم ترتيلًا في الشهور والأيام» ،

رواه ابن أبي حاتم وابن مردوه<sup>(١)</sup> .

وقد تضافرت الأسانيد الصحيحة إلى ابن عباس تثبت قوله بنزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر في رمضان ، وبهذا قال أكثر العلماء ، وبذلك يكون للقرآن ثلاث تنزّلات :

١ - التنزّل الأول : نزوله إلى اللوح المحفوظ ، كما نصّت الآية : «بِلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» . ولللوح المحفوظ عالم علوى عظيم جعله الله تعالى من أعظم المظاهر الدالة على عظمة علمه تعالى وحكمته وقدرته النافذة في الأكونان ، ويختص اللوح المحفوظ بكونه مشتملاً على تسجيل ما قضى الله تعالى وقدر ما كان وما سيكون<sup>(٢)</sup> .

قال الإمام أبو حيان في تفسير الآية : «واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء» اهـ .

وهو من أسرار الغيب التي لم يطلعنا الله تعالى على حقيقتها وستظل كذلك في أستار الغيب .

٢ - التنزيل الثاني : النزول إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة ، كما سبق عن ابن عباس .

٣ - التنزيل الثالث : النزول على قلب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم منجماً في ثلث وعشرين سنة .

ويرى كثير من العلماء تفسير آيات نزول القرآن في ليلة القدر وشهر رمضان على غير ما ذكرناه ، وأن المراد ابتدأنا إنزاله في شهر رمضان ، وفي ليلة القدر ، كما هو مستعمل كثيراً في اللغة إطلاق « فعل » على ابتداء الفعل ،

(١) وهذا لفظ ابن مردوه ، أنظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٠ والإتقان ج ١ ص ٤٠ وفيه تصحيف .

(٢) قارن بـ «مباحث في علوم القرآن» ص ٥١ حيث جعل هذا النزول ثابتاً بالأسانيد الصحيحة ، وإنما هو ثابت بالقرآن .

وكان هذا الفريق يرى حديث ابن عباس تفسيراً من اجتهاده ورأيه ، لأنه لم يأتِ مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم في شيء من طرقه ، ولا ورد عن أحد من الصحابة غير ابن عباس ، وإن كان هذا التأويل غير ظاهر .

وقد يتساءل القارئ عن الحكمة من إزالة القرآن جملة واحدة ثم إنزاله منجماً بعد ذلك .

والحق أنه لم يرد لنا نص صريح يجعلنا سر ذلك . لكن الباحث يتلمس باجتهاده حكمة لذلك وسراً ، ومن ذلك ما يلي :

١ - تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم<sup>(١)</sup> .

٢ - سُرُّ يرجع لإعجاز القرآن ، في ترتيب القرآن في النزول ، ثم ترتيبه في المصحف ، حيث ينظره جبريل في سماء الدنيا وهو على ترتيب المصحف ، ثم يتنزل بآياته تباعاً على حسب الحوادث فتوضع كل آية في مكانها في المصحف وفق الترتيب في اللوح المحفوظ<sup>(٢)</sup> .

## نَزَولُ الْقُرْآنِ مَنْجِماً عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ

لقد صرّحت الآيات القاطعة بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل من عند الله تعالى بلغظه ومعناه على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تصرف لأحد في شيء منه ولا في حرف من حروفه .

قال تعالى : «إِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ» .

وقال : «كَتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» .

فالقرآن تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى كما تشير كلمة

(١) البرهان ج ١ ص ٢٣٠ والإتقان : ١ : ٤٠ - ٤١ وصرح بعزو هذا إلى المرشد الوجيز لأبي شامة . وانظر المرشد الوجيز ص ٢٤ .

(٢) باختصار وتصرف عن كتاب الوحدة الموضوعية : ٧٤ .

«لَدُنْ» ، وهو كلام الله كما صرحت الآية : «وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ إِسْتَجَارَكَ فَأَجْرِهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغُهُ مَا مَأْمَنَهُ» .

لكن تنزيل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن دفعة واحدة ، كما نزلت الكتب السابقة على الأنبياء دفعة واحدة ، بل اختص الله تعالى هذا القرآن بأن أنزله منجماً أي مفرقاً ، بحسب المناسبات ، واقتضاء الحال ، فكثيراً ما كانت تنزل خمس آيات ، أو تنزل عشر آيات ، أو أقل أو أكثر ، وقد صح نزول عشر آيات قصار في أول سورة المؤمنون ، ونزلت عشر آيات طوال في قصة الإفك في سورة النور ، وقد ينزل بعض آية كقوله تعالى : «وَإِنْ خَفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يَغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» إلى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية وهي قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجْسٌ فَلَا يَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» .

وقد استمر نزول القرآن ثلاثة وعشرين سنة ، منذ بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سن الأربعين ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى في الثالثة والستين من عمره الشريف صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة .

### الحِكْمُ فِي نَزْوَلِ الْقُرْآنِ مِنْجَمًا :

هكذا اختص القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بأنه نزل مفرقاً على نجوم كثيرة كما ذكرنا ، وقد أثار ذلك أعداء القرآن من المشركين واليهود وغيرهم ، فتساءلوا لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، كما نزلت الكتب التي قبله ؟ .

وهذا سؤال تولى الله تعالى الإجابة عنه في موضعين من قرائه :

قال تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِتُثْبِتَ بِهِ فَوَادِكَ وَرَتَّلَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثْلِ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»<sup>(۱)</sup> .

(۱) سورة الفرقان ، الآيات ۳۲ ، ۳۳ .

وقال أيضاً : ﴿وَقُرْآنًا فَرَفَنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾<sup>(١)</sup>.

فيَّنَ القرآن حِكْمًا وأَسْرَارًا غَفَلَ عنها المُتَطَفِّلُون بِاقْتِرَاحِهِم ، اقتضت نَزْولَ القرآن مُفْرَقاً ، وبِالنَّظَر إِلَى عبارات الآيات القرآنية نُسْتَطِيع عرضها من خَلَال أَرْبَعَة جوانب ، يُسْتَدِلُّ عَلَيْها مِنَ الْآيَاتِ السَّابِقةِ :

أولاً ؛ ثبَيْتَ فَوَادَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقوِيَّةً قَلْبَهُ :  
كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿كَذَلِكَ لَتُثَبِّتَ بِهِ فَوَادَكَ﴾ .

فَقَدْ بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْمٍ جُفَاهُ شَدِيدَةٌ عَدَاوَتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَتُنَذِّرُ بِهِ قَوْمًا لُّدَّا﴾ . وَكَانُوا لَا يَكَادُونَ يَتَهَوَّنُ مِنْ حَمْلَةٍ أَوْ مَكْيَدَةٍ حَتَّى يَشْرُعوا فِي تَدْبِيرٍ أُخْرَى مِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ أَوْ أَمْرًا ، فَكَانَتْ تَنْزَلَاتُ الْقُرْآنَ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى تَوَاصِيهِ وَتَسْلِيهِ ، وَتَشَدَّدَ أَزْرَهُ وَعَزِيمَتِهِ عَلَى تَحْمِلِ الشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ ، لَمَّا فِيهَا أَوْلًا مِنْ تَجْدِيدِ الاتِّصَالِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى كَلَمَا ادْلَهُمْ الْأَمْرُ أَوْ نَزَلَ الْخُطْبَ ، مَا يَثْلِجُ الْقَلْبَ وَيَسْرِحُ الصَّدْرَ . ثُمَّ مَا هَنَالِكَ مِنْ التَّذْكِيرِ بِالْأَسْوَةِ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ وَأَحْوَالِهِمْ مَعَ أَقْوَامِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَكَلَّا نَفْصُنْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَثَبَتَ بِهِ فَوَادَكَ . . .﴾ .

وَيُسْتَطِيعُ الْقَارِئُ تَبَيْنَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرِ لَدِيِّ مَرَاجِعِهِ قَصْصَ الْقُرْآنَ ، كَأَنْ يَقُومَ بِاستِعْرَاضٍ سَرِيعٍ لِسُورَةِ هُودَ مَثَلًا ، وَمَا فِيهَا مِنْ بَيَانِ مَوَاقِفِ الْأَمْمِ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَتَحْمِلَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعْهُمْ وَصَبَرُوهُمْ حَتَّى يَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى نَقْمَتَهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَيَكْرِمُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفُوزِ وَالنَّجَاهَةِ ، مَمَّا لَهُ أَثْرٌ الْبَالِغُ فِي تَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلَةِ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ لِتَكْرَارِ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ ، حَتَّى ضَرَبَتِ الْأُمَّةُ إِلْسَامِيَّةُ الْمُثَلُ الْبَالِغُ حَيْثُ تَعَرَّضَتْ لِهَزَاتٍ وَأَعْاصِيرٍ أَبَادَ جُزْءَهُ مِنْهَا أَمَمًا وَأَذَابَ شَعُورًا وَحَضَارَاتٍ ، فَثَبَّتَتِ الْأُمَّةُ إِلْسَامِيَّةً أَمَمًا ذَلِكَ كُلُّهُ .

بَلْ سَجَلَتْ أُمَّةُ إِلْسَامٍ فِي هَذَا الْمُضْمَارِ مَا هُوَ مَعْجَزٌ ، حَيْثُ إِنَّهَا

(١) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ ، الآيَةُ ١٠٦ .

حافظت على نفسها ودينها وحضارتها ليس هذا فحسب ، بل امتصت القوى التي جاءت لإفائها وجعلتها هي تحول لتكون من أسباب قوتها ، كما حصل من الانقلاب الكبير للصلبيين بعد احتكاكهم بال المسلمين ، والعبرة الأكبر في التمار الذين دخلوا الإسلام واعتنقوه ، مما يبرز لنا أهمية التربية الإسلامية ، وأسلوبها في غرس هذه العوامل بوسائل كثيرة منها أسلوب قصص الأمم السابقة ، ولهذا ندرك أيضاً موقع هذا الاختمام العظيم لسورة هود بهذه الآيات : ﴿وَكُلًا نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَبَّتْ بِهِ فَوَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ إِنَّا عَامَلْنَا وَانْتَظِرُوا . . .﴾ .

ثانياً : مواجهة ما يطرأ من أمور أو حوادث تمس الدعوة : كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثْلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ . وهذه حكمة جليلة لها أثرها البالغ في نجاح الدعوة ، لمواجهة الوحي نفسه للطوارئ والملمات ، ومن أهم ذلك ما يشيره المبطلون من الاعتراضات أو الشبهات ، وهو الأصل الذي صرحت به الآية الكريمة أي لا يأتونك بسؤال عجيب أو شبهة يعارضون بها القرآن بباطلهم العجيب إلا جئناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، الدامغ له ، وهو أحسن بياناً وأوضح ، وأحسن كشفاً لما بعثت له<sup>(١)</sup> ، وكأن جبريل واقف بالمرصاد يُشرِّع سهم القرآن في صدور المشركين كلما أجمعوا أمرهم وألقوا سؤالهم أو حزبوا لنصرة الباطل أمثالهم .

هذا أبي بن خلف من رؤساء الشرك جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم وهو يفتته وينذريه في الهواء وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : «نعم ، يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار» ، ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يس<sup>(٢)</sup> :

(١) تفسير ابن كثير الموضع السابق ، وأنوار التنزيل للبيضاوي مع حاشية الكازروني ج ٤ ص ٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٩ وفي رواية أن العاص بن وائل فعل ذلك وصححه الحاكم =

﴿أَوْلَمْ يَرَ إِنْسَانٌ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعَظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَقُّدُونَ . . .﴾ .

أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة - الذي خلقه من نطفة والذى خلق السموات والأرض - للأجسام والعظام الرميمة ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، وهو أعظم من الحشر الذى استبعده ولهذا قال : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ .

كذلك كانوا يلقون عليه أسئلة اختبار للثبت من نبوته ، كما روی في سبب نزول سورة الكهف أن قريشاً سألت اليهود في المدينة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت لهم أخبار اليهود : سلوه عن ثلات ، فإن أخبركم بهن فهونبي مرسل . . . فنزلت في الإجابة عن الأسئلة الثلاثة سورة الكهف بشأن الفتية أصحاب الكهف وبقصة ذي القرنين ، ونزلت آية الإسراء ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(۱)</sup> .

وقد جاء مع هذا الجواب التوجيه الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم يعتب عليه أن قال لهم : «أَخْبِرْكُمْ غَدًا» ، ولم يستشن ، أي لم يقل إن شاء الله فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً ، وشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ونزل عليه الوحي بالإجابات ، ونزل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيَّ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّيَّ لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ .

وكان المسلمون كذلك يسألون عما يهمهم من أمر دينهم ، كالأسئلة عن النفقه : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾<sup>(۲)</sup> . وعن الأهلة : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ

= كما في لباب النقول ص ٦٠٧ ولا مانع من أن تكون الواقعة تعددت .

(۱) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١١١ - ١١٢ - ١٣٢ - ١٣٣ ولباب النقول ص ٤٩١ - ٤٩٣ .

(۲) أي الفضل والزاد .

عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج . والحيض : « ويسألونك عن المَحِيْضِ قل هُوَ أَذَى فَاعْتَزِّلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيْضِ .. » .

ولا شك أن الأسئلة لم تكن في وقت واحد بل كانت في أوقات متفرقة مختلفة فكان لا بد من نزول القرآن منجماً .

ويدخل في هذا الجانب متابعة الواقع والأحداث في وقتها ينزل الوحي بشأنها بيان التوجيه الإلهي ، كما في غزوة بدر ومسألة الأنفال ، ومصيبة المسلمين يوم أحدٍ ونزول القرآن بالدروس والعبر التي نجعت فيهم مدى حياتهم مع تسلية أحزانهم ومواساتهم .

أو ينزل القرآن بيان الحكم الإلهي كما في آيات الزنا والظهار ، والعدة والأيمان . . .

وهذه غزوات الرسول الكريم وحدتها مثل غزوة بدر وأحد والخندق وتبوك وحبتين مثل ناطق بهذه الحكمة الجليلة التي تقتضي نزول القرآن منجماً في مناسبتها فكان لا بد للقرآن أن ينزل منجماً « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

ثالثاً : تعهد هذه الأمة التي أنزل عليها القرآن :  
وذلك لصياغتها على النهج الإسلامي القرآني علمًا وعملاً ، فكراً  
واعتقاداً وسلوكاً ، تخلقاً وعرفاً .

كما قال تعالى : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » .

ومن مظاهر هذا الجانب أنهم كانوا قوماً أميين لا يحسنون القراءة والكتابة وكانت الذاكرة عمدتهم الرئيسية ، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه ، فأنزل الله قرآنه مفرقاً ليقرأه الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم على تمهل فيسهل عليهم حفظه ويتيسر فهمه ودرسه كذلك .

ثم إن الأمة العربية التي خوطبت بالقرآن أولاً قبل سائر الأمم كانت لها عقائد راسخة وعادات موروثة وأخلاق متأثرة عن أسلافهم يتباينون بها ويتفاخرون ، ويتبارون في التمسك بها ويتسابقون ، على عنجهية لم تعرفها أمة

غيرهم إذ ذاك ، فكان كما قال الإمام مَكْيُّ بن أبي طالب<sup>(١)</sup> : «أدعى إلى قبوله إذا نزل على التدريج ، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة فإنه ينفر من قبوله كثير من الناس ، لكترة ما فيه من الفرائض والمناهي» .

لهذا سلك القرآن الكريم معهم مسلك التربية الحكيمية ، وهو مسلك التدرج في التشريع من حكم إلى حكم . والثاني في نقلهم من حال إلى حال ، ومن خلق إلى خلق ، وهكذا بلغ الغاية في تخليلهم عن عقائدهم الباطلة ، وعاداتهم المسترذلة ، وسما بهم إلى عقائد القرآن وأخلاقه وعباداته وأحكامه ونظامه الشامل .

ويصور لنا هذه الحكمة التربوية ما أخرجه البخاري<sup>(٢)</sup> عن عائشة رضي الله عنها قالت : «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا شربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً» .

وهكذا كانت تنزيل الفرائض : تنزل الفريضة حتى إذا تمكنت في النفوس نزلت الأخرى ، وكذلك المحرمات ، بل إن التدرج في أحياناً كثيرة كان يقع في الحكم الواحد ، مثل فرائض النفقات ، والجهاد ، وحقوق المرأة ، والميراث ، وتحريم الخمر ، حتى أثمرت تلك التربية الربانية «خير أمة أخرجت للناس» ؟ وحتى كان في وقائع امثالها ما تباهي أرقى الدول في هذا العصر في محاولتها إصلاح مجتمعها ، وما قصة تحريم الخمر المشهورة ومحاولة بعض الدول الكبرى في معالجتها بعيدة عنا ، فقد كان الفشل ذريعاً بل تسبب باستفحال المشكلة حتى انجر الكثيرون إلى الإمعان والزيادة في الشراب من الأنواع الأشد رداءة مما يعطينا العبرة في إعجاز التربية القرآنية التي كان التدرج في نزول الوحي بالاحكام من أنجع وسائلها .

(١) في كتابه الناسخ والمنسوخ ، انظر الإنقاذه .

(٢) في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٥ .

رابعاً : التنبية على وجه من إعجاز القرآن :  
وإليه الإشارة بقوله : « كذلك لثبتت به فوادك » فعبر بقوله « كذلك » أي  
مثل ذلك التنزيل العجيب الشأن البالغ الغاية في الحكمة والإحكام ، ثم تذليل  
الآية بقوله « ورثناه ترتيلًا » وأصل الترتيل : التنضيد .

وكذلك يشير إليه قوله تعالى في الآية الأخرى : « ونرثناه تنزيلاً » .

بيان ذلك أننا إذا ما لاحظنا أن القرآن نزل مفرقاً على حسب أحداث  
ووقائع لم تكن على ترتيب أو نسق معين ثم قد وضعت كل آية أو مجموعة  
آيات نزلت في مكان خاص بها من سورة يأمر الوحي بوضع الآية أو الآيات  
فيها ، ويتناول ذلك عدة سور في آن واحد ، حتى إن سورة البقرة كانت أول ما  
نزل من القرآن في المدينة واستمر نزولها يتتابع فكان فيها آخر ما تنزل من  
القرآن قاطبة ، وهي أطول سورة في القرآن .

ثم يقرأ القارئ المتذمِّر هذا القرآن بعد ذلك فيجد الترابط المحكم  
والاتساق العجيب وكأن السورة الطويلة أيًّا كانت لوحة جميلة متناسقة الألوان  
والظلال والمشاهد ، أو بناء محكم الترابط تام التكوين . قال الإمام الشاطبي :  
« إن السورة الواحدة مهما تعددت قضايها فهي تكون قضية واحدة »<sup>(١)</sup> . أي  
تدور على موضوع واحد .

مما يدل دلالة قاطعة على أن هذا القرآن تنزيل حكيم عظيم ، أحاط علمه  
بما هو كائن ، كما قال تعالى : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السَّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا » .

\* \* \*

---

(١) المواقفات ج ٣ ص ٤١٤ .

## الفصل الرابع

# أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن

### أول ما نزل من القرآن الكريم

إن أول ما نزل من القرآن الكريم هو صدر سورة العلق : «اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» .

وذلك كما ثبت في حديث السيدة عائشة الذي أخرجه البخاري ومسلم .

لكن هذا قد يشكل بما أخرجه الشیخان<sup>(۱)</sup> عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : «سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : «يا أيها المدثر» فقلت : أو «اقرأ» فقال جابر أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «جاورت بحراً شهراً فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي ، فنوديت ، فإذا هو جبريل ، فأخذتني رجفة ، فأتتني خديجة فأمرتهم فذروني ، فأنزل الله : «يا أيها المدثر قم فأنذر»» .

وقد اغتر بهذه الرواية بعض أهل العلم ، وجعل صدر سورة المدثر أول ما نزل من القرآن .

(۱) البخاري في بدء الولي ج ۱ ص ۳ - ۴ وتفسیر سورة المدثر ج ۴ ص ۱۶۱ - ۱۶۳ . وتفسیر سورة اقرأ ج ۴ ص ۱۷۴ . ومسلم ج ۱ ص ۹۸ - ۹۹ .

لكن التحقيق أن حديث جابر لا يتحدث عن ابتداء الوحي الأول إنما يتحدث عن أول ما نزل بعد فتور الوحي ، وهو هذه الآيات من سورة المدثر ، وهي أول ما نزل من القرآن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإذار .

يدل على ذلك ما ثبت في الحديث نفسه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصاري في حديثه السابق وفيه قوله : « .. فإذا الملك الذي جاءني بحراء »<sup>(١)</sup> .

وليس بخافٍ ما في هذا الافتتاح لبدء الوحي بـ « أقرأ باسم ربك .. علم الإنسان ما لم يعلم » من الحكمة الجليلة حتى أن الخطباء والكتاب والأدباء لا يملون من القول فيها ، ومن أن يرددوه في كل مناسبة تقال عن العلم وعن الحضارة ، وعن الثقافة وعن القرآن وعن الإسلام ، وعن أثر القرآن في تحويل العالم ، ولا سيما إذا قارنا ذلك بما افتح به كتاب آخر لدى الأمم الأخرى<sup>(٢)</sup> .

### آخر ما نزل من القرآن الكريم

أقوى الآراء وأرجحها في آخر ما نزل من القرآن مطلقاً أنه قوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »<sup>(٣)</sup> .

ثبت ذلك من طرق عن عبد الله بن عباس ، وروي عن أبي سعيد أيضاً .

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم مكث بعدها تسع ليال .

(١) انظر ما سبق ، ونحوه ثابت عندهما من أكثر من وجه يؤكد ما قلناه ، وأما ادعاء أن سورة المدثر نزلت بتمامها جملة واحدة فلا يتلاءم مع ما ذكرناه في سبب نزولها ، فإنها أسباب متعددة ومتباعدة في الزمن ، وقد نزل لكل سبب منها جملة من آيات من السورة ، فضلاً عن افتقار هذا القول للدليل المثبت .

(٢) نلفت النظر هنا للعبارة البليغة التي عَبَرَ بها الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله في كتابه إنتاج المستشرقين ص ٣٢ فليرجع إليه .

وهي الآية الحادية والثمانون ومائتين من سورة البقرة ، نزلت خاتماً لآيات تحريم الربا وأخرها آية الوعيد الشديد : «إِنْ لَمْ تَفْعُلُوا فَأُذْنُوا بِحُرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» .

وروى البخاري عن ابن عباس قال : «آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم آية الربا»<sup>(١)</sup> .

وهذا ليس منافياً لما ثبت عن ابن عباس في الآية السابقة ، لأن مراد ابن عباس أنها آخر ما نزل في الربا ، كما أشار لذلك الإمام البخاري رضي الله عنه .

ولا يخفى عظم موقع الآية من الآيات التي سبقتها وعظم الحكمة في اختتام وحي القرآن بها ، فإن تأثير المال على الإنسان عظيم حتى قالوا : المال شقيق الروح ، والأخرأة أعظم دواء لداء الدنيا وأموالها ، وخير مقوم لعوج النفس فيها ، فكان اختتام الوحي بهذه الآية في غاية المناسبة الجليلة لما قصده تعالى من وعظ عباده وتذكيرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من المال والمتعة وغيرهما ، وإitan الآخرة والرجوع إليه تعالى ليحاسب خلقه<sup>(٢)</sup> .

### الأوائل والأخر النسبية :

وقد عني العلماء في بحوثهم بالأولييات المقيدة أي النسبية في موضوع معين ، أو ناحية معينة ، وبالآخر المقيد النسبي كذلك ، وهو متأثر في أصله عن الصحابة والتابعين ، حتى ربما كانت الأولية أو الآخرية المقيدة ترد عن الصحابي أو التابعي فيظنها بعضهم مطلقة ، لذلك وجوب الاطلاع عليها .

ومن أمثلة أول ما نزل من القرآن مقيداً :

١ - أول سورة نزلت بتمامها سورة الفاتحة .

٢ - أول ما نزل في تشريع الجهاد : «أُذْنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمُوا

(١) البخاري آخر تفسير سورة البقرة ج ٦ ص ٣٣ .

(٢) انظر كتابنا «التفسير أحکام القرآن» ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

وإن الله على نصرهم لقدير . . . الآيات ٣٩ - ٤١ من سورة الحج نزلت في السنة الثانية للهجرة<sup>(١)</sup> .

٣ - أول ما نزل في تحريم الخمر : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ فُلْفِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . .» الآية من سورة البقرة .

ومن أمثلة آخر ما نزل من القرآن مقيداً :

٤ - آخر ما نزل يذكر النساء خاصة : «فَإِنْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَئِي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بِعَضُّكُمْ مِنْ بَعْضٍ» . الآية في أواخر سورة آل عمران .

٥ - آخر ما نزل في المواريث آية الكلالة في آخر سورة النساء : «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتَيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ . . .» .

٦ - آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن : «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . . .» .

ولهذا البحث في أول ما نزل وآخر ما نزل فوائد هامة ، يحتاج إليها دارس التفسير ، وباحث الأحكام ، ومن ذلك :

١ - تمييز الناسخ من المنسوخ إذا وردت آياتان أو آيات متعددة في موضوع واحد .

٢ - معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه ، والتوصل إلى حكمة القرآن العظيم في تربية الناس وأخذهم بالرفق ، والتحرز عن الطفرة في تنقيتهم وتخليصهم من أحوال الجاهلية ، ونقلهم إلى الفضائل الإسلامية<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

(١) الإنقان : ١ : ٢٦ ومناهل العرفان : ١ : ٩٤ - ٩٥ .

(٢) الإنقان : ١ : ٢٧ / ٢٦ ومناهل العرفان : ١ : ٩٠ - ٩٣ وقد استخلصنا الأمثلة من مناقشة الأقوال المرجوحة في آخر ما نزل .

(٣) مناهل العرفان : ١ : ٨٥ .

## الفصل الخامس ترتيب آيات القرآن وسُوره

تعريف الآية :

الآية في اللغة : أصلها بمعنى العلامة ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ آيَةً مُّلْكَهُ  
أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوت﴾<sup>(١)</sup> .

وأما في اصطلاح علم القرآن الكريم : فهي قرآن مركب من جمل ولو  
تقديراً ، ذو مبدأ ومقطع مندرج في ضمن سورة .  
سميت آية لمناسبات عده ، أولاهَا في اختيارنا : أنها علامة على صدق  
من أتى بها ، وعلى عجز المُتَحَدِّى بها<sup>(٢)</sup> .

تعريف السورة :

للسورة في اللغة إطلاقات متعددة ، لعل أقربها هنا أنها مأخوذة من سور  
المدينة ، أو من السورة بمعنى المرتبة والمنزلة الرفيعة ، على حد قول النابغة :  
ألم تر أن الله أعطاك سُورَةً ترى كل مَلِكٍ دونها يتذبذب  
أي أعطاك منزلة عالية على غيرك من الملوك .

أما في الاصطلاح فالسورة : قرآن يشتمل على أي ذوات فاتحة  
 وخاتمة ، وأقلها ثلاثة آيات .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٨ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٦٦ و ٢٦٧ .

ومناسبة التسمية واضحة ، لأنها كالسور تحيط بآياتها وتجمعها كاجتماع البيوت بالسور ، أو لعل قدرها وشرفها<sup>(١)</sup> .

وفي تقسيم القرآن إلى سور وأيات فوائد كثيرة ، وحكم جليلة تعرض العلماء لها ، نذكر إجمالات من كلامهم عنها فيما يلي :

قال الزمخشري :

«الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سورةً كثيرةً . . .

منها : أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفحى من أن يكون باباً واحداً .

ومنها : أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له ، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا اقطع ميلاً أو فرسخاً وانتهى إلى رأس بريه نفس ذلك منه ونشطه للمسير ، ومن ثمة جزء القرآن أجزاء وأخماساً .

ومنها : أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفه مستقلة فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس : «كان الرجل إذا قرأ البقرة وأل عمران جل فينا» ، ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل .

ومنها : أن التفصيل يسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها البعض ، وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم ، إلى غير ذلك من الفوائد .

مصدر ترتيب القرآن الكريم :

أجمع العلماء سلفاً فخلفاً على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي ، أي اتبع فيه الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلقاه النبي الكريم عن جبريل عليه السلام ، ولا يشتبه في ذلك أحد<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا يقول أبو جعفر بن الزبير : «ترتيب الآيات في سورها واقع

(١) البرهان ج ١ ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٥٦ والإتقان ج ١ ص ٦٠ .

بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره ، من غير خلاف في هذا بين المسلمين»  
انتهى<sup>(١)</sup>.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني في الانتصار : «ترتيب الآيات أمر واجب  
وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا»<sup>(٢)</sup>.

والآحاديث في إثبات التوقيف في ترتيب الآيات في السور كثيرة جداً كثرة  
تفوق حد التواتر ، وتجعل من العسير استيعابها وحصرها لكننا نذكر هنا أمثلة  
منها تلقي الضوء على صنيع النبي صلى الله عليه وسلم :

أخرج البخاري<sup>(٣)</sup> عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لعثمان: ﴿والذين  
يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية الأخرى فلِمَ تُكتُبُها أو تدعها؟  
قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه .

وأخرج أحمد ومسلم<sup>(٤)</sup> عن عمر قال: ما سألت النبي صلى الله عليه  
وسلم عن شيء أكثر مما سأله عن الكلالة ، حتى طعن بأصبعه في صدره  
وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر النساء».

وأخرج أحمد بالإسناد الثابت عن عثمان بن أبي العاص قال كنت جالساً  
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص بيصره ثم صوبه ، ثم قال:  
«أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ  
بِالْعَدْلِ وَإِلَحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ إلى آخرها<sup>(٥)</sup> .

ومنها الآحاديث التي تخبر عن آيات بموضعها ، وذلك يشعر بكون هذا  
الترتيب معلوماً شائعاً مفروغاً منه ، وهي آحاديث كثيرة تعسر على الحصر :  
مثل الآحاديث في فضل خواتيم البقرة في الصحيحين ، وحديث فضل من

(١) الإنقان في الموضع السابق .

(٢) انظر المرجعين السابقين .

(٣) ج ٦ ص ٣١ .

(٤) المسندج ١ ص ٢٦ ومسلم ج ٥ ص ٦١ .

(٥) المسندج ٤ ص ٢١٨ وانظر الإنقان ج ١ ص ٦٠ .

حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال أخرجه مسلم ، وفي رواية العشر الأواخر من سورة الكهف .

ومن ذلك الأحاديث الكثيرة المتضادرة في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سور القرآن ، وغير ذلك مما يصعب عده وإحصاؤه .

وأما ترتيب سور القرآن :

فقد وقع فيه خلاف بسبب وجود روایات فهم منها بعض العلماء أن ترتيب بعض السور كان باجتهاد من الصحابة .

لكن جماهير العلماء على أن ترتيب سور القرآن توقيفي ، وليس باجتهاد من الصحابة ، وإن كانوا اختلفوا هل كل ذلك الترتيب بتوقف قولى صريح من النبي صلى الله عليه وسلم ينص على كل سورة أنها بعد سورة كذا ، أو أن بعض هذا الترتيب قد استند فيه الصحابة إلى مستند فعلى من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً .

وذهب ابن عطية وبعض العلماء إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتبيها في حياته صلى الله عليه وسلم ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل ، وأن بعض السور يمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

ولعل أقوى ما يستدل به لهذا الرأي حديث ابن عباس ، قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عدتم إلى الأنفال وهي من المثانى وإلى براءة وهي من المئين فقررت بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر باسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموهما في السبع الطوال ؟

فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يُذكَرُ فيها كذا وكذا» ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرئت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر باسم الله الرحمن

الرحيم ، وبوضعتها في السبع الطوال» أخرجه أحمد والثلاثة وابن حبان والحاكم .

وهو استدلال غير سديد سندًا ومتناً .

أما السنن فإن إسناد هذا الحديث ضعيف ، فيه يزيد الفارسي وهو ضعيف ضعفه البخاري وغيره ، وقالا تفرد به فلا يصلح للاحتجاج<sup>(١)</sup> ، فضلاً عن أن يكون مرجعاً في قضية هامة كهذه .

وأما المتن : فإن الصحابة يقرأون القرآن ويتلقونه ، فكيف لا يوجد عند أحد منهم علم بسورتين من القرآن الكريم .

يؤيد ما ذكرناه أيضاً ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب : لم لم تكتب في براءة باسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف » .

وقال الإمام القشيري : وال الصحيح أن البسمة لم تكن فيها لأن جبريل عليه السلام لم ينزل بها فيها .

والأدلة على أن ترتيب سور كلها توقيفي كثيرة جداً من السنة نجد فيها ترتيب سور على وفق مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، نذكر منها : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال فيبني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : «إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي» ، أخرجه البخاري .

فذكر ابن مسعود سور نسقاً كما استقر ترتيبها .

ومثله في البخاري أيضاً ، أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما فقرأ : «قل هو الله أحد» والمعوذتين .

وعن واثلة بن الأسعق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أُعطيت مكان

(١) انظر التوسيع في نقد السنن . كتابنا الجامع المفصل في علوم القرآن يسر الله إخراجه .

التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالفصل» أخرجه أبو داود الطيالسي وأبو عبيد<sup>(١)</sup>.

قال أبو جعفر النحاس : «وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم : وأنه مؤلف من ذلك الوقت ، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد ، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف القرآن ، وفيه أيضاً دليلاً على أن سورة الأنفال سورة على حدة ، وليس من براءة» انتهى<sup>(٢)</sup>.

وعن سعيد بن خالد أنه قال : «قرأ صلى الله عليه وسلم بالسبعين الطوال في ركعة» أخرجه ابن أبي شيبة<sup>(٣)</sup>.

وعن أوس بن أبي أوس عن حذيفة الثقفي في حديث طويل قال فيه أوس : فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحربون القرآن؟ فقالوا : ثلاثة<sup>(٤)</sup> ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده» أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد<sup>(٥)</sup>.

وغير ذلك يضيق المجال عن حصره .

ويشهد لذلك من حيث الدراية والعقل واقع الترتيب وطريقته ، وذلك من وجهين لا يشك الناظر فيما أن الترتيب بين سور توقيفي : أي مأخوذ عن النبي ﷺ :

**الأول** : مما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم ، رتبت ولاء ، وكذا

(١) من روایة سعید بن بشیر عن قتادة عن أبي المليح الھذلی عن واثلة ، وفي حديث سعید لین ، لكنه ورد من طريق آخر هو عمران القطان عن قتادة عند الطیالسی كما في البرهان ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٥٨ فتقوی من هذه الناحیة .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٥٨ ونقله في الإنقان بتصرف ج ١ ص ٦٢ .

(٣) الإنقان ، الموضع السابق .

(٤) أي ثلاثة سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، وخمس سور بعدها وهكذا... حتى يختتم في أسبوع ، كما سبق في حديث عبد الله بن عمرو .

(٥) البرهان ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ والإتقان ٦٣ .

الطواسين ، ولم ترتب المسبحات ولاء ، بل فُصل بين سورها ، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطبس النمل مع أنها أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء ، وأخرت طبس النمل عن طسم القصص <sup>(١)</sup> :

وهكذا من يتذمّر سائر السور يعلم أن ترتيبها توقيفي .

**الثاني : ما راعاه العلماء الأئمة في بحوثهم من التزام بيان أوجه التناسب بين كل سورة وما قبلها ، وبيان وجه ترتيبها .**

ويدل الإجماع على ذلك أيضاً ، فإن الصحابة قد أجمعوا على هذا الترتيب وقرأوا به في صلواتهم ، وفي المصاحف من غير مخالفة ، ولو كان لدى بعضهم مستند لترتيبه على غير ذلك لتمسكون به ، لكنهم أجمعوا على التزام هذا الترتيب وترك ما سواه ، ثم استمرت الأمة على ذلك من غير خلاف فقط ، فكان ذلك إجماعاً على الترتيب الذي في مصحف عثمان ، ووجوب التزامه مدى الأزمان <sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

(١) انظر الاتقان والرهان .

(٢) وقد أخطأ من خالف هذا الترتيب في تفسيره للقرآن أو لجزء منه ، وذلك لما يلى :

١- مخالفة الإجماع على ترتيب سور القرآن كما هي في المصحف.

وهكذا فقد عرف القرآن الإنسان منذ بداية طرف المصحف الأول بمقام ربه وعظيم شأنه وأجال نظره في آياته التي تجلّى في مخلوقاته ، وعرف نبوة رسوله وحقيقة كتابه ، وصار بذلك أهلاً لفهم التشريع متّهياً لقبولة ، فأناه حييثن بالتشريع والأحكام .

## الفصل السادس

### أسباب النزول

هذا علم جوهرى من علوم القرآن ، وأثير لدى الباحثين في التفسير عامة ، وفي أسرار أسلوب القرآن خاصة .  
ويعرف سبب النزول بأنه : ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه .

وهذا القيد «أيام وقوعه» يعتبر شرطاً جوهرياً لبيان سبب النزول وتمييزه عن الآيات التي نزلت للإخبار بالواقع الماضية ، حتى انتقد العلماء «ما ذكره الوالحدي في تفسيره سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم العبيضة به ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هو من باب الإخبار عن الواقع الماضية ، كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك .

وتجدر بالتنبيه عليه هنا أنه ليس كل القرآن قد نزل على أسباب ، بل إن من القرآن الكريم ما نزل ابتداء غير مبني على سبب ، ومن ذلك أكثر قصص الأنبياء مع أمههم ، وكذا وصف بعض الواقع الماضية ، أو أنباء الغيب القادمة ، وبيان أهوال القيامة ، والجنة والنار ، فقد نزل أكثر من ذلك ابتداء ، من غير توقف على سبب<sup>(١)</sup> .

---

(١) أما قول ابن مسعود «والله ما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيمن نزلت...» ونحوه عن علي رضي الله عنهما ، فليس يعني أن لكل آية سبباً بل المراد إن كان لها سبب فهو يعلمه ، وقد حاد عن الجادة من حمله على المبالغة أو ظن بالرواية تزيداً . فليتبه .

## فوائد علم أسباب النزول :

ولا ريب عندَ مَنْ لَهُ تَأْمِلُ وَخُبُرُ بِدِرَاسَةِ النُّصُوصِ وَالوَثَائِقِ أَنْ لِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النَّزْوَلِ وَالْوَقَائِعِ الَّتِي يُبَنِّيُ عَلَيْهَا وَرُودُ النَّصِّ أَوْ تَرْتِيبُ عَلَيْهَا وَقْوَعُ الْحَدِيثِ مِنْ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ لَهُ أَثْرٌ بَالْغُ خَطْرٌ فِي دراسةِ تَلْكَ النُّصُوصِ أَوِ الْأَحْدَاثِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَوْجَهِ كَثِيرَةٍ ، نَذْكُرُ مِنْهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ :

١ - الاستعانة على فهم المعنى المراد : لما هو معلوم من الارتباط بين السبب والسبب ، قالوا الواحدي : «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها» .

وقال ابن دقيق العيد : «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»<sup>(١)</sup> .

وقال ابن تيمية : «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب» .

٢ - معرفة وجه الحكمة التي ينطوي عليها تشريع الحكم : مما يكون أدعى لتفهمه وتقبله ، فمن قرأ أسباب نزول آيات تحريم الخمر متدرجة واحدة بعد الأخرى ، أدرك ضرورة تحريم الخمر ، وبعثه موقف الصحابة عند نزول تحريمها البات لأن يقتدي بهم ويتأسى بعملهم فينجذب عما قد يكون عليه من فعل محظوظ .

٣ - إزالة الإشكال عن ظاهر النص لمن لم يتعرف سبب النزول : وذلك كثير يصادفه المفسر ، ومنه هذا المثال المشهور وهو أنه قد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحَبِّبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعُلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمِقَازِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال : لئن كان كل أميرٍ فرح بما أوتي وأحب أن يُحمد بما لم

(١) الإتقان ج ١ ص ٢٨ وقارن نصه بالبرهان ج ١ ص ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨٨ .

يفعل مُعَذِّبًا لِّعَذَّبِنَ أَجْمَعُون؟ حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إيه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إيه ما سألهم عنه» أخرجه الشیخان<sup>(١)</sup> .

٤ - كشف أسرار البلاغة في القرآن العظيم : لما يفيده علمأسباب التزول من تلاؤم أسلوب القرآن مع مقتضى حال السامعين والعالمين إلى يوم الدين . وقد حفلت مصادر التفسير البلاغي بهذا اللون<sup>(٢)</sup> .

#### كيف نعرف أسباب التزول :

لما كان سبب التزول أمراً واقعاً نزلت الآية بشأنه كان من البَدَهِيُّ ألا يدخل العلم بهذه الأسباب في دائرة الرأي والاجتهاد لهذا قال الإمام الواحدi في ديباجة كتابه أسباب التزول<sup>(٣)</sup> :

«ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع من شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطَّلَاب» .

ومن ه هنا نفقه تشدد السلف في البحث عن أسباب التزول حتى قال الإمام محمد بن سيرين : سألت عَيْدَةَ عَنْ آيَةٍ مِّنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ : «اتق الله وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون فيم أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ»<sup>(٤)</sup> .

ولما أن أسباب التزول غير خاضعة للاجتهاد أدخلها علماء الحديث من الصحابي الذي عاين التنزيل وعاصره فيما له حكم المرفوع ، وإنْ كانت العبارة فيها لفظ الصحابي<sup>(٥)</sup> كحديث ابن عباس السابق في جوابه لمروان ، فإن

(١) البخاري في التفسير ج ٦ ص ٤٠ - ٤١ ومسلم بلفظه في المناقين ج ٨ ص ١٢٢ .

(٢) انظر دراسة موسعة لهذه الناحية في كتابنا «القرآن الكريم والدراسات الأدبية» ص ٨٥ .

(٣) ص ٣ - ٤ وقارن بالإتقان ج ١ ص ٣١ .

(٤) المواقف للشاطبي ج ٣ ص ٤٢٢ - ٤٢٣ ، والإتقان الموضع السابق .

(٥) انظر المسألة في معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢٠ ومنهج النقد في علوم الحديث ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

اللفظ لابن عباس ، لكن له حكم المرفوع أي المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد اتفق علماء الحديث على اعتبار قول الصحابي في سبب التزول له حكم المرفوع ، وأخرج المحدثون أسباب التزول في كتبهم كالبخاري ومسلم وغيرهما .

أما ما يرويه التابعون من أسباب التزول فهو مرفوع أيضاً ، لكنه مرسل <sup>(١)</sup> ، لعدم ذكر الصحابي فيه .

لكن ينبغي الحذر والتيقظ ، فلا الخلط بأسباب التزول ما ليس منها ، فقد يقع على لسانهم قولهم : «نزلت هذه الآية في كذا» ، أو «في الرجل يفعل كذا» . ويكون المراد بيان موضوع الآية ، أو ما دلت عليه من الحكم . كقوله تعالى : «وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ» . أخرج البخاري عن حذيفة في هذه الآية قال : «نزلت في النفقة» <sup>(٢)</sup> .

قال الإمام الزركشي <sup>(٣)</sup> : «وقد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية في كذا ، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها... فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالأية ، لا من جنس النقل لما وقع» .

#### اختلاف روایات أسباب النزول :

لما كان سبیل الوصول إلى أسباب التزول هو الرواية والنقل ، كان لا بد أن يعرض لها ما يعرض للرواية مما هو معلوم ومدروس في علوم الحديث ، من صحة وضعف ، واتصال وانقطاع ، وغير ذلك مما لا نطيل به ، غير أنها نبه هنا على ظاهرة هامة يحتاج الدارس إليها وهي اختلاف روایات أسباب النزول

(١) الإتقان ج ١ ص ٣١ .

(٢) ج ٦ ص ٥٧ والآية هي ١٩٥ من سورة البقرة .

(٣) البرهان ج ١ ص ٣٢ - ٣١ باختصار .

وتعدها ، وذلك لأسباب يمكن تلخيص مهماتها فيما يلي<sup>(١)</sup> :

### ١ - ضعف الرواية :

وضعف الراوي يسبب له الغلط في الرواية ، وأن تكون مردودة ، فإذا خالفت روايته رواية المقبولين ، كانت أولى بالرد .

ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى : ﴿وَلِلّهِ الْمُشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾<sup>(٢)</sup> .

فقد ثبت أنها في صلاة التطوع للراكب المسافر على الدابة : أخرج مسلم عن ابن عمر قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت : ﴿فَإِنَّمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾<sup>(٣)</sup> .

وأخرج الترمذى<sup>(٤)</sup> وضعيتها أنها في صلاة من خفيت عليه القبلة فاجتهد فأخطأ القبلة ، فإن صلاته صحيحة .

فالمعنى هنا في سبب النزول على الأول لصحته .

### ٢ - تعدد الأسباب والمنزل واحد :

وذلك بأن تقع عدة وقائع في أزمنة متقاربة فتنزل الآية لأجلها كلها ، وذلك واقع في مواضع متعددة من القرآن ، والعمدة في ذلك على صحة الروايات ، فإذا صحت الروايات بعدة أسباب ولم يكن ثمة ما يدل على تباعدها كان ذلك دليلاً على أن الكل سبب لنزول الآية والآيات .

(١) قارن سياقنا في التقسيم بسياق السيوطي في الإتقان ج ١ ص ٣١ - ٣٤ ولا سيما في الصورة الثالثة .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٥ .

(٣) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٤٩ وأصله متفق عليه ، أنظر البخاري ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ ، وقد قصر السيوطي فلم يعز الحديث إلى مسلم .

(٤) الترمذى ج ١ ص ١٧٦ وأخرجه أيضاً ابن ماجه ج ١ ص ٣٢٦ والدارقطنى ص ١٠١ طبع الهند .

مثال ذلك : آيات اللعان :

فقد أخرج البخاري أنها نزلت في هلال بن أمية لما قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : «والذين يرمون أزواجاً جهم...» .

وفي الصحيحين أنها نزلت في عويمر العجلاني وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً . فقال صلى الله عليه وسلم : «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك»<sup>(١)</sup> .

وظاهر الحديثين الاختلاف ، وكلاهما صحيح .

فأجاب الإمام النووي بأن أول من وقع له ذلك هلال ، وصادف مجيء عويمر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً ، وبذلك قال الإمام الخطيب ، قال : «لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد»<sup>(٢)</sup> .

٣ - أن يتعدد نزول النص لتعدد الأسباب :

قال الإمام الزركشي<sup>(٣)</sup> : «وقد ينزل الشيء مرتين تعظيمًا لشأنه ، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه...» .

ولذلك أمثلة ، منها :

ما ثبت في الصحيحين<sup>(٤)</sup> عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى «ويسألونك عن الروح» أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة ، ومعلوم أن هذه الآية في سورة «سبحان» ، وهي مكية بالاتفاق ، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قبل ذلك بمكة وأن اليهود أمرتهم أن يسألوه عن ذلك ، فأنزل الله الجواب ، كما سبق بيانه<sup>(٥)</sup> .

ولا يقال : كيف يتعدد النزول بالأية الواحدة ، وهو تحصيل حاصل ؟

فالجواب : أن لذلك فائدة جليلة ، «والحكمة من هذا - كما قال

(١) البخاري في التفسير : ٦: ٩٩ و ١٠٠ ومسلم في اللعان : ٤: ٢٠٥ .

(٢) الإنقاذ ج ١ ص ٣٣ .

(٣) البرهان ج ١ ص ٢٩ .

(٤) البخاري في التفسير ج ٦ : ١٠٨ - ١٠٩ ومسلم في القيامة : ٨: ١٢٨ .

(٥) ص ٣١ وانظر المستند ج ٢ ص ٢٥٥ والطبرى ج ١٥ ص ١٠٤ .

الزرκشي<sup>(١)</sup> - أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية ، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها ، فَتُوَدِّيَ تلك الآية بعينها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، تذكيراً لهم بها ، وبأنها تتضمن هذه» .

### عموم اللفظ وخصوص السبب :

هذه قضية أصولية من قواعد أصول الفقه ، كما أنها من أصول التفسير الهمامة ، تضبط كيفية تفسير السبب للنص ضبطاً يزيل التوهם الفاسد .

فالسبب الخاص قد يتزلم فيه نص خاص بموضوع السبب ، وقد يتزلم نص عام الصيغة .

١ - أما إن كان النص النازل خاصاً بالسبب ، ولا عموم للفظه فإن الآية حيثئذ تقتصر عليه قطعاً<sup>(٢)</sup> .

مثال ذلك قوله تعالى في سورة الليل : «وَسَيَجْنَبُهَا الْأَنْقَى الَّذِي يُؤْتَى مَالَهُ يَتَزَكَّى» .

هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق بالإجماع ، ومن هنا استدل بها الإمام فخر الدين الرازي مع قوله تعالى : «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءُكُمْ» على أن أبو بكر أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما من ظن أنها عامة في كل من عمل عمله بهذا غلط منه ، لأن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم حتى نطبق عليها قاعدة : «العبرة لعموم اللفظ» ، بل إن «الـ» في الأنقى للعهد ، يؤكد ذلك أن «أـ» ، الموصولة التي تفيد العموم لا توصل بأفعال التفضيل إجمالاً ، والأنقى ليست جمعاً ، بل هو مفرد ، والعهد موجود ، خصوصاً مع ما يفيده أفعال التفضيل من التمييز وقطع المشاركة ، فبطل القول بالعموم وتعيين القطع بالخصوص ، والقصر على من نزلت فيه رضي الله تعالى عنه .

(١) البرهان ج ١ ص ٣١ .

(٢) الإتقان ج ١ ص ٣٠ .

٢ - وإنما أن يكون السبب خاصاً ولفظ الآية عاماً : فالمعتمد الذي عليه جمهور الفقهاء والأصوليين والمفسرين وغيرهم «أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب» .

ومن الأدلة على ذلك احتجاج الصحابة والتابعين فمن بعدهم في وقائع كثيرة بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، وكان ذلك الاستدلال شائعاً ذائعاً بينهم ، لا ينكره أحد .

لذلك قال محمد بن كعب القرظي : «إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد» .

وسأله نجدة الحنفي ابن عباس عن قوله تعالى : «والسارقُ والسارقةُ فاقطعُوا أَيْدِيهِمَا...» أَخَاصٌ أمْ عَامٌ؟ قال : بل عام<sup>(١)</sup> .  
ويدل لذلك أيضاً أنه كما قال الإمام الزركشي :

«قد جاءت آيات في مواضع اتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها ، كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر ، وأية اللعان في شأن هلال بن أمية ، ونزول حذقى في رماة عائشة رضي الله عنها ، ثم تعدى إلى غيرهم»<sup>(٢)</sup> .

وهذه القاعدة من البديهيات ، لا يمكن للعالم أن يخصص ألفاظ القرآن العامة «بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق» كما قال ابن تيمية<sup>(٣)</sup> .

وعلى ذلك درجت القوانين في الدنيا كلها ، فإن القانون يصدر لأسباب خاصة في أحيان كثيرة ثم يكون حكمه عاماً على الجميع .

أشهر المؤلفات في أسباب النزول :  
كان التسطير في أسباب النزول من اختصاص الأئمة الكبار المحدثين

(١) الإتقان ج ١ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٤ .

(٣) الإتقان ص ٣٠ . وانظر البرهان ج ١ ص ٣٢ .

المشاركين في عدد من العلوم ، ثم منهم من تعرض لأسباب التزول في كتب التفسير كما نراه في كتب التفسير بالتأثير بصورة خاصة ، ومنهم من أفرد جمع مادة هذا العلم في تأليف مفرد .

وأول من عرفناه ألف في أسباب نزول القرآن الكريمشيخ البخاري الإمام علي بن عبد الله المديني (المتوفى سنة ٢٣٤ هـ) ، ثم تتابعت المصنفات في ذلك ، لكنها لم تُعْنَ بالتفقيق ولم تلتزم ببيان السقيم من الروايات من الصحيح ، مما يلزم الدارس بالثبت والتحقيق .

وأهم الكتب المصنفة في ذلك هذان الكتابان المطبوعان :

١ - «أسباب النزول» للإمام المفسّر النحوي المحدث أبي الحسين علي بن أحمد النيسابوري الشهير بالواحدي ، المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، وقد عول فيه على رواية الأسباب بأسانيده ، وأورد أشياء معلقة بدون إسناد .

٢ - «باب النقول في أسباب النزول» للإمام المحدث الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) جرّده من الأسانيد وعزى كل حديث لمن أخرجه ، فكفى القارئ بذلك جهداً كبيراً ، وزاد على ما ذكره الوحدي ، غير أنه أخلّ بأمررين :

الأول : أنه لم ينص على الصحيح من غيره ، معتمداً على المراجع التي أحال القارئ عليها وكثير منها نادر الوجود ، وبعضه في زمننا هذا مفقود .

الثاني : أنه ترك كثيراً من أسباب النزول لم يوردها ، كما يعلم من مطالعة المراجع مثل تفسير ابن كثير ، والدر المنشور للسيوطى نفسه ، فلا تظنن الآية نزلت مُبتدأة لا على سبب لعدم ذكر سببها في اللباب فقد يكون لها في المراجع سبب أو أسباب .

\* \* \*

## الفصل السابع المكي والمدني

هذا الموضوع يدرس جوانب الظروف العامة التي أحاطت بنزول القرآن ، وليس قاصراً على ما يدل عليه ظاهر العبارة من تقسيم القرآن إلى مكي نزل بمكة أو مدني نزل بالمدينة ، ومن هنا فإن هذا الموضوع يحتل أهمية كبيرة في دراسة بلاغة القرآن ، لما يكشفه من توفر عميق لأصل البلاغة ومراعاة مقتضى الحال ، إلى جانب توفر عنصر آخر من سمات إعجاز القرآن هو اعتقاده من قيود الزمان والمكان وانطلاقه من إسار البيئة الضيقة ليحلق في علية الموضوعية التي يخاطب بها الإنسان في كل زمان ، وفي أي مكان .

### ضابط المكي والمدني :

تعددت طرائق علماء هذا الفن في كيفية التمييز بين القرآن المكي والقرآن المدني ، على ثلاثة نماذج نوضحها فيما يلي :

**المذهب الأول :** أن القرآن المكي هو ما نزل قبل الهجرة ، والقرآن المدني هو ما نزل بعد الهجرة .

وهذا هو أشهر الاصطلاحات في المكي والمدني<sup>(١)</sup> ، ويمتاز بشمول تقسيمه جميع القرآن لا يخرج عنه شيء ، حتى كان عموم قولهم في المدني : «ما نزل بعد الهجرة» يشمل ما نزل بعد الهجرة في مكة نفسها في عام الفتح أو عام حجة الوداع ، مثل آية «اليوم أكملت لكم دينكم ...» .

(١) كما ذكر السيوطي في الإتقان ج ١ ص ٩ .

كما يشمل ما نزل بعد الهجرة خارج المدينة في سفر من الأسفار أو غزوة من الغزوات .

روي عن يحيى بن سلام قال : «ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فهو من المكي ، وما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني» . وهذا أثر هام ومفيد ، يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحاً<sup>(١)</sup> .

**المذهب الثاني :** أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة .

وهذا المذهب مكاني ، قد تقييد بالتسمية المكانية ، والتزم ظاهر التسمية ، وإن كان شرّاحه أدخلوا في مكة ضواحيها ، فاعتبروا من القرآن المكي ما نزل بمنى وعرفات والحدبية ، ومن القرآن المدني ما نزل بأحد وسلح<sup>(٢)</sup> .

لذلك كان في هذا الضابط ثلثة هي وجود قسم ثالث هو واسطة بين القسمين ، وهو ما نزل من القرآن في الأسفار ، فإنه لا يعد مكيأ ولا مدنياً . .

**المذهب الثالث :** أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة .

وفسر بهذا قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود : «كل شيء نزل فيه : «يا أيها الناس» فهو بمكة ، وكل شيء نزل فيه «يا أيها الذين آمنوا» فهو بالمدينة»<sup>(٣)</sup> .

(١) كما قال السيوطي في الإتقان ج ١ ص ٩ .

(٢) المرجع السابق وزاد في ضواحي المدينة ذكر «بدر» ، وهو مستبعد لبعده الشاسع عن المدينة .

(٣) أخرجه الحاكم عن ابن مسعود ، ويشهد له ما ورد بمثله عن كثير من المفسرين وعن ابن عباس ، انظر البرهان ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

غير أنا نرى أن هذا الأثر ليس صالحًا للاستدلال لهذا المذهب لأن ابن مسعود لم يقصد وضع ضابط وتعريف للمكي والمدني ، إنما أراد بيان علامة من علمات القرآن المكي والمدني ، أو تفسيرًا لبيان المراد بهذا الخطاب ، وهو أمر أغلبي ليس مضطربًا دائمًا كما سيتضح .

وهذا المذهب في تفسير المكي والمدني أضيق من المذهب السابق ، لأنه قد تقيد بالأشخاص المعينين في أمكنة معينة ، وتقيد بموضع معين هو ما كان فيه خطاب من آيات القرآن ، فبقي القسم الأكبر من القرآن خارج هذا المنهج في تعريف المكي والمدني .

ولهذا الذي ذكرناه في نقد المذهبين الثاني والثالث ، كان المذهب الأول أكثر قبولًا لدى العلماء ، حتى كان هو الأشهر كما ذكرنا .

ويندرج في ضمن المكي والمدني بناء على المذهب الأشهر المعتمد أنواع كثيرة من الدراسات المتصلة بالظروف المحيطة بنزل القرآن كالسفرى والحضري ، والليلي والنهاري ، وما حُمل من مكة إلى المدينة ، وما حُمل من المدينة إلى مكة ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وغير ذلك من دراسات تدل على الاعتناء العجيب الذي أحاط به هذا القرآن ، وتوفير وسائل دراسته من جميع الجهات .

وبناء على هذا الضابط المختار كان عدد سور المدينة تسعًا وعشرين سورة ، وسائر سور بعد ذلك مكية ، وقد يوجد في السورة المدينة ما هو مكي ، كما قد يوجد في السورة المكية ما هو مدنى ، والنظر في ذلك لمطلع السورة إن نزل بمكة عَدْت مكية ، وإن نزل بالمدينة عَدْت مَدِينية .

### أهمية علم المكي والمدني :

مما لا يخفى على الباحث أهمية معرفة الأحوال التي احتفت بنزل القرآن في فهمه وتفسيره ، حتى صرحاوا بأنه لا يحل لمن ابتعد عن علمها أن يتكلم في تفسير القرآن الكريم ، ونوضح أوجه أهمية هذا العلم فيما يلي :

١ - إن علم المكي والمدني يعين الدارس على معرفة تاريخ التشريع والوقف على سنة الله الحكيمه في تشريعيه ، بتقديم الأصول على الفروع ، وترسيخ الأسس الفكرية والنفسية ثم بناء الأحكام والأوامر والنواهي عليها ، مما كان له الأثر الكبير في تلقي الدعوة الإسلامية بالقبول ، ومن ثم ثم الإذعان لأحكامها .

٢ - إنه يُعرَفُ بالمكي والمدني الناسخ والمنسوخ ، الذي كان من حكمة تربية القرآن في التشريع .

**كيف نعرف المكي والمدني :**  
ذكروا لمعرفة المكي والمدني طريقتين لا ثالث لهما ، وهما : السماع والقياس<sup>(١)</sup> .

أما السماع : فالمراد به النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة الذين عاينوا التنزيل .

وقد كانت عنابة الصحابة والتابعين بهذه الأمور عنابة باللغة حتى نجد العالم يعتز بعلمه بهذا الموضوع .

أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت وما من آية إلا أنا أعلم فيما نزلت . . .»<sup>(٢)</sup> .

وقال أئوب السختياني سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن ؟ فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل ، وأشار إلى سلع ، أخرجه أبو نعيم<sup>(٣)</sup> .

وأما القياس : فهو ضوابط عرفت بالاستقراء ، واستدل بها العلماء على المكي والمدني ، وكان ذلك موضع عنابة المتقدمين .

(١) البرهان نقلًا عن الجعبري أنه حددهما ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) البخاري ج ٦ ص ١٨٦ - ١٨٧ ومسلم ج ٧ ص ١٤٨ .

(٣) الإنقاذ الموضع السابق .

١ - أول هذه الضوابط ما سبق عن عبد الله بن مسعود : «كل شيء فيه ﴿يا أيها الناس﴾ فهو بمكة ، وكل شيء نزل فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهو بالمدينة» .

وهذه العالمة ليست عامة عموماً شاملًا ، بل استثنى من ذلك مواضع قليلة ، منها مواضعان في سورة البقرة هما : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾<sup>(١)</sup> و﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾<sup>(٢)</sup> وسورة البقرة مدنية كلها اتفاقاً .

وأربع مواضع في سورة النساء هي : الآية الأولى من السورة : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ . و﴿إن يشأ يُذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ . و﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق﴾ . و﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان﴾<sup>(٣)</sup> .

٢ - كل سورة فيها الاستفتاح بالحروف المقطعة فهي مكية سوى الزهراوين : البقرة وآل عمران .

٣ - كل سورة فيها ﴿كلا﴾ فهي مكية .

٤ - كل سورة فيها ذكر آدم وإبليس فهي مكية سوى السورة الطولى - أي البقرة - .

٥ - كل سورة فيها فريضة أو حدٌ فهي مدنية .

٦ - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت .

والحكمة في ذلك ترجع إلى المقاصد الموضوعية التي نزل بها القرآن ، فالخطاب في مكة كان لأمور اعتقادية تشمل كل الناس ، وهي مناط إنسانيتهم ،

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٨ .

(٣) سورة النساء ، الآيات ١ و ١٣٣ و ١٧٠ و ١٧٤ ، ولم نذكر ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في سورة الحج المكية ، لأنها مكية ومدنية .

فناسب خطابهم بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾ كما أن محاورة أهل العناد تناسب حرف الردع ﴿كلا﴾ ، وكذلك التنويه بإعجاز القرآن لإفحام المنكريين ، والاستفتاح بحروف الهجاء في أوائل السور ، وقد وجد من ذلك قليل في القرآن المدني تبعاً لاقتضاء الموضوعات المدنية التي كانت فترة بناء وكانت فترة مكة فترة تأسيس .

### القرآن المكي من حيث الموضوع :

فمن سمات القرآن المكي الاعتناء بالموضوعات التالية الأساسية :

١ - تقرير أصول العقائد الإيمانية ، بدعاوة الخلق إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ، والإيمان باليوم الآخر وما يتبع ذلك من الجزاء والجنة والنار ، وتقرير رسالة النبي صلى الله عليه وسلم والرسل من قبله ، والإيمان بالملائكة عليهم السلام .

تأمل مثلاً سورة القصص المكية ودعوتها لهذه الأصول ، وانظر هذه الآيات التي تدعو إلى الإيمان بالله تعالى وتوحidه :

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلَمُونَ . وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ وَفِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضَيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ . وَمَنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتْسِكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

وتأمل هذه الآيات الخاتمة من سورة إبراهيم تعرض من مشاهد القيامة :

﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعِدَّهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتقامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرُزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ .

(١) سورة القصص ، الآيات ٦٩ - ٧٣ .

**لِيَجْزِي اللَّهُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلَيُنذِرُوا بِهِ وَلَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلَيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» .**

ويطمحن القلب إيماناً بالأخرة وهو يتفكر في مثل هذه الآيات من سورة

ق :

**﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوحٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدَنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ . تَبَصِّرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارِكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعَ نَضِيدٍ . رِزْقًا لِلْعَبَادِ وَأَحَيَنَا بِهِ بَلَدةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخَرْوَج﴾<sup>(١)</sup> .**

وهكذا الحجة البالغة في مثل هذه الآيات الخاتمة من سورة القيامة :

**﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيَّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوْيٍ . فَجَعَلَ مِنْهُ الرِّزْقَيْنِ الْذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ .**

٢ - الحملة على الشرك والوثنية ، والإلحاد والدهرية ، وإقامة الحجج والبراهين الدامغة على بطلان عقائدهم الزائفة ، مستعيناً بضرب الأمثال وأنواع البيانات ، حتى كشف لهم سوءة عقائدهم وفضحها حتى جعل أصنامهم دون الذباب ، تأمل هذه الآيات من سورة الحج أيضاً :

**﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ . وَإِنْ يُسْلِبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ . مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾<sup>(٢)</sup> .**  
وتأمل قوله في سورة العنكبوت : **﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذُتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبَيْوَتِ لَيْسَتِ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> .**

(١) سورة ق ، الآيات ٦ - ١١ .

(٢) سورة الحج ، الآيات ٧٣ - ٧٥ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤١ .

ولما كان التقليد منبعاً خطيراً من منابع الضلال ، واحتاج المشركون بما وجدوا عليه آباءهم ، عُني القرآن بتوسيع آفاق العقل والفكر وأمر بالتفكير وحضر على النظر والتعقل ، وسفه أحالمهم وأحلام آبائهم ، حتى جعل التقليد الأعمى للأباء عاراً وشناراً ، يعتبر به المعتبر ، فضلاً عن تقليد الأعداء فيما يبتكرونه في الفكر من الأزياء .

قال تعالى : «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَيْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءِنَا أَوْلُو كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابٍ السَّعِيرِ**»<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : «**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءِنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مَهْتَدُونَ . وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءِنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أَوْلُو جِنَاحَتُكُمْ بِأَهْدَى مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءِكُمْ . قَالُوا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ**»<sup>(٢)</sup> .

**٣ - الاستدلال بدلائل الأنسنة والأكونان على عظمته الله تعالى وسلطانه ، ووجوب طاعته والانقياد له ، وتوحيده في ألوهيته وربوبيته ، والإيمان بالقيامة والبعث بعد الموت .**

حتى كانت في تلك الآيات دلائل إعجاز علمي ، لما اشتغلت عليه من حقائق الكون والإنسان والحياة ، ونوميس خلقه تعالى وسنن تصريفه لأمور الأكونان .

انظر هذه الآيات من سورة لقمان وما فيها من سبق علمي :

«**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدَى**»

(١) سورة لقمان ، الآية ٢١ .

(٢) سورة الزخرف ، الآيات ٢٢ - ٢٥ .

ولا كتابٌ مُنيرٌ) إلى أن قال :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
بِلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ  
الْحَمِيدُ . وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةٍ  
أَبْحَرٌ مَا نَفِدْتُ كَلْمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعْثَكُمْ إِلَّا  
كَنْفُسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> .

وتتأمل هذه الآيات من سورة الأنعام :

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوْى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ  
الْحَيَّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَانِي تُؤْفِكُونَ . فَالِقُ الْإِاصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ  
وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهَتَّدُوا  
بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَلَنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ  
مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقْرٌ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَلَنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي  
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلُّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضْرًا نُخْرِجُ مِنْهُ  
حَبَّاً مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانَ دَانِيَةً وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالْزَيْتُونَ  
وَالرَّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظَرْنَا إِلَيْهِ ثَمَرٍ وَيَنْعِهُ إِنْ فِي ذَلِكَمْ لَا يَأْتِ  
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

٤ - اهتمام القرآن المكي بقصص الأنبياء مع أقوامهم، حتى كاد ذلك أن يكون علامه تميزه ، إذ لم يوجد قصص الأنبياء في القرآن المدني إلا في سور قليلة ، كقصة موسى وقومه في سورة البقرة والمائدة وهما مدنیتان ، وقصة عيسى وموسى عليهم السلام في سورة آل عمران والصف وهما مدنیتان أيضاً .

والحكمة في اهتمام القرآن المكي بقصص الأنبياء والأمم الغابرة ظاهرة جداً مما ذكرناه في حكم نزول القرآن منجماً ، وما كان لها من أثر عظيم في

(١) سورة لقمان ، الآيات ٢٠ - ٢٧ .

(٢) سورة الأنعام ، الآيات ٩٥ - ٩٩ .

تبثيت النبي صلى الله عليه وسلم وال المسلمين ، ومواساتهم فيما كان يصيّبهم ، وإنذار أعدائهم ، وإثارة العبرة والعظة بقصص من سبقهم .

انظر على سبيل المثال القصص في سور الأعراف ، يونس ، هود وغيرها وغيرها... تجد فيها أبلغ المواقع وأنفع العبر لتقرير سنته تعالى في إهلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان والإحسان .

تأمل قوله تعالى في آخر قصة موسى مع فرعون في سورة غافر :

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سِيَّنَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوهَا آلَ فَرْعَوْنَ أَشَدُّ الْعَذَابِ . وَإِذْ يَتَحَاجَّوْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الْمُضْعَفُؤُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَا لَكُمْ تَبَعًا فَهُلْ أَنْتُمْ مُغْنَوْنَ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلُّنَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ . وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ إِذْعُوا رَبِّكُمْ يُخَفَّفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رَسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلِي . قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ الْلَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ .

5 - إن القرآن المكي شرح أصول الأخلاق ، وقواعد عامة في الاجتماع مما لا يختلف فيه حال ولا عقل ، لكونها من البديهيات الظاهرة والمقومات الأساسية لإنسانية الإنسان ، واطمئنانه بالإيمان ، كالصدق ، والبر ، والصلة ، وبر الوالدين ، وإكرام الجار ، وطهارة القلب واللسان ، وغير ذلك . وقد شرح القرآن تلك القيم ببيانه المعجز شرحاً غرسها في قلوبهم ، وكراه إليهم الكفر والفسق ، والظلم ، ووأد البنات ، والقتل والزنا .

انظر هذه الآيات بالوصايا العشر الأخلاقية والاجتماعية في سورة الإسراء :

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالوَالَّدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَتَلَفَّعُ عَنْدَكُمُ الْكِبَرَ أَحْدُهُمَا أَوْ كَلَّاهُمَا فَلَا تَقْلُّ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

وأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلُّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبَّ ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا .  
 رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَابِينَ غَفُورًا .  
 وَآتِ ذَا الْقَرِيبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ لَا تَبْدُرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ  
 كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينَ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . إِنَّمَا تُعَرِّضُنَّ عَنْهُمْ أَيْتَغَاءَ  
 رَحْمَةِ مِنْ رَبِّكُمْ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا . لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى  
 عَنْقِكَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلْوَمًا مَحْسُورًا . إِنَّ رَبَّكَ يَسِطُ الرَّزْقَ لِمَنْ  
 يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بَعِيَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . لَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ خَشِيَّةً إِمْلاَقَ نَحْنُ  
 نَرْزُقُهُمْ وَإِيَاكُمْ إِنْ قَتَلُوكُمْ كَانَ خَطْأً كَبِيرًا . لَا تَقْرَبُوا الزَّنَنَ إِنَّهُ كَانَ فَاجِحَةَ وَسَاءِ  
 سَبِيلًا . لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلومًا فَقَدْ جَعَلْنَا  
 لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُنْصُورًا . لَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا  
 بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَلْعَغَ أَشْدَهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسُؤُولاً . وَأَوْفُوا  
 الْكِيلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنَوْا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . لَا  
 تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمَعَ وَالْبَصَرَ وَالْفَؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ  
 مَسُؤُولاً . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ  
 طَوْلًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا . ذَلِكَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ  
 الْحِكْمَةِ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقِي فِي جَهَنَّمَ مَلْوَمًا مَذْحُورًا<sup>(١)</sup> .

القرآن المدني من حيث الموضوع :

ومن سمات القرآن المدني الاعتناء بالموضوعات التالية :

- 1 - بيان جزئيات التشريع وتفاصيل الأحكام العملية ، في العبادات كأحكام الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجج ، والمعاملات كالبيوع والأموال، والاجتماعيات كالنكاح والطلاق والرضاع ، والعقوبات كالحدود والقصاص كما هو ملاحظ في سورة البقرة والنساء والمائدة والنور .
- 2 - دعوة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إلى الإسلام ، وإقامة

(١) سورة الإسراء ، الآيات ٣٣ - ٣٩ .

الحجج عليهم ، كما هو ملحوظ في سورة البقرة ، وآل عمران ، والمائدة وغيرها .

انظر مثلاً قوله تعالى لليهود : «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصراانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» ، وذلك بعد قوله : «يا أهل الكتاب لم تتحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلأ تعقلون» .

٣ - وصف المنافقين ، وكشف فضائحهم والتحذير من أساليبهم ، لأن النفاق أخطر ما تبتلي به دعوة ، حتى أنزلت سورة خاصة تحمل اسم المنافقين ، وغير ذلك من مواضع في القرآن تتعلق بهم .

٤ - بيان الأحكام الخاصة بالعلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها .

وكان ذلك أول تنظيم وتقنين يحكم العلاقات بين الدول ، كالأحكام المتعلقة بالحرب ، والسلم والصلح ، والمعاهدات ، والغنائم والأسرى ، كما في سور : البقرة والأنفال وبراءة والقتال والفتح والحضر ، مما جعل القانون الدولي مديناً للقرآن في هذه الأحكام ، ولا تزال الأصول القرآنية في هذا الباب نبراساً يعمل بها القانون الدولي في هذا العصر .

القرآن المكي من حيث الأسلوب :

وإذا كان لكل من القرآن المكي والمدني موضوعات يعنian بها ، فلا غرو أن تكون لهما أساليبها التي تميز أحدهما عن الآخر في كثير من الأحيان بحسب تنوع الموضوعات التي يعالجها القرآن مكيًّا كان أو مدنيًّا .

ذلك أن المبني والمعنى ، والشكل والمضمون ركنان متآزران في الأداء القرآني ، كل فكرة لها قالب ، ولها أسلوب وتناغم خاص ، وإثارة معينة للخيال والعاطفة .

فمن سمات أسلوب القرآن المكي :

١ - أنه يغلب عليه قصر الآيات والسور ، وقوة التعبير والتناغم الموسيقي .

٢ - كثرة الفواصل القرآنية وقصرها ، وتنوعها بما يتناسب مع المعاني والمواضف والصور .

٣ - كثرة أسلوب التأكيد ، والاعتناء بوسائل التقرير أي ترسيخ المعاني وتثبيتها ، فكثر في المكي القسم ، وضرب الأمثال ، والتشبيه وتكرار بعض الجمل أو الكلمات .

٤ - إن الآيات المكية يكثر فيها التجسيم الحسي ، وإضفاء الحركة وخواص الحياة على الأشياء ، ولا سيما في مشاهد القيامة ، وأهوال النار ، وبيان أحوال أهل الجنة والنار ، وكذلك القصص .

والحكمة في اختيار هذه الأساليب للقرآن المكي واضحة ظاهرة لنزول القرآن بمكة ، وكان أهلها ينكرون دعوة القرآن وهم أصحاب عنجهية ، وحمية جاهلية ، فكان المناسب لهم النذر القارعة ، والعبارات الشديدة الرادعة ليزدجروا عن غيّهم ، ويسلسوا قيادهم أمام التأكيدات والتخيلات الحسية ، كما أن مضمون خطابات القرآن في مكة لا يختص بالمؤمنين ، بل يتوجه للناس أجمعين ، يحمل الدعوة إلى أصول الإيمان ، فكان من المناسب أن يبرز في إعجازها عنصر الجانب الصوتي ، والجرس الموسيقي ، فتصبح آياته الآذان ، و تستولي على المشاعر وتدعهم في حيرة ودهشة مما يسمعون ، فلا يلبث البليغ منهم أن يلقى عصا العجز ، بل يرسلها قوله صريحة تعلن إعجاز القرآن .

ومن أمثلة ذلك المعروفة : الوليد بن المغيرة القرشي ، الذي لم يلبث بعد أن سمع القرآن سمعاً تأمل وترؤّ أن تغير موقفه حتى شهد للقرآن بالإعجاز فقال : « والله لقد سمعت كلاماً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، وإن له لحلوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلىه لمثير وإن أسفله لمعدق ، وما هو بقول بشر ، وإنه ليعلو ولا يعلى » .

ولما أكرهه أصحابه المشركون على أن يقول قوله ينصر آلهتهم ويرضيهم لم يتمكن من إخفاء الصراع الذي في نفسه ، فاستمهلهم وقتاً ليفكر ، ثم خرج ليقول : إن القرآن سحر يؤثر يأخذه محمد من بعض العالمين بالسحر .

فأنزل الله تعالى فيه : ﴿... إِنَّهُ فَكَرٌ وَقَدْرٌ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدْرٌ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدْرٌ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَذَبَرَ وَاسْتَكَبَرَ . فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحْرٌ يُؤْثِرُ...﴾ .

فتأمل هذه الآيات كيف صورت صراعه النفسي ، وتتكلفه الشديد ذلك التصوير المعبر الموجي ، الذي صار مثلاً يضرب في الجهد العظيم ، الذي يخرج بعده صاحبه بالقول الباطل العقيم .

القرآن المدني من حيث الأسلوب :

ومن سمات أسلوب القرآن المدني :

١ - طول أكثر السور والأيات ، كما هو واضح ظاهر من سورة البقرة وأآل عمران مثلاً .

٢ - أنها غالباً ما تسلك سبيلاً الهدوء ، واللين في أسلوبها ، واسترسال فواصلها .

والحكمة في اختيار هذا الأسلوب اشتمال القرآن المدني على الموضوعات السابقة ، وهي تقضي البسط والإسهاب ، كما أن الخطاب في المدينة توجه في أكثره للمؤمنين وذلك يناسب الهدوء واللين .

### مناقشة المستشرقين حول المكي والمدني :

ومن ذلك نتبين فساد ما توهمه بعض المستشرقين ، ومن تبعهم من بiguارات تتلمذت عليهم من أبنائنا من توهم أو تصور ما زعم من تأثير القرآن بالبيئة ، وأن القرآن لما كان في مكة بين الأميين جاءت سور المكي وآياته قصيرة ، ولما وجد في المدينة بين مثقفين مستشرقين جاءت سور المدني وآياته طويلة ، وجاء القرآن المكي لذلك خلواً من التشريع والأحكام ، بينما القسم

المدنى مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام ، بل بلغ الأمر بهذا الزاعم أن قال : «إن القسم المكى يمتاز بالهروب من المناقشة ، وبالخلو من المنطق والبراهين ، فيقول : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينٌ﴾ .

بخلاف القسم المدنى فهو يناقش الخصوم بالحججة الهادئة والبرهان الساكن الرزين فيقول : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ .

هكذا يستدل هذا الزاعم بهذه الاستدلالات على ما توهمه من تأثير القرآن بالبيئة واقتباسه منها... (١) .

وهذا في الواقع تجّن و اختلاف ، صادر عن سفيه جهول ، أو آفك مغرض متحامل حقود ، ونورد إلماحات وجية لرد هذا الزعم فيما يلي :

١ - إن سمات المكى والمدنى الأسلوبية وكذا الموضوعية خاضعة لقضية البلاغة الجوهرية وال المسلمة لدى كل ذي إلمام بالبلاغة والبيان عربياً أو غير عربي ، وهي مراعاة مقتضى الحال ، كما ذكرنا من قبل ، لذلك نجد في المكى سورة طوالاً بل من أطول الطوال ونجد في المدنى سورة قصراً وفيها الآيات والفقرات القصيرة ، بل من أقصر القصار ، كما في سورة «الفتح» وسورة «الكواثر» وهي أقصر سورة في القرآن وهي مدنية كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي لا يقاوم .

كذلك نجد في المدنى شدة أحياناً ، كما في هذه الآيات من مطلع سورة «الصف» المدنية بالاتفاق :

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبَرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

(١) انظر تفاصيل عبارات هذه الفقرة ومناقشتها في كتاب : مناهل العرفان ج ١ ص ١٩٨ - ٢٣٢ والمدخل إلى دراسة القرآن الكريم لفضيلة أستاذنا الشيخ محمد

بل نجد في المدنى ما بلغ الغاية في الشدة والتخويف ، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران<sup>(١)</sup> :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكِلُوا الرِّبَّا أَضْعافًا مِّضاعفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لِعْلَكُمْ تَفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أَعَدْتُ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لِعْلَكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ .

كان الإمام أبو حنيفة يقول<sup>(٢)</sup> في هذه الآية : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أَعَدْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ هي أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه .

كما قد نجد كذلك في المكي اللين والعفو البالغ أقصاه ، كقوله تعالى في سورة «فصلت»<sup>(٣)</sup> :

﴿وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِّنْ دُعَاءِ إِلَى اللَّهِ وَعَمَلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسْنَةُ وَلَا السَّيْئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي يَنْهَاكَ وَبَيْنَهَا عَدَاوَةً كَأَنَّهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٌ﴾ .

٢ - إن ادعاء خلو القرآن المكي من الحجج والأدلة قلب للقضايا وعكس للأوضاع ومناقضة للحقائق ، فالقرآن المكي من سماته الموضوعية كما ذكرنا اعتناؤه بالدلائل العلمية الكونية على عظمته الله تعالى ووحدانيته ، وعلى إبداع حكمته وجليل علمه وقدرته ، حتى كانت فيه دلائل الإعجاز العلمي ، الذي ألهـت ولا تزال الكتب تؤلف في كشف عجائب هذا الإعجاز ، وأسرار دلالته على موافقة ما يكشفه العلم بعد هذه القرون والمحقب الطوال .

= أبو شهبة وقدعني بذكر عبارات هذا الزاعم بنصها ص ٢٣٢ - ٢٥١ .  
(١) الآيات ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) كما في تفسير الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٣١٨ .  
(٣) الآيات ٢٣ - ٢٥ .

وكذلك نجد في القرآن المكي الدلائل العقلية القاطعة على حقيقة التوحيد ، والقيامة ، وبعث الرسل وغير ذلك ، وقد سبقت لنا آيات من سورة «يس» في دلائل القيامة ، وانظر قوله تعالى في إثبات التوحيد في سورة «المؤمنون» المكية<sup>(١)</sup> :

﴿ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبَحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَصْفُونَ . عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾ .

٣ - إن هذا الزاعم قد حكم على نفسه بالجهل المطبق أو التجاهل والتتجني المهلك ، فإن الآية التي أوردها على أنها من المدنى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ، إنما هي من القرآن المكي ، وهي الآية (٢٢) من سورة الأنبياء ، وهي مكية كلها ، وهذه الآية مكية بالإجماع .

وهكذا كان دأب الباطل أن يتَّخذ الإلَّافَكَ وتحريف الحقائق ذريعةً يستند إليها باطله وجحوده ، سواء كان صاحبه جاهلياً قديماً ، أو عاصرياً حديثاً ، ويريد الله أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الجاحدون .

\* \* \*

(١) الآياتان ٩٢-٩١ .

## الفصل الثامن

### التفسير

### أصوله ومصادره

هذا البحث هام وجليل ، فإنه يحتل بين بحوث علوم القرآن منزلة الغاية من الوسيلة ، والهدف من المقدمات ، قد سمي بعض أساتذتنا الأفضل<sup>(١)</sup> كتابه في علوم القرآن : «المدخل إلى دراسة القرآن الكريم» فأصحاب بتسميته مفصل القضية ولبابها . وكثرت الكتابة في أصول التفسير ومنها مؤلفات مفردة ذكر منها : مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، وكتاب «التفسير والمفسرون» للدكتور الشيخ محمد حسين الذهبي .

#### تعريف التفسير :

التفسير في اللغة : التفسير مأخوذ من الفسر ، وهو الإبانة والكشف ، قال في لسان العرب في مادة (ف س ر) : الفسر البيان ، فسر الشيء يفسره بكسر السين ، ويفسر بالضم فسراً ، وفسر أباه . ثم قال : «الفسر : كشف المغطى ، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكّل» .

والتفسير اصطلاحاً : هو : «علم يُفهم به كتاب الله المنزّل على نبيه محمد صلّى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه»<sup>(٢)</sup> .

ويستعمل العلماء أيضاً عبارة (التأويل) ونعرفه فيما يلي :

التأويل في اللغة : مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع . قال في القاموس :

(١) فضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد محمد أبو شهبة رحمه الله .

(٢) الإنقان ج ٢ ص ١٧٤ .

«آل إليه الأمر أولاً وما لاً : رجع ، وعنده ارتد...» .

**وأما التأويل اصطلاحاً :** فاختار لتعريف التأويل بالنسبة لدراسة القرآن هذا التعريف وهو : «التأويل : بيان ما يرجع إليه معنى القرآن بمقتضى القواعد والنظر الدقيق»<sup>(١)</sup> .

على أنه قد يطلق «التأويل» ويراد به ما يشمل التفسير ، كما هو استعمال الإمام محمد بن جرير الطبرى في تفسيره ، فإنه يُصدّر الآية قبل الكلام عليها بقوله : «القول في تأويل قوله تعالى ... كذا... . ويدرك ما هو من التفسير ، وما هو من التأويل .

**مراتب التفسير وحكمها :**

وقد ورد في ذلك بيان عن أقدم إمام في التفسير هو رئيس المفسرين عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ، نورده بلفظه ، قال ابن عباس :

(التفسير أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يُعذر أحده بجهالته ، وتفسير تعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله) .

وهو تقسيم صحيح ودقيق<sup>(٢)</sup> :

أما التفسير الذي تعرفه العرب بلغاتها : فهو ما يرجع إلى اللسان العربي من اللغة والإعراب وعلوم العربية .

وأما التفسير الذي لا يُعذر أحد بجهالته : فهو ما يظهر للأفهام معرفة معناه من القرآن ظهوراً لا خفاء فيه .

وأما التفسير الذي يعلمه العلماء : فهو ما يرجع إلى اجتهادهم ودقة نظرهم في استنباط دقائقه من المعاني الخفية أو أوجه البلاغة المعجزة ، أو الأحكام الفقهية ، أو غير ذلك بحسب اختصاص العالم الباحث .

(١) انظر البحث في الفرق بين التأويل والتفسير في الإتقان ج ٢ ص ١٧٣ والتفسير والمفسرون ج ١ ص ١٩ - ٢٢ .

(٢) كما في البرهان والإتقان ج ٢ ص ١٨٢ .

وأما القسم الرابع : فهو ما يتعلق بحقائق المغيبات كالروح والملائكة ،  
فهذه يُفَوَّض علمها على حقيقتها إلى الله تعالى .

## أقسام التفسير من حيث منهجه العلمي

ينقسم التفسير من حيث منهجه العلمي إلى قسمين رئисين هما :  
التفسير المأثور ، والتفسير بالرأي ، نبحثهما فيما يلي :

### القسم الأول : التفسير بالمأثور

ويشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل وما نقل عن الرسول وأصحابه . أما ما ينقل عن التابعين فبعض العلماء يعتبره من المأثور وبعضهم يعتبره من التفسير بالرأي ، ولكن كتب التفسير بالمأثور قد ضمت ما نقل عن التابعين في التفسير ، ولذلك تعتبره مدرجاً في التفسير المأثور .

التفسير المأثور أول أنواع علوم القرآن تدويناً ، وكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول في هذا . ويقولون : إن أول من جمع فيه هو الإمام مالك بن أنس ، ثم انفصل التفسير عن الحديث فألفت في القرن الثاني تفاسير جمعت أقوال الصحابة والتابعين ، كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج وغير ذلك وقد جمعها ابن جرير في تفسيره الكبير .

### أسباب الضعف في التفسير المأثور :

تسرب الخلل إلى التفسير المأثور لا سيما ما كان عن الصحابة والتابعين إلى حد كاد يفقد الثقة به لو لا جهود العلماء رضي الله عنهم ، حتى قال الشافعي : «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شيء بمائة حديث» .

ونستطيع أن نُجمِّلَ أسباب الضعف في أمور ثلاثة :

أولها : دخول الإسرائييليات .

ثانياً : حذف الأسانيد .

**ثالثاً** : كثرة الوضع في التفسير .

### **السبب الأول : الإسرائيлик**

والمراد بها اللون اليهودي واللون النصراني في التفسير وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية . ومبداً دخولها في التفسير يرجع لعهد الصحابة ، غير أن الصحابة وإن تشوّقوا لمعرفة التفاصيل لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء ولم يقبلوا منهم كل شيء ، مع توقفهم فيما يُلقى إليهم ما دام يحتمل الصدق والكذب ، امثلاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبواهم وقولوا آمنا بالله »<sup>(١)</sup> . فلم يسألوهم عن شيء يتصل بالعقيدة ولم يعدلوا عما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . كذلك لا يصدقون اليهود فيما يخالف الشريعة . . .

وهكذا لم يخرج الصحابة عن دائرة الجواز التي حددتها لهم الرسول في قوله : « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عنبني إسرائيل ولا حرج ومنْ كذب علي متعمدًا فليتَبَوَّأْ مقعده من النار »<sup>(٢)</sup> . كما أنه لم يخالفوا قول رسول الله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبواهم ، وقولوا آمنا بالله وما أُنْزِلَ إِلَيْنَا » . أباح الأول أن يحدثوا عما وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب للعبرة والعظة بشرط أن يعلموا أنه ليس مكتنوباً ، والثاني يُراد منه التوقف فيما يحده به أهل الكتاب مما يكون محتملاً للصدق والكذب ، أما ما خالف شرعنا فنحن في حل من تكذبيه .

أما التابعون : فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب وكثرت في عهدهم الروايات الإسرائيلية لكثرتها من دخل منهم في الإسلام ، فظهرت في هذا العهد جماعة حشوا التفسير بكثير من القصص المتناقضة كمقاتل بن سليمان . وهكذا تزايد أمر الإسرائيليات حتى كان مجتمعه بعد عصر التابعين لا يردون قولًا ، ثم في عصر التدوين وجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذه القصص الإسرائيلية ؟ .

(١) أخرجه البخاري أيضاً : ٦ : ٢٠ - ٢١ .

(٢) أخرجه البخاري : ٤ : ١٧٠ .

## أثر الإسرائييليات في التفسير :

كان للإسرائييليات أثر سيء لأن الأمر لم يقف على ما كان في عهد الصحابة ، بل زاد ودخل فيه النوع الخيالي المختروع . فوضعوا الشوك في طريق المفسر ، إذ أنه أصبح يشك فيها جميعاً لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وتنقسم الإسرائييليات إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما يُعلم صحته بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو صحيح مقبول . وكذا إذا كان له شاهد من الشرع يؤيده .

الثاني : ما يُعلم كذبه فلا يصح قبوله ولا روایته .

الثالث : مسكت عنه لا هو من الأول ولا من الثاني ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته للحديث السابق . وهذا القسم غالبه مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني .

## موقف المفسر إزاء الإسرائييليات :

يجب أن يكون المفسر يقظاً جداً ليستخلص ما يوافق العقل ويتقيد بمقدار الضرورة . ويجب أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا وجد في سنة نبينا - صلى الله عليه وسلم - بياناً للقرآن ، ويجوز أن يذكر خلاف المتقدمين بشرط أن لا يطلقه بل يبنه على الصحيح ويزيف غيره ، لثلا يوقع القراء في الاضطراب ، على أن من الخير للمفسر كل الخير الإعراض عن هذه الإسرائييليات وأن يُمسِّك عمما لا طائل تحته مما يعد صارفاً عن القرآن وشاغلاً عن التدبر في حكمته وأحكامه .

## وأشهر الرواة للإسرائييليات :

١ - عبد الله بن سلام .

٢ - كعب الأحبار .

٣ - وهب بن منبه .

٤ - عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج .

## **السبب الثاني لضعف التفسير المأثور : حذف الإسناد :**

منذ ظهر الوضع في عصر الصحابة صاروا يسألون عن الإسناد، فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبي أو الصحابة لا يرددونه إلا بإسناد، ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير، فدون التفسير المأثور بإسناده كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، ثم جاء بعد هؤلاء أقوام ألفوا في التفسير فاختصروا الأسانيد وأهملوا عزو الأقوال لقائلها ولم يتحرروا الصحة فالتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من ينسح له قول يورده وينقل ذلك من بعده ظاناً له أصلاً، ولعل هذا أخطر الأسباب جميعاً، لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر في هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها.

## **السبب الثالث : الوضع :**

وقد كثر الوضع أي الكذب في الحديث والتفسير، وأثر الوضع بأن ضاع كثير من هذا التراث الذي خلفه لنا السلف، لأن ما أحاط به من شكوك أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرق إليها شيء من الضعف، وربما كانت صحيحة، كما أن اختلاطها جعل بعض من ليس قادراً على التمييز بين الصحيح والعليل يحكم على الجميع بالصحة.

## **وأهم المصنفات في التفسير المأثور :**

- ١ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبرى .
- ٢ - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير .
- ٣ - لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن .
- ٤ - الجوادر الحسان في تفسير القرآن ، للشعابي .

نعرف بمؤلفيها وبمناهجهم في هذه الكتب بإيجاز فيما يلي :

## **١ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبرى :** **مؤلفه :**

هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى الإمام الجامع للعلوم والمعارف والمجتهد المطلق ، ولد في آمل طبرستان (سنة ٢٢٤ هـ) واستقر به

المقام بعد أن نضج واكتمل في مدينة بغداد حتى توفي سنة ٣١٠ هـ .

وكان محمد بن جرير كما وصفه المؤرخون : أحد الأئمة الأعلام ، يُحکم بقوله ، ويرجع إليه لمعرفته وفضله ، جمع من العلوم مع التقدم والإمامية فيها ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظاً للقراءات عارفاً بها ، عارفاً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن - عالماً بالسِنن وطرقها وصحيحها وسقيمها ، وناسخها من منسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومنْ بعدهم من الخالفين في الأحكام ، وسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس والأمم وتاريخهم وأخبارهم .

وأما مؤلفاته فكثيرة وبالفوائد حافلة وغزيرة ، أشهرها تأليفه في التاريخ وتأليفه في التفسير ، حتى عد بحق شيخ المؤرخين وشيخ المفسرين .

#### طريقة الطبرى في تفسيره :

كتاب «جامع البيان في تفسير القرآن» كاسمه كتاب جامع ومرجع واسع في هذا الفن ، قد تعرض فيه مؤلفه لدراسة القرآن الكريم من جوانب متعددة من حيث اللغة والنحو والاستدراق وغير ذلك ومن حيث الرواية والمتأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين ، والترجيح بينها ، واستنباط الفوائد والأحكام ، وبيان المذاهب والأدلة ، حتى ليتمكن أن يُعتبر من مراجع التفسير بالرأي ، لما اشتمل عليه من تلك الفنون ، لكنه اعتبر من كتب التفسير بالتأثير لاعتئائه بالآثار عناء كبيرة .

وقد أجمع العلماء من الشرق والغرب على عظمة هذا الكتاب وأنه مرجع لا يُستغني عنه باحث في التفسير .

يستهل ابن جرير كلامه على الآية أو الجملة من الآية بهذه العبارة : «القول في تأويل قول الله تعالى ... كذا وكذا ... ثم بعد أن يذكر نص الآية أو الجملة يفسرها ، ويستشهد لما يقول بشواهد اللغة والأثار ، ويورد الأقوال وينقد ويناقش .

ومن أمثلة بحثه اللغوي تفسير كلمة (اسم) في (بسم الله الرحمن الرحيم)

حيث قال : «... وإنما معنى قوله «بسم الله» أبداً بتسمية الله وذكره قبل كل شيء ، أو أقرأ بتسميتي الله... ثم قال :

فإن قال (أي معترض) : فإن كان الأمر على ما وصفت فكيف قيل «بسم الله» وقد علمت أن الاسم اسم وأن التسمية مصدره<sup>(١)</sup> . قيل : إن العرب قد تخرج المصادر مبهمة على أسماء مختلفة ، كقولهم : أكرمت فلاناً كرامة ، وإنما بناء مصدر (أ فعلت) إذا أخرج على فعله (الإفعال) ، وكقولهم : أهنت فلاناً هواناً ، وكلمته كلاماً . وبناء مصدر ( فعلت) التفعيل .

ومن ذلك قول الشاعر :

أكفرأً بعد رد الموت عنِي      وبعد عطائك المائة الرتاعا

يريد إعطائك... إلى آخر ما أورده من الشواهد... .

ومن أمثلة بحثه الإعرابي ما يلي نصه من كلامه رحمه الله :

«القول في تأويل قوله : «غير المغضوب عليهم» .

قال أبو جعفر : والقراءة مجمعة على قراءة «غير» بجر الراء منها ، والخضُّ يأتيها من وجهن :

أحدهما : أن يكون «غير» صفة «الذين» ونعتاً لهم فتخفضها ، إذ كان «الذين» خفضاً ، وهي لهم نعت وصفة .

وإنما جاز أن يكون غير نعتاً لـ «الذين» و «الذين» معرفة و «غير» نكرة لأن «الذين» بصلتها ليست بالمعرفة المؤقتة<sup>(٢)</sup> كالأسماء التي هي أمارات بين الناس ، مثل زيد وعمرو وما أشبه ذلك . وإنما هي كالنكرات المجهولات مثل الرجل ، والبعير وما أشبه ذلك .

(١) المراد أن الكلمة (اسم) ليست مصدرأً وأنت فسرتها «بتسمية الله» والتسمية مصدر ، فكيف تفسر الاسم بال المصدر .

(٢) أي المعينة وهي اسم العَلَم الشخصي .

والوجه الآخر من وجهي الخفض فيها : أن يكون «الذين» بمعنى المعرفة المؤقتة .

وإذا وجه إلى ذلك كانت «غير» مخفوضة لتكثير «الصراط»<sup>(١)</sup> الذي خفض «الذين» عليها ، فكأنك قلت : صراط الذين أنعمت عليهم ، صراط غير المغضوب عليهم .

وهذان التأويلان في «غير المغضوب عليهم» وإن اختلفا في اختلاف معريهما فإنهما يتقارب معناهما...» انتهى .

ومن أمثلة استشهاده بالمؤثر أنه بعد أن فسر قوله «صراط الذين أنعمت عليهم» بأنهم مَنْ ذكرهم الله في القرآن : «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا». استشهد بالأثار فقال :

«وبنحو ما قلنا في ذلك روى الخبر عن ابن عباس وغيره :

حدثنا محمد بن العلاء حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا بشر بن عمارة قال حدثنا أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس «صراط الذين أنعمت عليهم» يقول : طريق مَنْ أنعمت عليهم بطاعتكم وعبادتك من الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين أطاعوك وعبدوك .

حدثني أحمد بن حازم الغفاري قال أخبرنا عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن ربيع قال «صراط الذين أنعمت عليهم» قال : النبيون .

حدثني القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس : «أنعمت عليهم» قال : المؤمنين . . .

حدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال قال عبد الرحمن بن زيد في قول الله «صراط الذين أنعمت عليهم» قال : النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه انتهى .

(١) يريد أن تكون (غير) بدلاً كما سيتضح لك من تفسير الجملة على هذا الوجه .

ويمتاز عمل ابن جرير في التفسير بالتأثير أنه يورد الروايات بأسانيدها ، لكنه وقد التزم هذا الأسلوب لم يتلزم الصحة فيما يورده ، كما أنه قلماً يعقب على الروايات بتصحيح أو تضعيف ، وذلك لأنه كان يرى - فيما يبدو - أن من أسنده فقد حمله البحث عن رجال السنن ودرسه ، وكان عصره عصر العلم بهذا الفن يسهل على طالب العلم معرفة حال الروايات أسانيد ومتوناً ، فاعلم ذلك ورعاه .

## ٢ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير :

هو الإمام المحدث الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصيري ثم الدمشقي ، الفقيه والمفسر والمؤرخ ولد نحو سنة (٧٠٠ هـ) وتوفي سنة (٧٧٤ هـ) وكان أبو الفداء إسماعيل بن كثير على مبلغ عظيم من العلم الذي تجلّى في تفسيره ، وتاريخه (البداية والنهاية) حتى ليتمكن أن يقول : «إنه منقح التفسير ، ومحقق التاريخ» .

قال عنه الذهبي في المعجم المختص : «الإمام المفتى المحدث البارع ، فقيه متقن ، محدث متقن مفسر نقال ، وله تصانيف مفيدة» .

وقال ابن حبيب فيه : «زعيم أرباب التأويل ، سمع وجامع وصنف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف ، وحدث وأفاد ، وطارت أوراق فتاواه في البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والتفسير» .

## طريقة هذا التفسير :

اتبع الإمام ابن كثير في تفسيره هذا طريقة نبه عليها في مقدمته القيمة التي صدر بها لتفسيره بأن يفسر القرآن بالقرآن ، ثم يفسر القرآن بالسنة ، ثم بالأثار عن الصحابة والتابعين . وقد أتى في ذلك بغير تفاسير ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، ومصادر السنة مع العزو إلى كل مصدر ، وذكر إسناده غالباً .

على أنه يعني كذلك باللغة عند الحاجة لذلك ، ويدعم تفسيره المنقول

بذلك ، ويمتاز تفسيره بالانتقاء لمادة الكتاب ، وأنه كثيراً ما ينقد الرواية والروايات ويصحح ويضعف ، ويجرح ويعدل ، وينبه إلى ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات ويحذر منها .

ومن الأمثلة من هذا التفسير تفسيره لقوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حِيثُ أَفَاضُ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قال ابن كثير (ثم) هاهنا عطف خبر على خبر وترتيبه عليه كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام ، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات ، كما كان جمهور الناس يصنعون ، يقفون بها إلا قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته .

وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن حازم حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت : «كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ثم يُفِيض منها ، فذلك قوله : ﴿مِنْ حِيثُ أَفَاضُ النَّاسُ﴾ .

وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة ، والسدي ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع ، رحمة الله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : أصللتُ بعيراً لي بعرفة ، فذهبت أطلب ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم واقف ، قلتُ : إن هذا من الحمس ما شأنه هاهنا ؟ أخرجاه في الصحيحين . . . .

والكتاب مطبوع طبعات متعددة أحسنتها تحقيق عبد العزيز غنيم وزملائه .

٣- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن :  
وهو العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الشيشي

البغدادي الشافعي الصوفي ، عُرف بالخازن ، لأنه كان خازن كتب خانقه السميسياطية بدمشق .

ولد بيغداد سنة ٦٧٨ هـ وسمع من علمائها ثم قدم دمشق وتلقى فيها العلم حتى تمكن ، فاشتغل بنشر العلم والتأليف وكانت له مؤلفات كبيرة وكثيرة ، أشهرها كتابه في التفسير ، وتوفي سنة ٧٤١ هـ .

طريقة هذا التفسير :

اختصر الخازن تفسيره هذا من تفاسير من سبقه ولا سيما تفسير «معالم التنزيل» للبغوي ، فكان عمله فيه كما ذكر في مقدمته النقل والانتخاب ، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب .

وعني فيه بتأريخ الأحاديث النبوية من الصحيحين والسنن الأربعية وغيرها وشرح غريب الأحاديث التي يوردها ، وهو في الواقع يكثر من التفسير المأثور ، مما جعلنا نضمه إلى هذه الزمرة خلافاً لما صنعه بعض الكاتبين حيث صنفه ضمن كتب التفسير بالرأي ، وكأنه اغتر بعنوان «باب التأويل» .

وقد عُرف هذا التفسير بتوسيعه في رواية الإسرائيлик وأخبار الأمم الماضية وأخبار التاريخية ، حتى جعله هذا التوسيع يورد أموراً مما لا يسلم أمام النقد العلمي .

لكن للخازن طريقة خاصة في إيراد هذه الروايات ، هي أنه يصدرها بلفظ يشعر بعدم جزمه بها ، مثل (يروى) أو (روى) أو (عن فلان) ، وما أشبه ذلك من عبارات ، وهو أسلوب اصطلاح عليه العلماء رمزاً إلى أن ما صدر بمثل هذه الصيغ فهو ضعيف أو مشكوك فيه ، وهذا يتبع فرصة حسن الإفادة منه لمن أوتي حظاً من التيقظ والتنبه .

#### ٤ - الجوادر الحسان في تفسير القرآن للشعالي:

هو الإمام العالم المحقق أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الشعالي ، الجزائري ، المالكي ، المتوفى سنة ٨٧٦ هـ عن عمر يقارب تسعين سنة ودُفن في الجزائر رحمه الله ورضي عنه .

كان الثعالبي من كبار العلماء العاملين ورعاً زاهداً : معرضًا عن الدنيا وكان إماماً علاماً مصنفاً ، صنف كتاباً كثيرة نافعة منها : «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» الذي نحن بصدده .

طريقة الثعالبي في تفسيره :

نستطيع أن نعتبر تفسير الثعالبي صفة متتبعة ومستخلصة من مصادر كثيرة في هذا الفن ، وقد ذكر في ديباجة هذا التفسير أنه جمعه من كتب الأئمة ، وثقات أعلام هذه الأمة ، وذلك قريب من مائة تأليف ، ما فيها تأليف إلا وهو إمام مشهور بالدين ومعدود في المحققين .

وقد اشتمل الكتاب بهذا على فوائد هامة نظراً لقوله الكثيرة عن مصادر مفقودة ، كما أنه يمتاز بوضوح العبارة وسلامة الأسلوب ، مع احتياطه في شأن الاسرائيليات .

وهذا مثال منه من تفسيره لبعض قصار سور وهي سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ :

قال الثعالبي ما نصه : «روي في سبب نزول هذه السورة عن ابن عباس وغيره أن جماعة من صناديد قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : دع ما أنت فيه ونحن نمولك ونملك علينا ، وإن لم تفعل هذا فلتعبد آلهتنا ، ونعبد آلهك حتى نشتراك ، فحيث كان الخير نلناه جميعاً .

وروى أن هذه الجماعة المذكورة هم : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، وأمية بن خلف ، وأبي بن خلف ، وأبو جهل وأبناء الحجاج ، ونظراً لهم من لم يكتب له الإسلام وحتم بشقاوته . فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر الله عز وجل أنه لا يعبد ما يعبدون وأنهم غير عابدي ما يعبد . ولما كان قوله : لا أعبد ، محتملاً أن يراد به الآن وبقى المستأنف متظراً ما يكون فيه من عبادته «جاء البيان بقوله : ﴿ولَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُم﴾ أي أبداً ثم جاء قوله : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبَدْتُ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً ، كالذي كشف الغيب... إلى آخر ما ذكر .

## القسم الثاني من أقسام التفسير التفسير بالرأي

معنى التفسير بالرأي : هو تفسير القرآن بالاجتهد اعتماداً على الأدوات التي يحتاج إليها المفسّر .

وقد اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي : فقوم تشددوا ولم يبيحوا تفسير شيء من القرآن ما لم يرد فيه أثر من المرفوع أو الموقوف ، وقوم لم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهدهم .

وقد استدل المانعون بما يلي :

أولاً : التفسير بالرأي قول على الله بغير علم ، وذلك منهى عنه لقوله تعالى : «وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» . والقول بالظن قول على الله بغير علم كذلك .

وقد رد المجizzون هذا الدليل بمنع دلالته لأن الظن نوع من العلم ، إذ هو إدراك الطرف الراجح وعلى تسليمها نمنع الاستدلال الآخر لأن الظن منهى عنه إذا أمكن العلم اليقيني القطعي بأن يوجد نص شرعي قاطع أو دليل عقلي موصل لذلك .

ثانياً : قال الله تعالى : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزَّلَ إِلَيْهِمْ» ، فقد أضاف بيان القرآن إليه فعلم أن ليس لغيره شيء من ذلك . وأجيبي بأن النبي لم يُبيّن كل شيء ، وقد اكتفينا ببيانه فيما بيّنه ، وما لم يرِد بيانه عنه فيه اجتهد أهل العلم كما قال في آخر الآية : «وَلَعَلَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» .

ثالثاً : استدلوا بما ورد في السنة المروعة ، ك الحديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : «اتقوا الحديث يعني إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» . حديث حسن .

وحدث جندي : عن النبي صلى الله عليه وسلم : «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ  
بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقْدَ أَخْطَأَ». .

وقد أجب بأن النهي محمول على من قال برأيه فيما لا يعلم إلا عن طريق النقل وأنه أراد بالرأي الذي يغلب على صاحبه من غير دليل يقوم عليه ، فيتناول من يعرف الحق لكنه يميل إلى رأي من طبعه وهواء فيتأول القرآن وفق هواء ، ويتناول من كان جاهلاً فيحمل الآية على ميله وهواء ، ويتناول من يستدل بالقرآن على غرض صحيح غير مقصود به ما أراد ، كمن يستدل بـ«إذهب إلى فرعون إنه طغى» على مجاهدة النفس بحمل فرعون على النفس .

وأجيب أيضاً بحمل النهي على من يقول في القرآن بظاهر العربية دون رجوع لما يجب معرفته على من يتكلم في التفسير . على أن حديث جندي ضعيف ، فيه : سهل بن أبي حزم وهو ضعيف متكلم فيه<sup>(١)</sup> .

واستدل الفريق الثاني وهم الجمهور على جواز التفسير بالرأي بما يأتي :

أولاً : بنصوص كثيرة وردت في القرآن نحو «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ  
قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا» «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليذربوا آياته وليتذكر أولو  
الألباب». فقد حث سبحانه على تدبر القرآن ، بل وبخ الذين لا يتذربونه .

ثانياً : لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً ، وهذا باطل بين البطلان .

ثالثاً : ثبت أن الصحابة قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره ، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم ، بل توصلوا إلى معرفة البعض بعقولهم ، ولو كان التفسير بالرأي محظوراً لما فعلته الصحابة .

---

(١) راجع مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٣١ - ٣٩ ومقدمة التفسير للراغب الأصفهاني ص ٤٢٢ .

رابعاً : استدلوا بدعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» . فلو كان التأويل مقصوراً على السمع والنقل لما كانت فائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء<sup>(١)</sup> .

### التحقيق في الموضوع :

لو عرفنا سر المتشددين في التفسير ووقفنا على شروط تفسير القرآن بالرأي عند المجوزين للتفسير بالرأي لظهر لنا أن الخلاف لفظي لا حقيقي ، وذلك لأن الرأي قسمان :

قسم جار على كلام العرب مع مراعاةسائر شروط التفسير وهو جائز لا شك فيه .

وقسم غير جار على قوانين العربية أو لا يوافق الأدلة الشرعية أو غير مستوف لشروط التفسير ، وهذا هو مورد النهي ، وهو مراد ابن مسعود بقوله : «ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم وإياكم والتبدع وإياكم والتنطع» ، وقال عمر بن الخطاب : «إنما أخاف عليكم رجالين : رجل يتأنى القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه» . وهذا هو الذي يُفسّر عليه كلام المانعين للتفسير بالرأي .

قال ابن تيمية : «فهذه الآثار الصحيحة عن السلف ، وما شاكلها محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً ، فلا حرج عليه ولهذا رُويَ عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموا ، وسكتوا عما جهلوا ، وهذا هو الواجب على كل أحد...».

العلوم التي يحتاج إليها المفسر :  
والممكن منها شرط أساسى للباحث في التفسير ، وهي :  
١ - علم اللغة .

(١) انظر هذه وغيرها في المرجعين السابقين والموافقات للشاطبي ج ٣ ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

- ٢ - علم النحو والصرف والاشتقاق .
- ٣ - علوم البلاغة .
- ٤ - علم القراءات .
- ٥ - علم أصول الدين .
- ٦ - أصول الفقه .
- ٧ - الأحاديث المبينة للتفسير ، مثل أسباب التزول ، والناسخ والمنسوخ ، أو ما فيه بيان لتفسير المجمل أو المبهم . . .
- ٨ - علم القصص .
- ٩ - علم الموهبة ، وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم ، كما ورد في الحديث وقد اختلف العلماء في سرد هذه العلوم إسهاماً وإيجاباً .
- ١٠ - الإمام بُشَّارُ الْمَنَارِ كلامه يحسن الرجوع إليها تتميماً للفائدة .

**أهم كتب التفسير بالرأي :**

- ١ - الكشاف ، للزمخشري .
  - ٢ - أنوار التزيل وحقائق التأويل ، للبيضاوي .
  - ٣ - مدارك التزيل وحقائق التأويل ، للنسفي .
  - ٤ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي .
  - ٥ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، للآلوسى .
- نتكلم عنها باختصار فيما يلي (١) :

**١ - الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقاویل في وجوه التأويل ،**  
**للزمخشري :**  
 وهو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي المعتزلي ،  
 الملقب بجبار الله ، لإقامة بمكة ومجاورة بها .

---

(١) ونرجو من يدرس الموضوع أن يرجع إلى هذه الكتب نفسها في ضوء دراستنا الموجزة  
 للاستزادة من فهمها .

ولد سنة ٤٦٧ في زمخشر من قرى خوارزم وتوفي في جرجانية خوارزم سنة ٥٣٨ . وحاز الزمخشري في العلوم القدم الراسخ ، ولا سيما علوم اللغة العربية ، وبلاعثها ، وعلوم التوحيد والجدل على طريقة المعتزلة ومذهبهم ، وكان مستعلناً بتأييد المعتزلة ، يفخر بانتماهه إليهم ويتعصب لهم تعصباً شديداً .

### طريقته في تفسير الكشاف :

- ١ - غالب عليه إظهار ثروة القرآن البلاغية التي لها أثر كبير في عجز العرب عن معارضته وقد تأثر بهذه الطريقة جميع المفسرين الذين جاؤوا بعده ، ولذلك امتاز تفسير أهل المشرق على أهل الأندلس بهذا الفن في التفسير .
- ٢ - يتعرض بدون توسيع إلى المسائل الفقهية التي تتعلق ببعض الآيات باعتدال ، ودون تعصب لمذهب الحنفي ، انظر تفسيره «ويسألونك عن المحيسن...» و «يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء فطلقوهن...» .
- ٣ - يقل من الروايات الإسرائيلية ، وما يذكر منها يُصرّه بلفظ «رُويَ» المشعر بالضعف ، أو يفوض علمها إلى الله ، وهذا غالباً فيما لا مساس له بالدين ، وأحياناً ينبه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف .
- ٤ - انتصاره لمذهب : مثل اهتمامه بأية : «وَمَنْ يَقْتَلْ مُؤْمِنًا مَتَعْمِدًا» في الاستدلال على خلود أهل الكبائر في النار ، كما هو مذهب المعتزلة .

### ٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للبيضاوي :

وهو قاضي القضاة : ناصر الدين أبو الحسن عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، البيضاوي الشافعي ، من بلاد فارس . قال فيه ابن قاضي شهبة : «صاحب المصنفات ، وعالم أذربيجان ، ولـي قضاء شيراز». توفي ٦٩١ هـ .

### التعریف بالتفسیر وطريقته :

تفسير العلامة البيضاوي : متوسط الحجم جمع التفسير والتأويل ، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة .

اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري ، وترك ما فيه من الاعتراضات وأحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف وبعض المفسرين

كأن يذكر في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها . وليتهم لم يفعلوا ذلك ، لأن الحديث المروي في فضل سور القرآن سورة موضوع كما بين المحدثون<sup>(١)</sup> .

كما استمد تفسيره من التفسير الكبير المسمى : بمفاتيح الغيب للفخر الرازي ، ومن تفسير الراغب الأصفهاني ، وضمَّ لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ، غير أنه أعمل فيه عقله فضمنه استنباطات بلاغية دقيقة ، في أسلوب رائع موجز ، ويورد أحياناً القراءات ولا يلتزم المتواتر منها ، ويعرض للصناعة النحوية وي تعرض لبعض المسائل الفقهية بدون توسيع .

وكثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقاط التزاع بينهم مع ترجيح لمذهب أهل السنة .

وهو يقل من الروايات الإسرائيلية ويصدر روايتها بـ «رويَ» أو «قيل» إشعاراً منه بضعفها ويقف موقف الموجز لها غير القاطع بصحتها .

ثم إذا عرض للآيات الكونية فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة مماثلاً لطريقة الفخر الرازي في التفسير ، وبذلك كله كان من أهمات الكتب في التفسير التي لا يُستغنى عنها .

### ٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل : للنسفي :

وهو أبو البركات ، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي ، أحد الزهاد ، والأئمة المعتبرين ، صاحب التصانيف المعتبرة في الفقه والأصول وغيرهما ، منها متن الوافي في الفروع ، والمنار في أصول الفقه ، والعمدة في أصول الدين ، وكذا تفسيره مدارك التنزيل وحقائق التأويل . وغير ذلك من المؤلفات التي تداولها العلماء دراسة وبحثاً ، وهذا لا يستكثرون عليه لفقهه على شمس الأئمة الكردي ، وأحمد بن محمد الذي روى عنه الزيادات توفي

سنة ٧٠١ هـ .

(١) راجع كتابنا «منهج النقد في علوم الحديث» ، وفيه بيان ما صح في فضائل السور بإيجاز صر ٣١٠ - ٣١١ .

طريقة هذا التفسير :

اختصر التفسير من تفسير البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري وغيرهما ،  
غير أنه ترك الاعتزالات وجرى فيه على مذهب أهل السنة ، ومما يمتاز به :

- ١ - أنه جمع فيه بين وجوه الإعراب والقراءات غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيراً ولا يزج بالتفاصيل النحوية في تفسيره .
- ٢ - وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع مع نسبة كل قراءة إلى قارئها وهي مزية هامة لهذا التفسير .
- ٣ - عُني بكشف وجوه البلاغة وأساليب الأداء في القرآن بعبارات موجزة مفيدة جداً .
- ٤ - عند آيات الأحكام يعرض للمذاهب الفقهية التي لها تعلق وارتباط بالأية ويوجه الأقوال بدون توسيع .
- ٥ - يقل من ذكر الإسرائييليات كثيراً وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحياناً وأحياناً يتعقبه ولا يرتضيه ويرى أن كل ما يمس العقيدة من هذه القصص يجب التنبيه على عدم صحته وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روایته بدون تعقيب عليه ما دام يحتمل الصدق والكذب في ذاته ولا يتنافي مع العقل أو يتصادم مع الشرع .

إذن فهو موجز العبارة سهل المأخذ غزير الفائدة ، مما جعله مرجعاً مهماً في التفسير للدارسين متداولاً بين أهل العلم .

٤ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لأبي السعود :  
وهو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى ، العمادي الحنفي ،  
المولود سنة ٨٩٣ هـ من بيت عرف بالعلم ، قرأ كثيراً من العلوم على والده  
وتتلمذ على أجيال العلماء وتولى التدريس وقلد قضاء «بروسة» ثم القسطنطينية ،  
ثم تولى أمر الفتوى الذي طال ثلاثين سنة ، أظهر فيه الدقة العلمية التامة  
والبراعة ، وكان يكتب جواب الفتوى على منوال ما يكتب له السؤال منظوماً مع

الاتفاق في الوزن والقافية أو نثراً عربياً أو تركياً ، وكانت أعماله هذه عائقاً عن التفرغ للتصنيف والتأليف . توفي سنة ٩٨٢ هـ .

### التعريف بهذا التفسير :

اختلس فرضاً من وقته وألف تفسيره فيها مما جعل تأليفه لهذا التفسير غاية في بابه ، فقد أتى فيه صاحبه من الفوائد بما لم يسبق إليه أحد ، فذاعت شهرته بين أهل العلم ، وصار يقال له : خطيب المفسرين . حيث اعتمد فيه على تفسير الكشاف والبيضاوي جارياً على مذهب أهل السنة في تفسيره متجنباً للاعتزالات ومحدراً منها .

### عناته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر إعجازه :

يهم أبو السعود بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه وبخاصة في الوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير والاعتراض والتذليل كما يهم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها ، فهو أول المفسرين في هذه الناحية ، ما مع تفرد به من فوائد بلاغية ليست في غيره من كتب التفسير ، ولم يسبق إليه أحد .

ويجد القارئ أنه مقل في سرد الإسرائيليات غير مولع بذكرها يصدرها بـ «روى وقيل» مما يُشعر بضعفها إذا ذكرها ومع ذلك فلم يعقب عليها بكلمة واحدة ، وكأنه فعل ذلك لأنه تحاشى ما يجب رده منها .

ويهم أبو السعود بإبداء وجوه المناسبات بين الآيات ويعرض كذلك للقراءات بقدر ما يوضح به من المعنى دون توسيع ، لكن لا يلتزم المتواتر . ويعرض أبو السعود في تفسيره لبعض المسائل الفقهية لكنه مقل جداً ولا يكاد يدخل في المناقشات الفقهية والأدلة المذهبية بل يسرد المذاهب في الآية .

ونلحظ أنه يعرض للناحية النحوية : إذا كانت الآية تحتمل أوجهًا من الإعراب ويرجع واحداً منها ويدلل على رجحانه . كما يعرض لاحتمالات الآية من المعاني ويرجع بينها بنظر دقيق ، وتحقيق عميق .

فالكتاب دقيق بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن النواحي العلمية وهو مرجع ضروري يعتمد عليه المفسرون .

٥ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للآلوزي :  
وهو أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ و كان شيخ العلماء في العراق . أكثر من العلوم حتى أصبح عالمة المنقول والمعقول فهامة في الفروع والأصول . أخذ عن فحول العلماء . منهم والده العلامة الشيخ خالد نقشبendi ، والشيخ علي السويدي ، اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلات عشرة سنة ، و قدّ إفتاء الحنفية وتلمذ له خلق كثير ، كان عالماً باختلاف المذاهب خلف ثروة علمية كبيرة .

طريقة هذا التفسير :

تفسير روح المعاني جامع لأراء السلف روایة و درایة شامل لخلاصة ما سبقه من التفاسير ، ينقل عن تفسير أبي السعود ويعبر عنه بقوله : « قال شيخ الإسلام » ، وعن البيضاوي بقوله : « القاضي » ، وعن الفخر الرازي بقوله : « الإمام » . ويقف حكماً عدلاً بين المراجع ، وناقداً مدققاً ، ثم يبدي رأيه حرّاً .

ويمكن تلخيص طريقة فيما يلي :

- ١ - إنه يستطرد إلى الكلام في الأمور الكونية ، ويقر منه ما يرتضيه ويقند ما لا يرتضيه .
- ٢ - يستطرد إلى الكلام في الصناعة النحوية ويتسع حتى يكاد يخرج به عن وصف كونه مفسراً .
- ٣ - يتكلم عن آيات الأحكام ويستوفي مذاهب الفقهاء وأدلةهم ، مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه .

٤ - يعني بخلاف ثروة القرآن البلاغية ، ويتسع في ذلك بإفاضة بالغة .  
٥ - أما الإسرائييليات : فهو شديد النقد للإسرائييليات والأخبار المكذوبة التي

- ذكرها كثير من المفسرين ، وظنواها صحيحة ، مع سخرية منهم أحياناً .
- ٦ - يعرض الآلوسي لذكر القراءات ، متواترة وغير متواترة .
- ٧ - يعتني بإظهار أوجه المناسبات بين السور مع بعضها ، وبين الآيات مع بعضها . وهذا فن عميق ومهم لفهم بلاغة القرآن .
- ٨ - يعتني ببيان أسباب التزول .
- ٩ - يكثر الاستشهاد بأشعار العرب على ما يذهب إليه من المعاني اللغوية .
- ١٠ - يتكلم الآلوسي عن التفسير الإشاري بعد أن يفرغ من الكلام على كل ما يتعلق بظاهر الآيات ، لذا عد بعض العلماء تفسيره وتفسير النيسابوري ضمن كتب التفسير الإشاري .

لكن الصواب أن يُعداً في ضمن كتب التفسير المنهجي ، لما أنه لم يكن مقصودهما الأهم هو التفسير الإشاري ، بل كان تابعاً لغيره من التفسير الظاهر .

وهكذا نجد «روح المعاني» موسوعة تفسيرية قيمة جمعت كل ما قال علماء التفسير ، مع النقد الحر ، والترجح الذي يعتمد على قوة الذهن ، وإن كان يتسع في نواح علمية مختلفة ، إلا أنه متزن في كل ما يتكلم به ، مما يشهد له بالإحاطة والعمق فيما أتى به في تفسيره هذا .

#### شروط المفسر والقواعد التي يحتاج إليها :

إن النقاش الذي سبق في التفسير بالرأي يفيد أموراً هي شروط وقواعد على غاية من الأهمية تتعلق بالاحتياط في التفسير بالرأي<sup>(١)</sup> ، نعرضها موجزة فيما يلي :

**أولاً :** التحفظ من القول في كتاب الله تعالى إلا على بيّنة ، باستيفاء العلوم التي ذكرناها . فإن الناس في العلم بالأدوات المحتاج إليها في التفسير على ثلاث طبقات :

**إحداها :** مَنْ بَلَغَ فِي ذَلِكَ مَبْلَغَ الرَّاسِخِينَ ، كالصحابه والتابعين ومن يليهم ، وهؤلاء قالوا في التفسير برأيهم مع التوقي والتحفظ ، والهيبة والخوف

---

(١) وقد نبه الإمام الشاطبي عليها في المواقفات ج ٣ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

من الهجوم ، فنحن أولى منهم إن ظتنا بأنفسنا أنا في العلم والفهم مثلهم . وهيهات .

الثانية : مَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يَلْعَمْ مِنْ بَالْغَهْمِ وَلَا دَانَاهُمْ ، فَهَذَا طَرْفٌ لَا إِشْكَالٌ فِي تَحْرِيمِ ذَلِكَ عَلَيْهِ . وَسَبِيلُهُ أَنْ يَأْخُذْ تَفْسِيرًا يُدْرِسُهُ بِمَرْاجِعِ الْعُلَمَاءِ .

الثالثة : مَنْ شَكَ فِي بَلوْغِهِ مَبْلَغُ أَهْلِ الْإِجْتِهادِ أَوْ ظَنَّ ذَلِكَ فِي بَعْضِ عِلْمَهُ دُونَ بَعْضٍ . فَهَذَا أَيْضًا دَاخِلٌ تَحْتَ حَكْمِ الْمَنْعِ مِنَ الْقَوْلِ فِيهِ ، لِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ الْعِلْمِ ، فَعِنْدَمَا يَبْقَى لَهُ شَكٌ أَوْ تَرْدُدٌ فِي الدُّخُولِ مَدْخُولُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ فَإِنْسَحَابُ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ بَاقٌ بِلَا إِشْكَالٍ . وَكُلُّ أَحَدٍ فَقِيهٍ نَفْسُهُ فِي هَذَا الْمَجَالِ ، وَرِبِّمَا تَعْدِي بَعْضُ أَصْحَابِ هَذِهِ الْطَّبَقَةِ طُورَهُ ، فَحَسِنَ ظَنُّهُ بِنَفْسِهِ ، وَدَخَلَ فِي الْكَلَامِ فِيهِ مَعَ الرَّاسِخِينَ . وَمِنْ هَنَا افْتَرَقَتِ الْفَرَقُ ، وَتَبَيَّنَتِ النَّحْلُ ، وَظَهَرَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْخَلْلُ .

ثَانِيًّا : يَبْغِي عَلَى النَّاظِرِ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يَعْتَمِدَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَنْ تَقْدِيمُهُ ، وَلِهِ فِي ذَلِكَ سُعَةٌ إِلَّا فِيمَا لَا بُدُّ لَهُ مِنْهُ وَعَلَى حَكْمِ الْمُضْرُورَةِ ، وَمَا زَالَ السَّلْفُ الصَّالِحُ يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ الْمُحَظَّرَ فِيهِ شَدِيدٌ جَدًّا ، وَهُوَ خَوْفُ التَّقْوِيلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .

ثَالِثًا : أَنْ يَكُونَ عَلَى بَالِ النَّاظِرِ وَالْمُفْسِرِ وَالْمُتَكَلِّمِ عَلَى الْقُرْآنِ أَنْ مَا يَقُولُهُ مِنْ التَّفْسِيرِ هُوَ قَوْلٌ بِلْسَانِ بِيَانِهِ : هَذَا مَرَادُ اللَّهِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، فَلَيَشْبَتِ أَنْ يَسْأَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ أَنِّي قَلَتْ عَنِي هَذَا؟ فَلَا يَصْحُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِبَيَانِ الشَّوَاهِدِ وَإِلَّا كَانَ بَاطِلًا ، وَدَخَلَ صَاحِبُهُ تَحْتَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ الْوَارِدِ فِي أَهْلِ الرَّأْيِ الْمَذْمُومِ .

وَلَذِكَ احْتَاطَ السَّلْفُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْقُرْآنِ أَيْمًا احْتِيَاطًا ، مَعَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ .

عَنْ مَسْرُوقِ الْهَمْدَانِيِّ قَالَ : «اتَّقُوا التَّفْسِيرَ ، فَإِنَّمَا هُوَ الرِّوَايَةُ عَنِ اللَّهِ» .

وَعَنْ إِبْرَاهِيمِ النَّخْعَنِيِّ قَالَ : «كَانَ أَصْحَابُنَا يَتَقَوَّنُ التَّفْسِيرَ وَيَهَا بُونَهُ» .

وَهَذَا الأَصْمَعِيُّ وَجَلَالُهُ فِي عِلْمِ الْلُّغَةِ وَإِمامُهُ مَعْرُوفٌ قَدْ نُقلَ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَفْسِرْ قَطْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَإِذَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ لَمْ يَجِدْ .

وعن سعيد بن المسيب وهو سيد التابعين وأحد الفقهاء الأئمة السبعة أنه  
كان إذا سُئل عن شيء من القرآن قال : «أنا لا أقول في القرآن شيئاً» .  
وسأله رجل ابن عباس عن قوله تعالى : «في يوم كان مقداره خمسين  
ألف سنة» فقال له ابن عباس : فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال  
الرجل : إنما سألك لتحدثني ! فقال ابن عباس : «هذا يوم ذكرهما الله في  
كتابه ، الله أعلم بهما . نكره أن نقول في كتاب الله ما لا نعلم»<sup>(١)</sup> .

رابعاً : من واجبات المفسر أيضاً إضافة لما ذكرنا واجب هام ، وهو أن  
يلاحظ المنهجية في كلامه في التفسير ، وقد أوضح السيوطي ذلك فقال<sup>(٢)</sup> :

قال العلماء : يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسّر ،  
وأن يتحرز في ذلك من نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى ، أو زيادة لا  
تليق بالغرض ، ومن كون المفسّر فيه ميل عن المعنى وعدول عن طريقه ،  
وعليه بمراعاة المعنى الحقيقى والمجازى ، ومراعاة التأليف ، والغرض الذى  
سيق له الكلام ، وأن يؤاخى بين المفردات . وأن يتصرف بالعدل والإنصاف في  
بحثه ، فذلك أساس في البحث العلمي وفي التفسير خاصة .

خامساً : خطة التفسير : يجب على المفسّر «البداعة بالعلوم اللفظية ،  
وأول ما يجب البداعة به منها تحقيق الألفاظ المفردة ، فيتكلّم عليها من جهة  
اللغة ثم التصريف ، ثم الاستدراق ، ثم يتكلّم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ  
بالإعراب ، ثم بما يتعلق بعلم المعانى ، ثم البيان ، ثم البديع ، ثم يبين  
المعنى المراد ، ثم الاستنباط ، ثم الإشارة»<sup>(٣)</sup> .

وقد أصبح التفسير الذي يعني بالدقة والعمق في استعمال العلوم التي  
يحتاج إليها المفسّر وخصوصاً اللغوية والبلاغية أصبح يسمى في اصطلاح  
المعاصرين «التفسير التحليلي» . والعمدة فيه مصادر التفسير بالرأي  
الأمهات ، فاعتن بها .

\* \* \*

(١) الأثر عن سعيد بن المسيب وابن عباس في المواقف ج ٣ ص ٤٢٢ .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٨٥ .

(٣) الموضع السابق . وانظر ما يأتي في التفسير الإشاري .

## الفصل التاسع

### التفسير الإشاري

ويسمى أيضاً التفسير الصوفي ، لكننا نؤثر التسمية الأولى ، لما فيها من الدلالة على الانضباط ، بقواعد ، بما يشبه ما يسمى «إشارة النص» عند الأصوليين .

تعريفه :

التفسير الإشاري : هو تأويل آيات القرآن الكريم على معنى غير ما يظهر منها ، بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة<sup>(١)</sup> .

وهذا الشرط الأخير وهو «أن يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر» هام جداً ، لأنه يفيد انضباط التفسير بما يحتمله كلام العرب ، الذي نزل به القرآن ، ويجب فهمه على وفق كلام العرب ، كما يفيد الالتزام بالمعنى الظاهري الأصلي المراد من كلام الله تعالى .

الأصل فيه :

وعلى هذا الأساس فإن التفسير الإشاري ليس جديداً في إبراز معاني القرآن ، بل هو معروف ، قد فسر به الصحابة من غير نكير .

أخرج البخاري<sup>(٢)</sup> عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال : «كان

(١) التفسير والمفسرون ج ٣ ص ١٨ بتصرف . وفيه قوله : «خلاف ما يظهر» . وما قلناه أولى ، لأنه يبعد معنى التعارض .

(٢) في كتاب التفسير «إذا جاء نصر الله» ج ٦ ص ١٧٩ .

عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد<sup>(١)</sup> في نفسه فقال : لِمَ تُدْخِلُ  
هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ . فقال عمر : إنه من حيث علمتم .

فدعوا ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليُرِيهُمْ .

قال : ما تقولون في قوله تعالى : «إِذَا جاء نصر اللَّهُ وَالْفُتْحُ»<sup>(٢)</sup> ؟ . فقال بعضهم :  
أَمْرَنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتَحَ عَلَيْنَا . وَسَكَتَ بعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا .

قال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ . قلت : لا . قال : فما  
تقول ؟ . قلت : هو أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمُهُ لَهُ : قال : إذا  
جاء نصر اللَّهُ وَالْفُتْحُ وَذَلِكَ عَلَمَةُ أَجْلِكَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ  
كَانَ تَوَابًا . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » .

#### شروط التفسير الإشاري :

لما كان التفسير الإشاري إثارة لمعاني كتاب الله تعالى ، كان لا بد له من  
معايير ينضبط به ، حتى يتميز عن عبث المتلاغبين بالقرآن تحت ستار اسم باطن  
القرآن ، وهم لا يفسرون القرآن على الحقيقة بل يتلاعبون لهدم الشريعة باسم  
الشريعة .

والمعيار الذي ينضبط به التفسير الإشاري ليكون مقبولاً هو الشروط  
الآتية :

١ - أن يكون له شاهد شرعي يؤيده من غير معارض . وذلك لأنه إن لم  
يكن للتفسير الإشاري شاهد في محل آخر ، أو كان له شاهد لكن له معارض  
صار دعوى تُدعى على القرآن من غير دليل . والدعوى التي لا دليل عليها  
مرفوضة باتفاق العلماء<sup>(٢)</sup> .

٢ - أن يصح التفسير الإشاري على مقتضى الظاهر المقرر في لسان  
العرب ، وذلك ضرورة كون القرآن عربياً ، «إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنَكُمْ عَرَبِيًّا» ، ولو كان

(١) أي عتب .

(٢) المواقف للشاطبي ج ٣ ص ٣٩٤ .

له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربياً ، بل يدخل قائله تحت  
وعيد من قال في كتاب الله بغير علم .

٣ - أن لا يكون له معارض شرعي ولا عقلي . لما عُلِمَ مما سبق .

٤ - أن لا يُدْعَى أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر ، بل  
لا بد أن نعرف بالمعنى الظاهر أولاً ، إذ لا يُطمع في الوصول إلى الإشارة قبل  
إحكام فهم العبارة ، «وَمَنْ ادْعَى فَهْمَ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ وَلَمْ يُحْكِمْ التَّفْسِيرَ الظَّاهِرَ  
فَهُوَ كَمَنِ ادْعَى الْبُلوغَ إِلَى صَدْرِ الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يَجُازِ الْبَابَ !!»<sup>(١)</sup> .

ومن أمثلة ما احتل فيه بعض هذه الشروط : كمن فسر قوله تعالى : «مَنْ  
ذَا الَّذِي يُشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» . فقال : معناه : «من ذلٌّ من الذل ، إشارة إلى  
النفس «يُشْفَع» من الشفاء «عُ» أمر من الوعي .

ومن أمثلة ما وقفتنا عليه في هذا العصر في أملية خاصة طبعت في كتاب  
وإذا فيه تفسير سورة العاديات هكذا :

«والعاديات» الريح تجري مستمرة «صَبَحاً» صوتها أثناء جريها  
«فالموريات» الغيوم «قدحاً» تحتك ببعضها فينشأ عن ذلك البرق «فالغيارات»  
المغيبة بالمطر «صُبَحَاً» تغيشكم غياثاً ظاهراً كالصبح ... وهكذا إلى آخر السورة  
من عجائب التحرير .. !؟!

وهذا تحرير مخالف لصريح اللغة ، ومصادم لاتفاق المفسرين أن  
«العاديات» هي الخيل المسرعة تضجع «صَبَحاً» وهو اسم صوت الخيل وهي  
تسرع ، فتصدم حوافرها الأرض فتقدح الشرر «قدحاً» فتغير «صَبَحَاً» تشن  
الهجوم على العدو صباحاً ...

هذا هو الصواب في تفسير السورة ، وليس ذلك التفسير الذي نقلناه  
سابقاً من الصواب بسبيل ، إنما هو تمزيق للنص وعبث به .

---

(١) كما قال السيوطي في الإتقان ج ٢ ص ١٨٥ .

وقد ظهر حديثاً بعض الأدعية ، وراح يتلاعب بالقرآن ، حتى توصل إلى معانٍ مسفة يستحبّي منها ، فكشف العلماء دجله وحدروا منه<sup>(١)</sup> .

وقال بعضهم في الآية الخاتمة لسورة العنكبوت : «وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» أي أضاء المحسنين ، وإنما هي لام التوكيد ، و «مع» الظرفية ، فانظر أنّى ذهبَ عن النص .

من أهم كتب التفسير الإشاري :

#### ١ - «تفسير القرآن العظيم» ، للستري :

وهو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري ، والمولود بـتستر ، سنة ٢٠٠ ، وكان من كبار العلماء العارفين ، أهل الورع والكرامات ، أقام بالبصرة وتوفي بها سنة ٢٧٣ .

وتفسيره هذا جزء واحد ، يظهر أنه قطعة من مجموعة أخذت من كلامه ، ونجده - في الجملة - متماشياً مع الشروط السابقة . وأنه يُعنى بتزكية النفوس ، وتطهير القلوب ، والتحلي بالفضائل مما يدل عليه القرآن بطريق العبارة أو الإشارة .

ومن أمثلة ذلك قوله<sup>(٢)</sup> في سورة الصافات [١٠٧] : «وَفَدِينَاهُ بِذِبْحٍ عظيم» : «إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَا أَحَبَّ وَلَدَهُ بَطِيعُ البَشَرِيَّةَ ، تَدَارِكَهُ مِنَ اللَّهِ فَضْلُهُ وَعَصْمَتْهُ حَتَّى أَمْرَهُ بِذِبْحِهِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ الْمَرَادُ مِنْهُ تَحْصِيلُ الذِّبْحِ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْمَقْصُودُ تَخْلِيصُ السُّرِّ مِنْ حُبِّ غَيْرِهِ بِأَبْلَغِ الْأَسْبَابِ ، فَلَمَّا خَلَصَ السُّرِّ لَهُ وَرَجَعَ عَنْ عَادَةِ الظَّبِيعِ فَدَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» .

#### ٢ - «لطائف الإشارات» للثبيري :

الإمام أبو القاسم عبد الكري姆 بن هوازن القشيري ، زين الإسلام .

(١) ونحوه قول بعض آخر معاصر في حديث «الحج عرفة» ، هو : «الحج عرفه» أي عرف الله . وهو عبث ركيك ينم عن جهل عميق ، باللغة وبكتاب الله . قال تعالى : «فَإِذَا أَفْضَلْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ» .

(٢) تفسير التستري ص ١٢٠ .

المولود سنة ٣٧٦ . وهو عربي النسب من قبيلة قُشَيْر . كان عالماً في علوم عصره ، وتوجه بعد إتقانها إلى التصوف بتلمذته على أبي علي الحسن الدقاق ، وكان الدقاق إمام عصره ، فارهاً في العلم ، جندي الطريقة . فجمع القشيري العلوم العقلية والنقلية والصوفية ، وراح يمزج بينها بما لا يعارض بينها ، وألف كتبًا كثيرة ، وكانت له كرامات ظاهرة . وتوفي سنة ٤٦٥<sup>(١)</sup> .

ويمتاز هذا التفسير بأنه تفسير إشاري كامل للقرآن الكريم ، وأن صاحبه سار على خطة واضحة بينها في مطلع كتابه ، وهي خطة تتمشى مع شروط التفسير الإشاري ، وأحياناً كثيرة مع التفسير الظاهري نفسه . وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات كبيرة .

ومن أمثلة ذلك :

قوله جل ذكره : «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» .

قال القشيري<sup>(٢)</sup> : «الإسلام هو الإخلاص ، وهو الاستسلام ، وحقيقةه الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس .» **«قال : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»** : قابلتُ الأمر بالسمع والطاعة ، واعتنقتُ الحكم على حسب الاستطاعة ، ولم يدخل شيئاً من ماله وبدنه وولده ، وحين أُمِرَ بذبح الولد قصد الذبح ، وحين قال له خله من الأسر عمل ما أُمِرَ به ، فلم يكن له في الحالين اختيار ولا تدبير . ويقال : إن قوله : «أَسْلَمْتُ» ليس بدعوى من قبيله ، لأن حقيقة الإسلام إنما هو التبرّي من الحول والقوة ، فإذا قال : «أَسْلَمْتُ» فكانه قال : أقمني فيما كلفتني ، وحقق مني ما به أمرتني ، فهو أحال الأمر عليه ، لا لإظهار معنى أو ضمان شيء من قبل نفسه .

ويقال : أمره بأن يستأنر بمطالبات القدرة ، فإن من حل في الخلة محله يحل به لا محالة ما حل به . . .» إلى آخر ما ذكره من فوائد قيمة .

(١) باقتضاب عن تقديم المحقق لكتاب «لطائف الإشارات» .

(٢) لطائف الإشارات ج ١ ص ١٢٦ . أخذنا المثالين منه بالتلقيب العفوبي .

وعند قوله جل ذكره : «هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن  
مفتحة لهم الأبواب» : يقول القشيري<sup>(١)</sup> :

«أي هذا القرآن فيه ذكر ما كان ، وذكر الأنبياء والقصص أو يقال : إنه  
شرف لك ، لأنك معجزة تدل على صدقك ، وإن للذين يتقوون المعاصي لحسن  
المنقلب .

«جنات عدن مفتحة لهم الأبواب» : أي إذا جاءوها لا يلحقهم ذُلُّ  
الحجاب ، ولا كُلْفَةُ الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة بالترحاب والتجليل ،  
متكثين فيها على أرائكهم ، يدعون فيها بفاكهه كثيرة وشرابٍ على ما يشتهون ،  
وعندهم حورٌ عين قاصرات الطرف عن غير أزواجهن ، «أترب» لذات  
مستويات في الحسن والجمال والشكل .

\* \* \*

---

(١) في اللطائف ج ٣ ص ٢٦٠ .

## الفصل العاشر

### التفسير الفقهي

تعريف التفسير الفقهي ونشأته :

التفسير الفقهي هو التفسير الذي يُعني فيه بدراسة آيات الأحكام وبيان كيفية استنباط الأحكام منها .

وهذا التفسير بهذه الصفة يتميز بمزيد من دقة الفهم ، وعمق الاستنباط ، ويسمح بإعمال الذهن في المناقشة والموازنة بين الآراء أكثر من غيره ، مما يجعل له أهمية أكبر . ويُلزم بالاعتناء به أكثر .

ويرجع ابتداء هذا التفسير إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد فسر الصحابة كثيراً من آيات القرآن وبين لهم أحكامه بأنواع البيانات .

ثم جاء الصحابة وراحوا يعالجون ما يجد لهم من الأمور ، وكانوا يبحثون أولاً في كتاب الله تعالى ثم في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يجتهدون ، فكان من المتوقع أن تختلف اجتهاداتهم في فهم بعض الآيات واستنباط الأحكام منها .

ومن أمثلة ذلك اختلافهم في عدة المطلقة هل تحسب بالحيض أو بالأطهار ؟ فذهب عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود إلى أنها الحيض ، وذهب عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والسيدة عائشة إلى أنها الأطهار .

والسبب في ذلك أن القروء في قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » تحتمل في لغة العرب أن تفسر بالحيض ، وبالأطهار .

فالتمس كل فريق قرينة رجح بها ما ذهب إليه<sup>(١)</sup> .

وكان الصحابة رضي الله عنهم متجردين لطلب الحق لا يحيدون عنه ، وربما تناظروا فإن اقتنع الواحد برأي الآخر أخذ به ، وإنما عذر كل واحد أحاه في اجتهاده ووسع له فيه .

وهكذا استمر الحال في اجتهاد أئمة التابعين ومن بعدهم كالأئمة الأربعة وأمثالهم ، لكن ازدادت الواقع المستجدة فازدادت المسائل التي تستنبط من القرآن الكريم وتوسعت الدراسات التفسيرية لآيات الأحكام .

ولما ظهرت مذاهب فقهاء الأمصار ببنائها الضخم المؤصل على الأصول الاجتهادية ودونت ثم ذاعت في الناس تأثر بكل مذهب منها طوائف من العلماء ، كما حصل من قبل أن تأثر بفقهاء الصحابة طوائف من الصحابة والتابعين ، لكن العصور المتأخرة شهدت توسيعاً في المناوشات يؤيد كل فريق مذهبه الذي اعتقاد أنه الحق ، وربما جر ذلك إلى تشديد النقد على المذهب المخالف مما يخالف منهج البحث العلمي ، لا سيما في القرن الرابع وما بعده حين انتشرت المناظرات الكلامية .

أشهر ما ألف في التفسير الفقهي :

وهكذا ظهرت التفاسير الفقهية للقرآن وكثرت وكان أكثرها يقتصر على تفسير آيات الأحكام ، وفسر بعضها القرآن كله .

ونعرف القارئ بأشهر تفسيرين فقهيين وهما : (أحكام القرآن) للرازي الجصاص و (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي .

١ - أحكام القرآن لأبي بكر الرازي (الجصاص) :

مؤلف الكتاب :

هو الإمام العلامة المفتى المجتهد الحافظ عالم العراق أبو بكر أحمد بن

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٣ ص ١١٢ ، وغيره .

علي الرازي المشهور بالجصاص نسبية إلى العمل بالجُصّ ، ولد سنة ٣٠٥ وتوفي سنة ٣٧٠ . أخذ الفقه عن أبي سهل الزجاج وأبي الحسن الكرخي وعن غيرهما من فقهاء عصره ، وأخذ الحديث وتوسع فيه ورحل إلى الأفاق ، فأخذ عن ابن قانع والطبراني وجماعة من الأئمة الحفاظ .

استقر له التدريس ببغداد وانتهت إليه الرحلة ، وكان على طريق شيخه الكرخي وبه انتفع ، وكان الجصاص زاهداً ورعاً متبعاً ، عرض عليه منصب قضاء القضاة فامتنع منه ، وعظم الانتفاع به وانتهت إليه رئاسة الحنفية وتخرج به أصحاب المذهب ، وكان له فضل كبير في إظهار حجج الحنفية وأدلتهم . ويحتاج في كتبه بالأحاديث المتصلة بأسانيده .

له كتب كثيرة ، منها : أصول الفقه ، وشرح مختصر الطحاوي ، وأهمها كتاب (أحكام القرآن)<sup>(١)</sup> .

#### طريقة المؤلف فيه :

هذا التفسير هو أول تفسير فقهي مطبوع ، وأهم كتب التفسير الفقهي ، لما فيه من عمق الاستنباط وفنون الاستدلالات ، وقد شمل آيات الأحكام كلها على ترتيبها في المصحف ، لكنه مع ذلك مُبُوبٌ على مثال ترتيب كتب الفقه ، يضع لكل آية أو آيات عنواناً يدل على مضمون المسائل التي تستنبط منها أو تتفرع عليها ، فكان بذلك أسبق من العصريين في اتباع هذه الطريقة .

ومن مزايا هذا التفسير أنه لا يقتصر على ذكر الأحكام التي تستنبط من الآيات ، بل يستطرد إلى تفريع مسائل تتفرع منها ، ويدرك فيها خلافيات بين الأئمة والأدلة بتوسيع كثير .

ويعدني الإمام الجصاص في كل مسائل كتابه بتأييد مذهب الحنفية ، بأن

---

(١) الفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوبي ص ٢٧ - ٢٨ وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٦ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

يبين وجه استدلالهم بالأية ، أو يدفع استدلال المخالفين بأية احتجوا بها على الحنفية .

ومن الأمثلة تفسيره لقوله تعالى : «**وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أُمُوَالَهُمْ**» فقد فسّر «**آتُوا**» بمعنى أعطوا و «**الْيَتَامَىٰ**» بما بعد البلوغ ، مجازاً باعتبار ما كان ، وفائدة المجاز الإشارة إلى الإسراع بدفع ما لهم إليهم حتى كأنّ اسم اليتيم لم يزُلْ عنهم ، لأنّه لا يسمى يتيناً بعد البلوغ . وهذا ظاهر لا تكلف فيه .

ثم فرع على هذا التفسير وجوب دفع مال اليتيم إليه إذا بلغ خمساً وعشرين سنة أخذًا من قوله تعالى : «**وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ أَنْسَمْتُمْ مِّنْهُمْ رِشْدًا فَادْفِعُوهُ إِلَيْهِمْ أُمُوَالَهُمْ**» ، لأن الآية الأولى لم تشترط إيناس الرشد لإيتاء المال إلى اليتيم ، فجعلها فيما إذا بلغ خمساً وعشرين سنة ، والثانية اشتَرطَتْه فجعلها فيما دون ذلك ، لانعقاد الإجماع على أن لا يدفع له المال قبل الخامسة والعشرين ، يعني ولا إجماع بعد ذلك فاستعمل الآية فيه ، وهو مذهب الحنفية<sup>(1)</sup> .

وهو استدلال بعيد كتفسير للأية ، وإن كان يمكن أن يقال : إن هذا السن مَظْنَةً بلوغ الرُّشْد ، فَيُعَامَّل معاملة تتحققه ، دفعاً لطبع الأووصياء في مال اليتيم .

وربما شدد الجصاص الهجوم على مخالفي الحنفية من الأئمة ، وكانت أجواء المنافسات والمناظرات تُهيئُ لذلك خصوصاً في بغداد مما ي Nehha إلى أن لا تتأثر في عصرنا بمثل هذه المؤشرات ، وقد كثرت ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : «**فَإِنْ خَفْتُمُ الَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا ملَكْتُ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَا تَعْولُوا**» .

---

(1) أحكام القرآن للجصاص ج 2 ص 54 - 59 .

فسر جمهور المفسرين «ألا تعولوا» أن لا تميلوا إلى إحدى الزوجات .  
وفسرها الشافعي بـ«ألا تكثروا عيالكم» ، فشنع العصاقب تبعاً للمبرد على الشافعي  
هذا التفسير بأنه يخالف اللغة ، لأنه لو كان هذا هو المراد لقال «ألا تُعيلوا» ،  
وشدّد في التشنيع مما لا ينبغي أن يصدر عن مثله<sup>(١)</sup> .

والحاصل أن هذا التفسير - على ما انتقدناه به - فإنه تفسير جليل  
وعميق ، ومفيد جداً لطالب العلم في تعميق ملحة التفقه في كتاب الله تعالى .

## ٢ - الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي :

### مؤلف الكتاب :

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري  
الخرجي الأندلسي القرطبي ، نشأ في قرطبة ثم رحل منها إلى المشرق واستقر  
بمنية ابن خصيب شمالي أسيوط ، وتوفي فيها سنة ٦٧١ هـ .

كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين . الزاهدين في الدنيا ،  
المشغولين بالأخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجهه وعبادة وتصنيف . وبلغ من  
زهده أنه اطّرح التكلف وصار يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية .

أخرج كتباً كثيرة انتفع الناس بها ، منها كتابه التفسير الذي نتكلم عنه ،  
والذذكر في أفضل الأذكار ، والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ، وهي  
مطبوعة ، وله كتب غير ذلك مفيدة<sup>(٢)</sup> .

### طريقة هذا التفسير :

اسم هذا التفسير هو (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة  
وآي الفرقان) ، واسْتَهْرَ بِتَفْسِيرِ الْقَرْطَبِيِّ ، وَهُوَ مِنْ أَجْلِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَأَعْظَمُهَا

(١) وتابعه على ذلك أبو بكر ابن العربي أيضاً في كتابه «أحكام القرآن» ج ١ ص ١٣١ .  
وقد انتقده القرطبي في تفسيره بيان واسع ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) نفح الطيب للمقرئي ج ١ ص ٤٢٨ . ومقعدة تفسير القرطبي .

نفعاً . بين مؤلفه في مقدمته طريقة فيه وتتلخص بما يلي :

العناية بالرواية وتحريج الأحاديث ، وبيان جوانب اللغة والإعراب ، وذكر القراءات ، وبيان الناسخ والمنسوخ وإسقاط القصص والتاريخ ، والتعويض عنها بالأحكام المستبطة ، وذكر أدلة الآئمة ، ثم الإدلة برأيه بغاية الهدوء والموضوعية .

ويمتاز هذا التفسير بمزايا هامة ، منها : وضوح عبارته وسهولته ، ومنها حسن ترتيبه ، فهو يقسم الأفكار ويجعل كل فكرة مسألة ، ويصدر تفسير الآية بهذه العبارة : قوله تعالى كذا... فيه سبع عشرة مسألة مثلاً ، المسألة الأولى .. وهكذا .. مما يساعد القارئ على ترتيب أفكاره وحسن الفهم . ومنها اعتناقه بعلوم اللغة في دلالة الكلمة واشتقاقها ووجوه الإعراب وفائتها في المعنى . ومنها أنه يعني بالاستبطاط من كل القرآن فاستبطط أحكاماً من آيات ليست مما يورده أصحاب تفسير أحكام القرآن .

ومن أمثلة طريقة في الجانب الفقهي الذي نتكلم عنه هنا :

قوله تعالى في آية الوضوء : «**فاغسلوا وجوهكم**» : قال رحمة الله<sup>(١)</sup> : «**و لا بد في غسل الوجه من نقل الماء إليه وإمداد اليد عليه ، وهذه حقيقة الغسل عندنا وقد بيّناه في النساء . وقال غيرنا : إنما عليه إجراء الماء وليس عليه ذلك بيده . ولا شك أنه إذا انغمس الرجل في الماء وغمس وجهه أو يده ولم يذللْ يُقال : غسل وجهه ويده . ومعلوم أنه لا يعتبر في ذلك غير حصول الإسم فإذا حصل كفى » .**

فقد رجح مذهب غير المالكية أنه لا يجب الدلك في الغسل ، واستدل بأن الغمس في الماء يسمى غسلاً ، وبالتالي فإن المطلوب حصول ما يسمى غسلاً ، وهو معنى قوله : «**لا يعتبر في ذلك غير حصول الإسم**» أي لا يجب إلا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ٨٣ . وانظر تفسيره آية النساء ج ٥ ص ٢٠٩ .

حصول ما يسمى في اللغة غَسْلًا ، فإذا حصل - أي ما يسمى غَسْلًا - كفى لأداء الواجب . وهو إنصاف واضح واعتمادٌ دقيق على أصول فن التفسير وتطبيقاتها .

ولاعتناء القرطبي بالاستنباط نجده يلتفت لفوائد لا يذكرها غيره ، ومن ذلك قوله تعالى **﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أَجْوَرَهُنَّ فِرِيْضَةً...﴾** قال القرطبي في الآية<sup>(۱)</sup> «دليل على أنه - أي المهر - في مقابلة البعض ، لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجراً . وقد اختلف العلماء في المعقود عليه في النكاح ما هو ؟ بَدَنُ المرأة أو منفعة البعض أو الحال - أي حِل الاستمتاع - ثلاثة أقوال ، والظاهر المجمع ، فإن العقد يقتضي كل ذلك» .

ومن غاية إنصاف القرطبي وسموه رفضه النيل من أئمة الإسلام وإن وقع ذلك من بعض أعلام مذهبة ، مما يعطي أهل العلم درساً في ذلك<sup>(۲)</sup> .

وهكذا جاء تفسير «الجامع لأحكام القرآن» جامعاً كاسمه لفنون اللغة والعلوم التي يحتاج إليها المفسر مسبوكة بأسلوب واضح وترتيب جميل وتقسيم ميسر ، مما جعل هذا التفسير من أجل كتب التفسير وأعظمها نفعاً وأكثرها تداولاً في هذا العصر .

\* \* \*

---

(۱) ج ۵ ص ۱۲۹ . لكن قوله «إن المهر في مقابلة البعض ...» غير مُسلَّم ، لأن الاستمتاع مشترك بين الزوجين ، وسمي المهر أجراً لتأكيد لزومه وإلا فهو عطية مبتدأه للمرأة ، قال تعالى : **«وَآتَوْا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ تِخْلَةً»** أي عطية مبتدأة ليست في مقابل شيء .

(۲) انظر ما سبق ص ۱۰۷ تعليقاً .

## الفصل الحادي عشر التفسير في العصر الحديث

في مطالع القرن الرابع عشر الهجري المنصرم وفي ظل الاحتلال الأجنبي لكثير من البلاد الإسلامية أو أكثرها احتدم الصراع الفكري في البلاد الإسلامية وأثيرت شبّهات وإشكالات حول مفاهيم القرآن الأساسية والعلوم التي اشتمل عليها ، وكانت النزعة المادية الصرفة الملحدة متسلطة على المفكرين في أوربة مما جعل جملة هذه العوامل وغيرها يثير الجدل وال شبّهات ، التي أثارت رجال العلم والفكر المسلمين للاضطلاع بمهمتهم تجاه هذا الواجب .

وكان من الطبيعي أن تتجه أنظار الجميع إلى القرآن : توجه المنحرفون إلحاداً وتشكيكاً ، وتوجه العلماء إظهاراً للحق وهداية القرآن ، وتفسيراً صحيحاً لأياته ولإعجازه<sup>(١)</sup> .

لكن في ظل الانبهار والدهشة لتفوق الأجنبي جاءت بحوث عدّ من العلماء والمفكرين الإسلاميين متأثرة بمناهج الأجانب ومفاهيمهم المادية البحتة ، وظهر أثر ذلك واضحاً في تفاسير عدد منهم مما يتعارض مع الأدلة ومناهج التفسير .

ومن ذلك إنكار بعضهم المعجزات الحسية وتأويل الآيات الواردّة فيها تأويلاً بعيداً متكتفاً ، مثل تأويل الإسراء على أنه كان بالمنام أو بالروح فقط ،

---

(١) كما هو صريح مقصد الشيخ محمد عبده في «تفسير القرآن الحكيم» المشهور بتفسير المنار .

## مصادِمًا صريح الآية والأحاديث المتواترة .

كذلك إنكار خلق آدم وتأويل قصته ، حتى فسر بعضهم قوله تعالى : «خَلَقْتُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةً» أن المراد خلق العرب من إسماعيل عليه السلام<sup>(١)</sup> ، جاهلاً أو متجاهلاً إجماع المفسرين ، وأن العرب ليسوا كلهم من إسماعيل .. ؟ !

ومن ذلك تأويل الملائكة بالخاصة في المخلوق «وهو - كما قال الشيخ محمد عبده - أن هذا التمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفعه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان».

وفسر الناس كلامه ذلك بأنه أراد قوى الطبيعة ، وانتشر في أوساط كثيرة آنذاك ، وهو خطأ في العلم وفي الفهم أيضاً ، ولا ينسجم مع الإيمان بالوحى والنبوات<sup>(٢)</sup> .

وراح بعضهم يفسر الآيات القرآنية على أي شيء يسمعه من المكتشفات العلمية دون ثبت من صحة الاكتشاف فضلاً عن فهم حقيقته وطبيعته ، ودون تقيد بأصول علم التفسير التي لا يجوز الإخلال بها ، حتى ظهر تفسير ضخم للقرآن كله هو : «الجواهر في تفسير القرآن» ، للشيخ طنطاوي جوهري يعج بالطامات في أمور العلم والجحوم العجيب في تفسير القرآن ، حتى نجده يفسر الآيات التي تذكر إحياء الموتى في سورة البقرة فيجعلها أصلًا في علم تحضير الأرواح وأنه استخرج منها بزعمه ، حتى يقول : «وال المسلمين يؤمنون بها ، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً ، ثم بسائر أوربة ثانياً . . . »<sup>(٣)</sup> !!؟ .

(١) انظر ذلك في تفسير المراغي . في مطلع سورة النساء !

(٢) انظر كلام الشيخ محمد عبده مطولاً بتمامه في تفسيره ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ . لكنه نفى أن يكون هذا هو مراده ص ٢٧٣ - ٢٧٠ وبين أن مراده هو «أنها قوى أو أرواح منشأة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وأن الله ذكرها لك بما يعرفها سلفك . . . » !؟ .

لكن يظل هذا التأويل غير مقبول ، لمخالفته أوصاف الملائكة وأعمالهم الواردة في الكتاب والستة .

(٣) تفسير الجواهر ج ١ ص ٧١ وما بعده .

وفي الحروف المقطعة أول سورة آل عمران «آلهم» يعقد بحثاً طويلاً عنوانه «الأسرار الكيميائية في الحروف الهجائية .. أتى فيه بما يبعد عن العلم وعن فطرة العقل كذلك<sup>(١)</sup>.

ولا نزال نُوافِي بمثل تكاليفاته هذه في عصرنا هذا !!

نحن نقدر حرصَ الكاتبين على إظهار إعجاز القرآن والنهوض بال المسلمين في مدارج الرقي لكنهم أخطأوا الطريق، فليس الطريق إلى ذلك بمخالفة العلم في درسه ولا القرآن في أصول بحثه.

وقد ظهرت ردود ومناقشات حول هذه القضايا كلها ، لكن لم يظهر تفسير كامل ملتزم بمنهج التفسير في ذلك الوقت ، يتضمن التفسير الصحيح في هذه الآيات الكثيرة .

حتى إذا كان الرابع الأخير من القرن الرابع عشر نشطت الدراسات القرآنية نشاطاً عظيماً ، وظهرت دراسات تفسيرية لبعض السور أو الجوانب ، كما ظهرت تفاسير متنوعة ، ذات مناهج متعددة ، فيها تجديد في عرض معاني كتاب الله ، يعتمد أصول التفسير ، ويعول على المصادر القديمة ، ويلائم حاجة القارئ المعاصر في ضوء استقرار الحقائق العلمية ، وانجلاء الغبار عن أخطاء السابقين ، وإن كان بعضهم تأثر بأخطاء السابقين لكن الجملة يعتمد عليها .

وأهم أنواع التفسير المعاصرة ما يلي :

الأول : التفسير المنهجي<sup>(٢)</sup> :

ومن أشهر كتبه المتداولة : «التفسير الواضح» للدكتور الشيخ محمد محمود حجازي .

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٠ - ١١ .

(٢) هكذا اخترنا تسميتها ، لما بينا من طريقته ، وهي طريقة عامة في هذا العصر . أما التفسير التحليلي فيتميز بمزيد الدقة والعمق .

وطريقة هذا التفسير أنه يتبع أصول التفسير وخطواته عند العلماء ، لكنه ينظم هذه الخطوات في فقرات منفصلة هكذا : أسباب التزول ، مناسبة الآية لما قبلها ، المفردات اللغوية ، الإعراب وأثره في المعنى ، البلاغة ، المعنى العام ، ثم ما يستنبط من النص من الفوائد ، مع مراعاة سلاسة الأسلوب ووضوحه ، ومزج فيه التفسير بالمعاني العلمية والتوجيهات الاجتماعية والاستنباطات .

لكن المؤلف كثيراً ما يخالف ما عليه الجمهور ، دون أن يظهر مبرر لعمله ذلك<sup>(١)</sup>.

وعلى كل فالكتاب هام وسهل لعامة القراء ، ومفيد ، يلائم بث روح النهوض في المسلم ، وإيقاظ وعيه للعلوم والثقافات .

### الثاني : التفسير الأدبي الاجتماعي :

وهو تفسير يبرز إعجاز القرآن ويعتمد في عرض معانيه على الأسلوب الأدبي الجذاب ليصل إلى القارئ بما يريد من التأثير والتوجيه .

وقد لفت هذا التفسير الوحيد إليه الأنظار ، لأنه استطاع أن يملك ناصية البيان الأدبي في عرض المعاني ، وناصية الذوق الأدبي في فهم أسرار إعجاز القرآن ، ثم في المنطلق المعاصر الذي يعني به وهو إبراز إعجاز القرآن في فن التصوير حتى استطاع أن ينال الاعتراف به والإعجاب ، إذ سبق وبادر لإثبات إعجاز القرآن وفق مقياس أدبي فني حديث : هو فن التصوير ، وأن يقدم تفسيراً

---

(١) مثل تفسيره «النازعات...» بالكواكب ، خلافاً للجمهور ، وخلافاً لظاهر قوله تعالى «فال مدبرات أمراء».

ومثل تفسيره «العشار عطلت» السحاب . وتعطيلها منها من حمل الماء ، وقيل : «هي النياق أتى على حملها عشرة أشهر...». فعبر بقوله عن التفسير الذي هو ظاهر اللغة ورأي أكثر الناس ، ولم يبين سبب اختياره ! مع أنه لا إشكال على المعنى الظاهر ، لأنه يشير إلى اشتغال الناس بدهاء القيامة عن أنفس أموالهم ، وكانت العشار أغْرِيَّ أموال العرب عليهم .

كاماً للقرآن يبرز فيه مصداق هذه النظرية<sup>(١)</sup> .

### الثالث : التفسير العلمي :

هو التفسير الذي يجتهد في استخراج مختلف العلوم والأراء الفلسفية من القرآن الكريم<sup>(٢)</sup> .

وقد أخذ هذا النوع من التفسير اهتماماً عظيماً لدى المثقفين في الآونة الأخيرة ، وذلك لما كشف عنه تقدم العلم من إعجاز القرآن ، وتصديقه للحقائق العلمية ، على حين قضى تقدم العلم بالبطلان على التراث الديني لدى الأمم الأخرى . وزاد ذلك الاهتمام ضعفًّا ملحة الدارسين الأدبية ، فضلاً عن أن القسم الأعظم من المسلمين ليسوا من العرب .

لكن وقع من بعض الكاتبين غلو وجنوح في هذا التفسير مما سبق أن حذرنا منه ، وأوضناه بالأمثلة . وأتينا في بحث الكون في القرآن على تفاصيل وشروط يجب أن تتبع في هذا التفسير .

ومما يذكر من المؤلفات في هذا الباب : دراسة الكتب المقدسة في صورة المعارف الحديثة . للدكتور موريس بوكي<sup>(٣)</sup> . وآيات الله في الأفاق . للأستاذ الشيخ محمد وفا أميري .

### الرابع : التفسير العام :

هو تفسير يعرض مقاصد الآيات ومعانيها ، دون دخول في تفاصيل المفردات وجزئيات المعنى .

وقد احتل هذا التفسير مكانة كبيرة في الأوساط العامة ، وأصبح عمدة في الخطب والمقالات ، والأحاديث والبحوث الإسلامية الثقافية .

---

(١) انظر ما سألي في الفصل الخاص بالتصوير في القرآن .

(٢) بتصرف عن التفسير والمفسرون ج ٣ ص ١٤٠ .

(٣) على تحفظ من آرائه في الحديث النبوى تعرضاً لها في كتابنا : «الستة المطهرة والتحديات» فارجع إليه .

لكن كثُر دخولَ مَنْ ليسَ مِنْ أهْلِ التفسيرِ فِيهِ ، وَكثُرَ الخطأُ فِيهِ ، حتَّى  
ربما دَخَلَ كثيرونَ فِي تفسيرِ الآيَةِ أشياءً لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِالآيَةِ ، فضلاً عَمَّا هُوَ أَشَدُ  
مِنْ ذَلِكَ .

وَالذِّي يَجِبُ أَنْ يَتَبَّهَ لَهُ كُلُّ باحثٍ أَوْ مُحَاضِرٍ أَوْ خطيبٍ أَوْ داعِيَةً أَنْ يَعْلَمَ  
أَنَّهُ مُطَالَبٌ بِمُراعَاةِ أَصْوَلِ التفسيرِ وَقَواعِدِهِ ، لِيَكُونَ مَا يَعْرَضُهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ  
التفسيرِ الْعَامِ حَصْيلَةً دراسةً مُبْنِيَةً عَلَى الْمَنْهَجِ السَّلِيمِ ، فَيَحْوزُ أَجْرَ الْمُبَلَّغِينَ  
لِكِتَابِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ ، وَيَنْجُو مِنْ الرُّوعِيدِ الشَّدِيدِ الَّذِي عَرَفَنَا فِيمَنْ تَكَلَّمُ فِي  
الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ .

وَلَعِلَّ أَهْمَ ما صُنِّفَ كَتْفِيسِيرٍ فِي هَذَا النَّوْعِ : تفسيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ،  
لِفَضِيلَةِ أَسْتَاذِنَا الشَّيخِ مُحَمَّدِ شَلَّوتِ رَحْمَهُ اللَّهُ شَيْخُ الْأَزْهَرِ الْأَسْبَقِ ، وَشَمَلَ  
فِيهِ الْأَجْزَاءُ الْعَشْرُ الْأُولَى فَقَطْ .

#### الخامس : التفسير الموضوعي :

وَهُوَ تفسيرٌ يَدْرُسُ الْقَضَايَا بِحَسْبِ دَلَالَةِ الْآيَاتِ الْقَرَآنِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ .  
أَوْ بِحَسْبِ مَقْصِدِ سُورَةِ مِنْهُ (١) .

وَقَدْ عَنِيَ المُعاصرُونَ بِالتفسيرِ الموضوعيِّ ، لِمَلَائِمَتِهِ حَاجَةِ العَصْرِ  
وَدِرَاسَةِ الْقَضَايَا الْحَدِيثَةِ . وَمِنَ الْكِتَابِ الْهَامَةِ الْمُفَيَّدَةِ فِيهِ كِتَابًا «هَدْيُ الْقُرْآنِ  
إِلَى الْحَجَةِ وَالْبَرْهَانِ» وَ«هَدْيُ الْقُرْآنِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْعَوَالِمِ وَالْتَّفَكُّرِ فِي الْأَكْوَانِ»  
كَلَاهُمَا لِفَضِيلَةِ أَسْتَاذِنَا الشَّيخِ عَبْدِ اللَّهِ سَرَاجِ الدِّينِ . وَكِتَابًا «نَبْوَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ» لِلْدَّكْتُورِ حَسَنِ ضِيَاءِ الدِّينِ عَتَرِ .

وَهَكُذا جاءَتْ جَهُودُ المُعاصرِينَ بِأَسَالِيبٍ مُبْتَكَرَةٍ فِي التفسيرِ ، تَلْبِي  
حَاجَةَ العَصْرِ ، وَتَبَرُّزُ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ فِي أَسْلوبِهِ وَمَضْمُونِهِ وَفِي هَدَائِيهِ ،  
وَخَصْصَوْصاً تَلْكَ الَّتِي التَّرَمَتْ مِنْهُجُ التفسيرِ الَّذِي قَرَرَهُ الْعُلَمَاءُ .

\* \* \*

(١) قارن تعريفنا هذا بالتعاريف الواردة في كتاب «مباحث في التفسير الموضوعي» للدكتور مصطفى مسلم ص ١٦ . وانظر الكتاب كله لفائدته .

## الفصل الثاني عشر

### ترجمة القرآن الكريم وحكمة

هذا موضوع حاقد ، وال الحاجة لبحثه ضرورية . فقد انتفع بفهم معاني القرآن أقوام فآمنوا ، وازداد آخرون إيماناً ، وضلّ قوم بسوء ما فسّر لهم القرآن بغير لغته ، وصدهم ذلك التحريف لمعانيه عن الإيمان .

ونرى لزاماً علينا لبحث الموضوع بحثاً علمياً منهجاً أن نقسم الترجمة إلى قسمين :

القسم الأول : الترجمة الحرفية .

القسم الثاني : الترجمة التفسيرية .

#### القسم الأول : الترجمة الحرفية

الترجمة الحرفية : هي أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى ، ترجمة تحاكىء حذواً بحذو ، بحيث تحلّ مفردات الترجمة محلّ مفرداته ، وأسلوبها محلّ أسلوبه .

وهذه الترجمة مستحيلة في حق القرآن العظيم وذلك لسبعين أساسين : أولهما : كونه معجزة للبشر لا يقدرون على الإتيان بسورة مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

الثاني : إنه هداية تؤخذ منه الأحكام ، وتُستتبَطُ الفوائد والتوجيهات ، وهذا الاستنباط لا يؤخذ فقط من المعاني الأصلية التي يسهل فهمها والتعبير

عنها بلغات أخرى ، بل إن كثيراً من الاستنباطات إنما يستفاد من المعاني الثانوية ، مثل إشارة النص ، ودلالة النص ، إلى آخر ما هنالك ، ومن غير الممكن أن يُحافظ في الترجمة على المعاني الثانوية هذه ، لأنها لازمة للقرآن لا تنتقل إلى اللغات الأخرى .

### القسم الثاني : الترجمة التفسيرية

الترجمة التفسيرية أو المعنية : هي شرح الكلام بلغة أخرى على قدر طاقة الإنسان . فهي في الواقع تفسير لمعاني القرآن لكنه مكتوب بلغة غير لغة القرآن . بأن نفهم المعنى المراد من النص قدر طاقتنا ثم نعبر عنه باللغة المترجم إليها على وفق الغرض الذي سيق له .

وهذه ولا شك ممكنة ، لا يماري فيها أحد .

ويمكن أن نتبين الفرق بين الترجمة الحرافية والترجمة المعنية التفسيرية بالتطبيق العلمي على مثال هو هذه الآية : «**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عَنْقِكَ وَلَا تَسْطُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**»<sup>(١)</sup> .

لو أراد المترجم أن يترجم هذه الآية الكريمة ترجمة حرافية ، لقال بلغة أخرى : «لا تربط يدك إلى عنقك ولا تمدها غاية المد..». وهذا تعبير بعيد عن المقصود الحقيقي للأية ، يثير استنكار القارئ غير العربي ، لأنه مثير للاستغراب ، ولا يُفهم منه المعنى الذي قصده القرآن وما فيه من التشبيه البليغ .

أما إذا أراد ترجمتها ترجمة تفسيرية فإنه يبين نهي القرآن عن الضدين : التقتير والتبذير ، وقد عرضهما القرآن مصوّرَيْن صورة شنيعة ينفر منها الإنسان ، فإن الكلام الذي فُسِّرَ به معنى الآية باللغة الأخرى يكون مفهوماً للقارئ الأعجمي ، ومقبولاً عنده ومؤثراً فيه . وشتان ما بين العملين ، وما أبعد ما بينهما .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٢٩ .

وهذه شهادة منصفة من رجل متتمكن من اللغة العربية ولغته الفرنسية ، هو المستشرق الفرنسي الدكتور مارديريس ، فقد كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسيتان بترجمة ٦٢ سورة من السور الطوال ، فحاول جهده ، وقال في مقدمة ترجمته هذه<sup>(١)</sup> :

«أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلّ وعلا ، فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً..»

لذلك كان من الجهد الصائغ غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا التشر البديع الذي لم يسمع بمثله بلغة أخرى ، وخاصة الفرنسية القاسية الضيقة التي لا تتسع للتعبير عن الشعور.. زد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية ، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية»<sup>(٢)</sup> .

#### حكم الترجمة التفسيرية :

إن تفسير القرآن الكريم علم جليل ، وهو من العلوم التي فرض الله على الأمة تعلمها وتعليمها ، والترجمة التفسيرية هي تفسير للقرآن الكريم بلغة أخرى غير اللغة العربية ، وكانت هذه الترجمة فرضاً مما فرضه الله تعالى على الأمة ، بل هي الآن أكثر فرضية لما يتربّ عليها من الواجبات المحمّمة ، مثل تبليغ معاني القرآن على وجه صحيح إلى المسلمين غير العرب ، وكذلك إلى غير المسلمين أيضاً ، ومثل المحافظة على العقيدة الإسلامية من التحريف الخطيء أو المتمعد الذي كثر فيما يسمى ترجمات القرآن ، مما يشوش عقيدة قارئها المسلم ، ويصد غير المسلم عن دين الله تعالى ، وكذلك الدفاع عن القرآن بكشف أضاليل المبشرين والمستشرقين الذين تعلّلت أصوات الشكاكيرات من دسهم وتربيتهم .

(١) الصادرة سنة ١٩٢٦ . كما في المعجزة الخالدة ص ١٨٦ - ١٨٧ عن الوحي المحمدي ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) هذا هو حال اللغة العربية قبل نزول القرآن ، كما يلاحظ من دراسة الأدب الجاهلي ، لكن إعجاز القرآن هو الذي جعلها لغة دين وإيمان بأقصى تفاصيل إيمانية وإلهية لا توجد في دين آخر ، كما جعلها لغة العلوم والمعارف .

## شروط الترجمة التفسيرية :

ولتكون الترجمة التفسيرية ترجمة صحيحة ومؤدية للغرض المطلوب ، وبعيدة عن أي ضرر فقد اشترط العلماء المعاصرون في إعدادها وطبعها الشروط التالية :

- ١ - أن تكون مستوفية شروط التفسير التي سبقت . وذلك يوجب على المترجم استحضار معنى الأصل من تفسير عربي مستوف لتلك الشروط . أما إذا استقل برأيه ولم يكن أهلاً لذلك ، أو اعتمد على تفسير غير مستوف للشروط فلا تكون هذه الترجمة صحيحة ولا جائزة . وينطبق عليها الوعيد الشديد والإثم الأكيد فيما قال في القرآن برأيه المجرد .
- ٢ - أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى أي عقيدة زائفة تخالف عقيدة القرآن ، وهذا شرط في الأصل التفسيري أيضاً كما هو معلوم .
- ٣ - أن يكون المترجم عالماً باللغتين : المترجم منها والمترجم إليها معرفة خبرة بأسرارهما ، وعلم دقيق بوجوه وضع اللغة ، وطرق الأساليب ، واختلاف الدلالة بحسب الأسلوب في كل من اللغتين .
- ٤ - أن يُراعي في طباعة الترجمة التفسيرية اشتتمال الطبعة على القرآن أولاً ، ثم تفسيره العربي ثانياً ، ثم يتبع ذلك بترجمته التفسيرية ، حتى لا يتوهم متوجه أن هذه ترجمة حرفية للقرآن .

والجدير بالذكر أن بعض البلاد الإسلامية طبعت المصاحف محاطة بتفسير باللغة المحلية في هامش المصحف ، كما فعل الإيرانيون والباكستانيون ، وليت هذا التفسير يكتبه أولاً فريق من العلماء أهل الاختصاص إذن لكان العمل أسلم وأجدى<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

(١) انظر التوسيع في الموضوع : في منهج الفرقان في علوم القرآن لمحمد علي سلامـة ج ٢ ص ٧١ - ٩٠ ومناهـل العـرفـان ج ٢ ص ٦ - ٢٥ ودبـاجـة ابن قـيـة لكتـابـه تـأـوـيلـ مشـكـلـ القرآن ، والتـفسـيرـ والمـفسـرـونـ ج ١ ص ٢٣ - ٣٠ والـمعـجزـةـ الكـبـرىـ ص ٦١١ - ٦١٩ـ وغيرهاـ .

## الفصل الثالث عشر

### المحکم والمتشابه

الاِحْکَامُ لغة : الْإِتْقَانُ البالغ ، ومنه البناء المحکم الذي اُتقنَ فلا يتطرق إليه الخلل أو الفساد .

وأما المتتشابه : فهو في أصل اللغة : من الشبه وهو التماثل بين شيئين أو أشياء . ولما كان التماثل بين الأشياء يؤدي إلى الشك والحيرة ، ويقع في الالتباس توسعوا في اللفظ ، وأطلقوا «متتشابه» و«مشتبه» على كل ما غمض ودقّ .

وكما توسعوا في المتتشابه توسعوا في «المشكل» فصار كما قال ابن قتيبة «يقال لكل ما غمض وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة مشكل» .

ويمكن أن نلحق بهذين النوعين نوعاً ثالثاً هو المبهم ، وهو مأخوذ من الإبهام ، والمراد به ما أُغفلَ ولم يُعَيَّنْ فيه الفرد أو الشخص مع فهم المعنى ، مثل : «رجل» ، «امرأة» .

وبناء على الإطلاق اللغوي للمحکم والمتتشابه وهو إطلاق شامل واسع فإن بوسعنا أن نفهم استعمال القرآن هذين اللفظين بإطلاقات متعددة ولمعان متنوعة ، وُصِفت فيها القرآن بالإِحْکَام وُوصِف بالتشابه :

لقد جاء وصف القرآن كله بالإِحْکَام في أكثر من موضع من القرآن ، كما وصف بالحكمة أيضاً :

قال تعالى في أول سورة هود : «الر . كتابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٌ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ» .

فوصف الله تعالى القرآن بأنه «كتاب» عظيم الشأن جليل القدر ، وعبر بالإحكام في قوله : «أَحْكَمْتُ» عن الإتقان للإشارة إلى أنه متكامل العظمة من الناحية الإيجابية بإتقانه البالغ ، نظماً ومعنى ومن الناحية السلبية فلا يتطرق إليه دخل ولا خلل «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» .

كذلك وصف القرآن كله بأنه متشابه ، في قوله تعالى في سورة

الزمر<sup>(١)</sup> :

«اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًـا مَثَانِي تَقْشِعُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلْيَنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» .

فقد جاء مدح القرآن هنا بأنه «متشابه» أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإعجاز ، ويصدق بعضه بعضاً «مثاني» يردد فيه القول ، أو يذكر الشيء وضده ، ذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وهكذا . . .

### المحكم والمتشابه اصطلاحاً :

وليس موضوع هذا البحث تفصيل أوجه الإحكام والتتشابه اللذين وردما فيما سبق ، وإنما موضوع البحث وصف القرآن حسبما ورد النص فيه صراحة في سورة آل عمران في هذه الآية من مطلعها :

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَمَمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغُ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلُهِ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمِنًا بِهِ كُلُّ مِنْ عَنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» .

(١) الآية ٢٣ .

فقد دلت الآية على أنَّ مِنَ القرآن ما هو مُحْكَم ، ومنه ما هو متشابه ، فما هو المراد بهما هنا ؟

لقد تعددت الآراء في تعريف المُحْكَم والمتشابه المذكورين في هذه الآية وكان السبب في ذلك اختلاف الوجهة التي ينظر منها صاحب كل رأي . ولعلنا إذا نظرنا إلى سياق الآية نخلص إلى ترجيح رأي الإمام الطبي .

المُحْكَم : هو الواضح المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال .  
والمتشابه : هو الذي طرأ عليه خفاء في المعنى المراد منه<sup>(١)</sup> .

فإن سياق الآية يؤيد هذا ، لأنَّه تعالى جعل المُحْكَم مُقابلاً للمتشابه ، فينبغي أن يُفسَّر بما يقابلها ، وأشار إلى أن المتشابه يحتاج إلى تأويل ، الأُمُّ فيه أي المرجع والأصل الذي يجب التعويل عليه هو المُحْكَم .

هل يمكن تفسير المتشابه :

وبالنظر لغموض المتشابه وخطورة البحث فيه لكونه بحثاً في كلام الله تعالى اختلفت الآراء فيه ، هل هو مما يمكن الاطلاع على علمه ، أو لا يمكن الاطلاع على علمه ، ولا يعلمه إلا الله .

وقد أرجعوا السبب في هذا الاختلاف إلى الاختلاف في آية آل عمران السابقة قوله تعالى فيها : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مَنْ عَنِدَ رَبِّنَا...﴾ .

فذهب بعض أهل العلم إلى أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ، وفسروا الآية على أن قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله ﴿يَقُولُونَ﴾ في محل نصب حال ، ولا يقف هؤلاء على لفظ الجلالة ﴿الله﴾ ، بل على قوله ﴿رَبِّنَا﴾ . والمعنى أن الله هو الذي يعلم تأويله وكذا الراسخون في العلم حال كونهم قائلين ﴿آمَنَّا بِهِ كُلُّ مَنْ عَنِدَ رَبِّنَا﴾ ، وتكون الآية دالة

---

(١) انظر رأي الطبي في الإنقاذ ج ٢ ص ٤ .

على أن الراسخين في العلم أي الثابتين المتمكنين فيه يعلمون تأويله .  
وذهب كثير من أئمة العلماء المتقدمين والمتاخرين إلى أن المتشابه لا يطلع على علمه إلا الله تعالى ، واستدلوا بالأية نفسها كذلك وقالوا : إن قوله تعالى : ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ نهاية الكلام السابق والوقوف في القراءة عليه ، وقوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ في محل رفع خبر ، والمعنى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم استأنف ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا ، أي كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا تبارك وتعالى ، لا نفرق بينهما في الإيمان والخصوص ، وكل واحد منهم يصدق الآخر ، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا بمتناقض .

وقد وردت آثار شهد لهذا الرأي ، منها ما أخرجه عبد الرزاق والحاكم في المستدرك عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ آمِنًا بِهِ . . .﴾<sup>(١)</sup> .

فهذا خبر بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن يدل على أنه يفسر الآية هكذا ، وهو دليل على أن الواو في قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ للاستئناف .

ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبني المتشابه ، وعلى مدح الذين فوّضوا العلم إلى الله وسلموا إليه ، كما مدح المؤمنين في مواضع كثيرة بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ .

### التحقيق في المسألة :

ونحن إذا أمعنا النظر في الموضوع من أصله ، وبحثنا منطلقات الفريقين نجد أنهم متقاربان ، وأن الخلاف ليس جوهرياً ، وإنما هو خلاف فرعى ناشيء عن اختلافهم في حقيقة المتشابه .

وذلك أن الذين قالوا لا يعلّم المتشابه إلا الله أدخلوا في المتشابه قضايا من الغيب مثل قيام الساعة ، وخروج الدجال ، وحقائق العوالم الأخرى . بل

(١) الإتقان ج ٢ ص ٣ وانظر الطبرى ج ٦ ص ٢٠٢ وابن كثير ج ٢ ص ٨ .

إن منهم من قصر المتشابه على هذه القضايا ونحوها من مبهمات القرآن .

وهذه أمور قد استأثر الله بعلمها ، لا خلاف في ذلك بينهم إطلاقاً .

وأما الذين قالوا إن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه فلم يدخلوا فيه <sup>ـ</sup> هذه القضايا ، فبقي الموضوع في إطار ما يمكن بحثه لهذه النخبة من أئمة العلم والدين .

وثمة أمر آخر له أثره في اختلاف الآراء ، هو تحديد حقيقة التأويل ، أو بعبارة أخرى المدى الذي يبلغه التأويل ، وفي هذا يقول الإمام المفسر ابن كثير<sup>(١)</sup> :

«ومن العلماء من فصل في هذا المقام فقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان :

أحدهما : التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه . . . ومنه قوله تعالى : ﴿هُل يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ . يوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ . . .﴾ أي حقيقة ما أُخْبِرُوا به من أمر المعاد ، فإن أُريد بالتأويل هذا فالوقف على الجملة ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ ، لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجملة إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . .

وأما إن أُريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء ، كقوله : ﴿نَبَيَّنَاهُ لِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بتفسيره ، فإن أُريد به هذا المعنى فالوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ .

لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه . . .» .

كيف نفسر المتشابهات :

لما كانت المتشابهات تقع في القرآن الكريم في موضوعات متعددة فإنها

---

(١) في تفسيره ج ٢ ص ٨ باختصار وتصريف يسير .

تنقسم إلى أكثر من قسم نكتفي منها هنا بأهم ما يجب على دارس القرآن ، وهو  
متشابه الصفات :

### متشابه الصفات :

المراد من «متشابه الصفات» الآيات المشكلة الوارددة في شأن الله تعالى ، مما قد يوهم من لم يتمتعن الكلام تشبيهاً لله تعالى بخلقه ، كقوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» ، قوله «يد الله فوق أيديهم» ، وغير ذلك ، وتسمى أيضاً «آيات الصفات» .

وقد اختلفت الآراء في هذه المسألة بما يمكن حصر المقبول منه في هذين المذهبين المشهورين :

**المذهب الأول :** مذهب السلف : وهو تفويض علم حقيقة معانٍ هذه للمتشابهات إلى الله وحده ، مع اعتقاد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحبة في حقه تعالى .

واستدلوا لمذهبهم بأدلة من النقل والعقل :

أما أدلة النقل فمنها حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الآية السابقة : «إذا رأيت الذين يتبعون ما تشبه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذرهم» متفق عليه<sup>(١)</sup> .

وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا أخاف على أمتي إلا ثلاثة خلال : أن يكثُر عليهم المال فيت Háسدوها فيقتتلوا ، وأن يُفتح لهم الكتاب فياخذه المؤمن يتغى تأويله «وما يعلم تأويله إلا الله» أخرجه الطبراني<sup>(٢)</sup> .

وكذلك سار الصحابة والتابعون حيث تركوا الاشتغال بتأويل المتشابه وفروض الواقع حقيقة إلى الله تعالى ، مع اعتقاد تنزيهه عن التعطيل والتشبيه والتجسيم .

(١) البخاري في التفسير ج ٦ ص ٣٤ ومسلم في العلم ج ٨ ص ٥٦ .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ٣ .

وأما دلالة العقل فلأن تعين المراد من هذه المتشابهات إنما يكون بتأويل نتبع فيه قواعد اللغة وأسلوب العرب ، وهي لا تفيid العلم اليقيني القاطع ، بل قد تحتمل أكثر من وجه ، وصفات الله تعالى من العقائد لا بد فيها من اليقين ، لذلك نتوقف ، ونفوض إلى الله تعالى .

ومن هنا قالوا : «الرحمن على العرش استوى» المراد معنى يليق بجلاله تعالى لا يشبه صفاتنا ، الله أعلم بحقيقة ، وكذلك يقولون في غير ذلك .

**المذهب الثاني** : مذهب الخلف : وهو تأويل هذه الآيات بما يناسب استعمالات اللغة مما يليق بكمال الله تعالى وتقديسه .

فيفسرون : «الرحمن على العرش استوى» بأن المراد : استولى مثلاً و«يد الله فوق أيديهم» بمعنى القدرة ، وهكذا . . .

ودليلهم أنه لما استحال أن يكون المعنى الظاهري مراداً ، كان دليلاً على أن المراد هو معنى مجازي ، فتفسره وفق ما يفسر به كلام العرب ، لأن القرآن عربي كما صرخ القرآن بذلك في مواضع كثيرة فيجب الاعتماد على منهج فهم كلام العرب .

وبالنظر في حقيقة الأمر نجد بين المذهبين اتفاقاً في جوهر المسألة وأساسها ، وهو :

١ - الاعتماد فيها على الآيات المحكمات ، التي سماها الله تعالى «أم الكتاب» أي الأصل والمرجع وهي قاطعة في تنزيه الله عن مشابهة الخلق .

٢ - صرف هذه النصوص عن ظواهر ألفاظها اللغوية المستحيلة ، واعتقاد أن هذه الظواهر الموهمة للتشبيه غير مراده قطعاً ، فالفرقان إذن متفقان في جوهر القضية ، غاية الأمر أن السلف اكتفوا بالإجمال ، وهو اعتقاد التنزيه عن هذه الظواهر ، لكن دون تعين التأويل المراد ، أما الخلف فقد خطوا خطوة

ثانية وهي تفسير تلك النصوص حسبما يتبارد منها وفق استعمالات  
كلام العرب .

وقد تاه أقوام في فهم مذهب السلف ، وأتوا في تعريفهم به بعبارة موهمة  
قالوا :

إن المراد من هذه الآيات المتشابهة في الصفات هو معناها الحقيقي على  
وجه يليق به تعالى .

وهذا تعبير منتقد من حيث اللفظ والمعنى :

أما انتقاده من حيث اللفظ فلأن السلف لم يأتوا بكلمة «حقيقة» ، وهذا  
باب دقيق يجب التقييد فيه بالعبارات المنقوله تماماً ، فكيف ننضم على كلامهم  
ما لم يقولوا ؟ !

وأما انتقاده من حيث المعنى : فلأن قولهم «المراد معناها حقيقة»  
يؤهم تشبيه الله تعالى بخلقه ، وقولهم «على وجه يليق به» ينافي ذلك ، فصارت  
العبارة متناقضة موهمة ، حتى وجدنا كثيراً من نظر في كلام أصحاب هذا  
الرأي أو اعتقاده يتوجه فهمه إلى التشبيه من حيث لا يشعر .

وإن من نظر في سياق تلك الآيات الواردة من متشابه الصفات وتمعن في  
الغرض الذي سيقت له علم بعدها عن إرادة المعنى الظاهري ، واستحال  
تفسيرها به .

تأمل قوله تعالى : **﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ يِئْدُ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾** . وقوله  
تعالى : **﴿ تَبَارَكَ الَّذِي يَبْدِئُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** ، وقوله : **﴿ بَلْ**  
**يَدَاهُ مَبْسُوتَانِ يُفْقَدُ كِيفَ يَشَاءُ ﴾** . وقوله تعالى : **﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا**  
**لَمُوسِعُونَ ﴾** ، تعلم أن هذه الآيات وردت في مقام بيان قدرته تعالى ، ووردت  
فيها اليد مفردة ومثناء وجمعأً ، مما يدل على استحاله إرادة المعنى الظاهري .  
وحسينا في هذا كلام الإمام الحافظ السلفي ابن كثير ، قال في تفسير

قوله تعالى : «**فَلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ**<sup>(١)</sup>» : «أي الأمور كلها تحت تصريفه، وهو المعطى المانع ، يَمْتَنَّ على مَنْ يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام . . .» .

وقال في تفسير آية : «**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**<sup>(٢)</sup>» : «أي هو حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى المباعي بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم» .

وقال في آية «**بَلْ يَدَاكُمْ مَبْسُوطَاتٌ يَنْفَقُ كَيْفَ يَشَاءُ**<sup>(٣)</sup>» : «أي بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه» .

وهكذا الشأن في قوله : «**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**<sup>(٤)</sup>» : ما ورد هذا التعبير إلا في مناسبة بيان عظمة سلطانه تعالى ، وأنه هو وحده المتصرف في الأكونان بقهره وجبروته كالأمثلة التالية :

«**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**<sup>(٥)</sup>» [الأعراف : ٢٤] .

«**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الْثَّرَى**<sup>(٦)</sup>» [طه : ٦ - ٥] .

«**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**<sup>(٧)</sup>» [السجدة : ٤] .

قال الإمام ابن كثير في آية الأعراف <sup>(٨)</sup> «**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**» : «إنما يُسلِكُ في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والشوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧٣ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ١٠ وتفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣١٢ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٦٤ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٢ وكذا قال في تفسير آية (٢) من الرعد ج ٤ ص ٣٥٢ .  
«**يُمَرِّرُ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ** ، تعالى الله عُلُوًّا كبيراً» .

وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إماراتها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتأذر إلى الأذهان المشتبهين مُنفيٌ عن الله ، فإن الله لا يُشبهه شيءٌ من خلقه : «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

وهكذا سائر الآيات يفسرها السلف رضي الله عنهم على هذه الطريقة<sup>(١)</sup> .

وقد اتفقوا على وجوب تأويل الآيات الواردة في متشابه الصفات في بعض الأحوال مثل :

١ - أن يكون للمتشابه تأويل واحد يفهم منه فهماً قريباً ، فيجب القول به إجماعاً ، وذلك كقوله سبحانه : «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ» ، فهذه الآية ليس لها إلا تأويل واحد ، هو الكينونة مع الخلق بالإحاطة بهم علمًا وسمعاً وبصراً وقدرة وإرادة .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها : «أي رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو القفار الجميع في علمه على السواء...»<sup>(٢)</sup> .

٢ - أنه إذا توقف الدفاع عن الإسلام على التأويل لهذه المتشابهات وجب تأويلاً بما يدفع شباهات المشتبهين ويرد طعن الطاعنين<sup>(٣)</sup> .

ونقول أيضاً : إنه إذا خيف من ترك التأويل سوء فهم الناس ووقوعهم في الزيف وجب التأويل والأخذ بمذهب الخلف ، وما أكثر ما يحتاج إليه في هذا الزمن الذي قل فيه العلم وكثير الجهل ، وشاعت في أوساط المتعلمين أساليب التفكير العامية ، وطرق التصور السطحية .

(١) انظرها في مواضعها من تفسير ابن كثير .

(٢) ج ٨ ص ٣٤ .

(٣) انظر هاتين المسألتين في مناهل العرفان ج ٢ ص ١٨٢ .

لماذا وردَ المِحْكَمُ والمِتَشَابِهُ :

لقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحِكْمِ والأسرار الكامنة في ورود المِحْكَمِ والمِتَشَابِهِ في القرآن الكريم في هذه العبارة : ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحَكَّمٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٍ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغُ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ إِبْتِغاً لِلْفِتْنَةِ وَإِبْتِغاً تَأْوِيلَهِ . . .﴾

فتضمن هذا النص حِكْمًا علمية وعملية توسيع العلماء في بحثها ، نورد نبذًا منها فيما يلي :

أولاً : أن الله سبحانه احتاج على العرب بالقرآن ، إذ كان فَخْرُهُمْ ورياستهم بالبلاغة وحسن البيان ، والإيجاز والإطناب ، والمجاز والكتابية ، والإشارة والتلويع ، وهكذا فاشتمل القرآن كذلك على هذه الفنون .

ثانياً : أنزله الله سبحانه اختباراً ليقف المؤمن عنده ، ويرده إلى عالمه فيعظم به ثوابه ، ويرتاب به المنافق فيستحق العقوبة ، ولم يضرهم جهلها ولو افترقوا إلى علمه لم يطوه عنهم ، كما اختبر قوم طالوت بالماء فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِكُمْ بِنَهَرٍ﴾ ، فكما جاز ترك الأغراض في هذا وأن لا يقال ما العلة في هذا ، فكذلك يُؤْمِرُ بالمتشابه ، ولا يقال : لِمَ لَمْ يكُشِّفْ معانِيهَا ولم يوضحها .

ثالثاً : أنزل المتشابه لتشغل به قلوب المؤمنين ، وتتعب فيه جوارحهم وتنعدم في البحث عنه أوقاتهم ، ومدد أعمارهم ، فيحوزوا من الثواب حسبما كابدوا من المشقة ، والأثر له على غيره مما يعمل لربه ، كما تعبدهم بالصلوات ، والصيام ، والحج من المنازل إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وغيرها من الشرائع .

وهكذا كانت المتشابهات ميدان سباق تنقدح فيه الأفكار والعلوم لما ذكرنا من الحكم في ورودها في القرآن<sup>(۱)</sup> .

(۱) أخذناها عن مقدمة كتاب المبني باختصار وتصريف ص ۱۷۷ - ۱۸۲ وانظر مشكل القرآن للإمام ابن قتيبة ص ۶۳ وما بعد ، ومناهل العرفان ج ۲ ص ۱۷۸ - ۱۸۱ .

## الفصل الرابع عشر الناسخ والمنسوخ

تعريف النسخ :  
النسخ في اللغة يطلق بمعنىين :

المعنى الأول : الإبطال والإزالة ، كقولهم نسخت الشمس الظل :  
أزالته .

المعنى الثاني : النقل ، ومنه نسخت الكتاب أي نقلته من كتاب آخر .  
والمراد بالنسخ بالاصطلاح الشرعي : رفع الشارع حكماً منه متقدماً  
بحكم منه متأخر<sup>(١)</sup> .

وهذا العلم هام لدراسة القرآن الكريم ، وقد قال الأئمة : «لا يجوز لأحد  
أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ»<sup>(٢)</sup> .

وقد قال علي بن أبي طالب لقاض : «أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟  
قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت»<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر تعريف النسخ والتوضي في شرحه في الاعتبار للحازمي ص ٧ - ٩ .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق .

## أقسام النسخ :

وقد قسموا النسخ عدة تقسيمات ، أهمها بالنسبة لدراستنا هنا هذه

الأقسام :

أ - نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ، وهو أكثر الأقسام وقوعاً ، مثل نسخ آية العدة : «**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَرْوَاجَهُمْ وَصَبَّيْهَا لَأَرْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ**» ، فكانت العدة للمتوفى عنها زوجها حولاً ، ثم نسخت بأربعة أشهر وعشراً : «**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَرْوَاجَهُمْ يَتَرَبَّصُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**» .

ب - نسخ القرآن بالقرآن كما سبق ذكره .

ج - د - نسخ القرآن بالسنة أو العكس . مثل نسخ استقبال بيت المقدس بالتوجه إلى القبلة «**فَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**» ، فهذا نسخ للسنة بالقرآن .

ه - نسخ التلاوة مع بقاء الحكم كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه نزلت آية في رجم الزاني المتزوج ، وقد نسخت التلاوة وبقي الحكم .

و - نسخ الحكم والتلاوة معاً مثل حديث السيدة عائشة : كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن ، ثم نسخ بخمس رضعات معلومات يحرّمن ، والجملة الأولى منسوخة التلاوة والحكم ، أما الجملة الثانية فهي من منسوخ التلاوة فقط وحكمها باق عند الشافعية ، ولم يعمل المالكية والحنفية بهذه الرواية من أصلها . ومما يؤيدهم في ذلك أن الرواية غير متواترة ، ولا تثبت قرآنية شيء إلا بالتواتر ، كما لا ينسخ القرآن إلا بالتواتر ، وهذا الاعتراض يرد على ادعاء قرآنية آية الرجم .

## حكمة وقوع النسخ :

يحتل النسخ مكانة هامة في تاريخ الأديان ، لما كان يتحقق به من نقل الإنسان إلى الدين الذي يأتي به كلنبي بعد النبوات التي قبله ، حتى جاءت

شريعة الإسلام أكمل الشرائع وخاتمة الشرائع جميعاً، فكان من حكمته سبحانه أن نسخ بها الشرائع والأديان السابقة كلها.

وتفصيل هذا وشرحه : «أن النوع الإنساني تقلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة ، ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه غير الحال التي تناسب دوراً غيره ، فالبشر أول عهدهم بالوجود كانوا كالوليد أول عهده بالوجود سذاجة وبساطة ، وضعفاً وجهالة ، ثم أخذوا يتحولون من هذا العهد رويداً رويداً ، ومرروا في هذا التحول أو مرت عليهم أعراض متباعدة ، من ضآللة العقل ، وعمى الجهل ، وطيش الشباب ، وغشم القوة على تفاوت في هذا بينهم ، اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم تبعاً لهذا التفاوت .

حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستواهه وربطت مدنية بين أقطاره وشعوبه جاء هذا الدين الحنيف خاتماً للأديان ، ومتاماً للشرائع ، وجاماً لعناصر الحيوة ومصالح الإنسانية ومرنة القواعد ، جمعاً وفقاً بين مطالب الروح والجسد ، وأخى بين العلم والدين ، ونظم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد وأسر وجماعات وأمم وشعوب وحيوان ونبات وجماد مما جعله بحق ديناً عاماً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»<sup>(١)</sup>.

لذلك لم يقع خلاف بين الأمم حول النسخ ولا أنكرته ملة من الملل قط ، إنما خالف في ذلك اليهود ، فأنكروا جواز النسخ عقلاً ، وبناء على ذلك جحدوا النبوات بعد موسى عليه السلام ، وتذرعوا بذلك الرعم لإنكارهم نبوة عيسى ونبيه سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام .

وأثاروا الشبهة فزعموا أن النسخ محال على الله تعالى ، لأنه يدل على البداء ، أي ظهوررأيٍ بعد أن لم يكن ، وكذا استصواب شيء عُلم بعد أن لم يُعلم ، والبداء مستحيل في حق الله تعالى ، لأنه واجب له تعالى لذاته وصف العلم المحظوظ بكل شيء من الأزل إلى الأبد .

والجواب عن هذا من وجوه :

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٩٠ - ٩١ .

١ - قال الإمام الغزالى<sup>(١)</sup> يرد هذه الشبهة محتكماً إلى فهم معنى النسخ فقال : وهو عبارة عن الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت المشروط استمراره بعدم لحقوق خطاب يرفعه ، وليس من المحال أن يقول السيد لعبدة : «قم» ، ولا يبين له مدة القيام ، وهو يعلم أن القيام مقتضى منه إلى وقت بقاء مصلحته في القيام ، ويعلم مدة مصلحته ولكن لا ينبه عليها ، ويفهم العبد أنه مأمور بالقيام مطلقاً وأن الواجب الاستمرار عليه أبداً إلا أن يخاطبه السيد بالقعود ، فإذا خاطبه بالقعود قعد ولم يتوهם بالسيد أنه بدا له أو ظهرت له مصلحة كان لا يعرفها والآن قد عرفها ، بل يجوز أن يكون قد عرف مدة مصلحة القيام وعرف أن الصلاح في أن لا ينبه العبد عليها ويطلق الأمر له إطلاقاً حتى يستمر على الامثال ، ثم إذا تغيرت مصلحته أمره بالقعود .

٢ - إن القرآن الكريم رد على خرافية هؤلاء في شأن النسخ في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿مَا نَسْخَ مِنْ آيٍ أَوْ نُنسِّهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلْمَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فيدين أن مسألة النسخ ناشئة عن مداواة وعلاج مشاكل الناس ، لدفع المفاسد عنهم وجلب المصالح لهم ، لذلك قال : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ، ثم عقب فقال : ﴿أَلْمَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلْمَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

٣ - الاستدلال بوقوع النسخ بين شرائع الأنبياء من لدن آدم إلى موسى عليه السلام ، والمسيحيون يعترفون بذلك وبينية هؤلاء الأنبياء الذين نسخت شرائعهم أحکاماً من شرائع الأنبياء قبلهم ، فلماذا يجحدون بينية عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام متذريعين بزعم استحاللة النسخ . . .

وقد ذكر العلماء من النسخ الذي وقع في الشرائع السابقة أمثلة : منها أنه أحلَّ لآدم تزويج بناته من بنيه من بطن آخر ثم حرم ذلك . وأباح الله تعالى لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها . وكان نكاح الأخرين مباحاً لـ إسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها ،

(١) في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد أول القطب الرابع ص ٩٩ .

فإن كانوا صادقين في إيمانهم بالتوراة فواجب أن يقرروا بالنسخ ، ويؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما يكونون مكذبين للتوراة نفسها .

### التأليف في النسخ والمنسوخ :

هذا ولأهمية هذا العلم فقد عني به العلماء في تفاسيرهم ، وفي كتب أحكام القرآن ، فيبينوا ما وقع من النسخ في بعض الآيات ، بل أفرده بالتصنيف في كتب خاصة خلائق لا يحصون كما قال السيوطي<sup>(١)</sup> ، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبوداود السجستاني ، وأبو جعفر التحاش وابن الأنباري وابن العربي ، ومكي ابن أبي طالب وآخرون» .

إلا أنا نبه إلى أنه وقع توسيع كثير من بعض العلماء في النسخ ، فقالوا بنسخ آيات كثيرة لا دليل على نسخها ، وكثير من ذلك من باب التخصيص لا النسخ .

ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى : «ومما رزقناهم ينفقون». أدعى في هذه الآية وأمثالها أنها نسخت بأية فرض الزكاة . وليس ذلك بسديد لأن الآية عامة في النفقات الواجبة والمندوبة والمبادرة ، وهي بهذا لا تعارض آية فرض الزكاة ، فمن أين يأتي النسخ؟!! .

ومن أشهر الأمثلة وأهمها ادعاء أن آية السيف أي وجوب الجهاد قد نسخت : «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» ونحوها من الآيات كما نجده في تفسير الجلالين .

وليس ذلك مقبولاً ، لأن آية الجهاد والشدة في حال علاقات الحرب ، والآيات الأخرى تأمر بالإحسان ومكارم الأخلاق في حال السلم فكل من الآيات خاص بوقته المناسب له ، وليس ذلك من النسخ .

وغير ذلك مما يوجب التنبه والتحقق في هذا الأمر الخطير .

\* \* \*

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ٢٠ .

## الفصل الخامس عشر

### الأحرف السبعة

يجد الدارس لهذا الموضوع في دراسته هنا تطبيقاً لأصل عظيم من الأصول التي جاءت بها الشريعة ، وهو مراعاة اليسر على الناس ورفع العسر والمشقة عنهم ، وموضع اليسر هنا هو أن يسهل على العربأخذ كتاب الله تعالى ، والاهتداء بهداه .

تعريف الأحرف السبعة :

تعريف الحرف لغة : الحرف في أصل كلام العرب معناه الطرف والجانب ، وحرف السفينـة والجبل جانبيـما ، ومنه قوله تعالى : «**ومن الناس مـن يعبد الله عـلـى حـرـف فـإـن أصـابـه خـيـر اـطـمـأـن بـه ، وـإـن أصـابـه فـتـنـة انـقـلـب عـلـى وجـهـه خـسـرـ الدـنـيـا وـالـآخـرـة ذـلـك هـو الـخـسـرـانـ المـبـيـنـ**»<sup>(١)</sup> .

أي أن من الناس مـن لا يدخل في الدين دخـولـ مـتـمـكـنـ ، فـإـن أصـابـه خـيـرـ أي خـصـبـ وـكـثـرـ مـالـهـ أو مـاشـيـتـهـ اـطـمـأـنـ بـهـ ، وـرـضـيـ بـدـيـنـهـ ، وـإـن أصـابـه فـتـنـةـ اختـبارـ بـجـدـبـ وـقـلـةـ مـالـ انـقـلـبـ عـلـى وجـهـهـ أي رـجـعـ عنـ دـيـنـهـ إـلـى الـكـفـرـ وـعـبـادـةـ الأـوـثـانـ<sup>(٢)</sup> .

تعريف الأحرف السبعة اصطلاحاً : الأحرف السبعة سبعة أوجه فصيحة من اللغات القراءات أنزل عليها القرآن الكريم .

(١) سورة الحج ، الآية ١١ .

(٢) من تفسير الزجاج وقال بنحوه ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٧ - ٢٨ .

## بيان الأحرف السبعة في الحديث النبوى :

ولما أن سبيل درس هذا الموضوع هو النقل الثابت الصحيح من الذى لا ينطق عن الهوى ، ولا مجال للرأي والاجتهد فيه إلا لحسن الفهم ، والترجيح بين الآراء ، ويتعرف الصواب من الخطأ ، فإننا نقدم نخبة من الأحاديث الثابتة تلقي لنا الضوء على هذا الموضوع فيما يلى :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

«سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءاته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكت أساوره في الصلاة فصبرت حتى سلم ، فلبيته برباته ، قلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ، قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت له كذبت ، أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال أرسله ، أقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التي سمعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كذلك أنزلت» ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اقرأ يا عمر» ، فقرأت التي أقرأني ، فقال : «كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه» .

متفق عليه<sup>(١)</sup>

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال :

«كنت في المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه .

(١) البخاري ج ١ ص ١٨٤ ومسلم ج ٢ ص ٢٠٢ مختصرأ .

ودخل آخر فقرأ سوي قراءة صاحبه . فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ، فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما . فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري فقضت عرقاً ، وكأني أنظر إلى الله عز وجل فرقاً . فقال لي : يا أبي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف . فرددت إليه أن هون على أمتي . فرد إليّ الثانية اقرأه على حرفين . فرددت إليه أن هون على أمتي ، فرد إليّ الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف ، فلك بكل ردة ردتها مسألة تسالنها ، فقلت : اللهم غفر لأمتى ، اللهم اغفر لأمتى ، وأخرت الثالثة ل يوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم صلى الله عليه وسلم» .

أخرجه مسلم<sup>(١)</sup>

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أيضاً :

«أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاءة بني غفار ، قال : فأتأه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا» .

أخرجه مسلم<sup>(٢)</sup>

(١) صحيح مسلم في صلاة المسافرين (باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) ج ٢ ص ٢٠٣ وانظر سنن أبي داود في الصلاة ج ٢ ص ٧٦ والنسائي في مفاتيح الصلاة (باب جامع ما جاء في القرآن) ج ٢ ص ١٥٣ وتفسير الطبرى رقم ٣٣ ، ٣٨ ، ٨٩ .

(٢) صحيح مسلم في صلاة المسافرين ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، وأبو داود في الصلاة ج ٢ ص ٧٦ . والنسائي في مفاتيح الصلاة ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣ وتفسير الطبرى الأحاديث ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٦ .

عن ابن عباس رضي الله عنهمما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
 «أقرأني جبريل على حرف ، فلم أزل أستزیده ، ويزيدني حتى انتهى  
 إلى سبعة أحرف» .

متفق عليه<sup>(١)</sup>

ولمسلم عن ابن شهاب قال :  
 «بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً ، لا  
 يختلف في حلال ولا حرام» .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قصة اختلافه مع بعض  
 الصحابة في القراءة وأنه راجع النبي صلى الله عليه وسلم وعنده عليّ بن  
 أبي طالب فقال علي رضي الله عنه : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 يأمركم أن تقرءوا كما علّمتم». أخرجه الحاكم في المستدرك وأحمد والطبرى  
 وابن حبان<sup>(٢)</sup> .

دلالة هذه الأحاديث على أصول الموضوع :

دلت هذه الأحاديث على جملة قواعد هامة نوضحها فيما يلي :

١ - ثبوت التوسيعة في إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ثُبُوتاً قاطعاً ، نظراً  
 لصحة أسانيد الأحاديث الواردة في القضية صحة حازمة ، بل إن الحديث بلغ  
 درجة التواتر الذي يفيد اليقين ، لكثرة أسانيده ورواته من الصحابة فمن  
 بعدهم .

٢ - إن القراءة بأي حرف من هذه الأحرف يلزم فيها اتباع التلقى عن  
 النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) البخاري في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٤ وفي بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) ج ٤  
 ص ١١٣ ومسلم في صلاة المسافرين ج ٢ ص ٢٠٢ والمسند ج ١ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ و٢٩٩  
 و٣١٣ وتفسير الطبرى حديث رقم ١٩ .

(٢) المستدرك في كتاب التفسير ج ٢ ص ٢٢٤ والمسند ج ١ ص ١٥٠ وتفسير الطبرى  
 حديث رقم (١٣) .

وأول ما يدل على ذلك هذا التعبير **«أنزل»** الذي تواترت به الأحاديث  
فإنه يدل على أنه نزل به الوحي .

ويدل على ذلك أيضاً دلائل كثيرة في نصوص الأحاديث ، مما يدل على  
أن المعيار في قبول الحرف أو رده ليس هو عدم إلفته من السامع ، ولا كونه  
لهجة غير مألوفة له ، إنما الأساس في الموضوع كله هو السمع والتلقى عن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عدم التلقى عنه .

ومما يدل على بطلان تفويض القراءة للقارئ بما يختاره من تلقاء نفسه  
أن ذلك يؤدي إلى ذهاب إعجاز القرآن وتعريفه لأن يدل ، وذلك خلاف قوله  
تعالى : **«إنا نحن نزّلنا الذكر وإننا له لحافظون»** .

ثم إن التغيير والتبديل بمرا遁 أو بغير مرا遁 مرفوض بقوله تعالى في  
سورة يونس : **«وقال الذين لا يرجون لقاءنا أتت بقرآن غير هذا أو بدلها ، قل**  
**ما يكون لي أن أبدل من تلقاء نفسي إن أتيت إلا ما يوحى إليّ إنني أخاف إن**  
**عصيتك ربِّي عذاب يوم عظيم»** . فإذا كان هذا ليس من حق النبي نفسه صلى  
الله عليه وسلم ، فكيف يسْوَغ ذلك في حق أحد من الناس ؟ ولهذا قال النبي  
صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق **«هكذا أنزلت»** .

٣ - ثبتت عبارات الأحاديث المفصلة الواردة في الأحرف السبعة أصلاً  
هاماً يجب أن لا يغيب عن بال الباحث في تفسير الأحرف السبعة ، وهو أنها  
وجوه في أداء الألفاظ فقط ، أي كيفيات في القراءة ، وجه الدلالة على ذلك أن  
الخلاف بين الصحابة في القراءة إنما وقع حول قراءة الألفاظ ، ولم يكن  
اختلافاً في تفسير المعاني ، أنظر إلى قول عمر بن الخطاب : **«إذا هو يقرأ**  
**على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم»** ، وهكذا سائر  
العبارات تشير إلى أن القضية كانت تدور حول كيفية قراءة الألفاظ ، لا تفسير  
المعاني .

### الأحرف السبعة والقراءات السبع :

دلتنا النصوص التي درسناها ومحضنا دلالاتها على أن المراد بالأحرف

السبعة سبع لغات نزل بها القرآن ، ونود أن ننبه بأن الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبع المشهورة ، التي يظن كثير من عامة الناس أنها الأحرف السبعة . وهو خطأ عظيم ناشئ عن الخلط وعدم التمييز بين الأحرف السبعة والقراءات .

وهذه القراءات السبع إنما عرفت واشتهرت في القرن الرابع ، على يد الإمام المقرئ ابن مجاهد الذي اجتهد في تأليف كتاب في القراءات ، فاتفق له أن جاءت هذه السبعة موافقة لعدد الأحرف ، فلو كانت الأحرف السبعة هي القراءات السبع لكان معنى ذلك أن يكون لهم أحاديث الأحرف السبعة بل العمل بها أيضاً متوقفاً حتى يأتي ابن مجاهد ويخرجها للناس . . .

وقد كثر تبييه العلماء في مختلف العصور على التفريق بين القراءات السبع والأحرف السبعة ، والتحذير من الخلط بينها<sup>(١)</sup> .

#### ما هي حقيقة الأحرف السبعة :

إذا بحثنا بعد هذا عن حقيقة الأحرف السبعة بدقة نجد أمامنا مذاهب تجتهد في تفسير المراد بهذه الأحرف ، وتحاول تبيان الاختلاف في كيفية أداء الفاظ القرآن على الأوجه السبعة التي نزل بها القرآن ، ولعل هذا الخلاف أن يكون مستغرباً مع اتفاق أصحاب هذا المنهج على أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه في قراءة القرآن ، وقد هدانا البحث إلى معرفة سبب هذا الاختلاف ، وهو اختلاف الطريقة التي توصل إلى تحديد هذه الأحرف :

ذهب بعض العلماء إلى استخراج الأحرف السبعة باستقراء أوجه الخلاف الواردة في قراءات القرآن كلها صحيحة وسقيمة ، ثم تصنيف هذه الأوجه سبعة أصناف ، بينما عمد آخرون إلى التماس الأحرف السبعة في لغات العرب . فتكون بذلك مذهبان رئيسيان ، ذكر نموذجاً عن كل منهما فيما يلي :

---

(١) انظر كلماتهم في النشرج ١ ص ٣٦ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٦ وفتح الباري ج ٩ ص ٢٥ .

## المذهب الأول :

مذهب استقراء أوجه الخلاف في لغات العرب ، وفي القراءات كلها ثم تصنيفها وقد تعرض هذا المذهب للتنقيح على يد أنصاره الذين تتبعوا عليه ، ونكتفي هنا بأهم تنقيح وتصنيف لها فيما نرى ، وهو تصنيف الإمام الرازى نسقه فيما يلى :

قال أبو الفضل عبد الرحمن الرازى :

«فمن التأويلات التي يحتملها الخبر ولم يتقدم على نظامه تأويل هو أن كل حرف من الأحرف السبعة المتزلة جنس ذو نوع من الاختلاف».

- أحدها : اختلاف أوزان الأسماء من الواحد والثنية والجمع والذكير والمبالغة وغيرها . ومن أمثلته : «والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون» ، وقرىء «لآماناتهم» بالإفراد .

- الثاني : اختلاف تصريف الأفعال وما يسند إليه ، نحو الماضي والمستقبل والأمر ، وأن يسند إلى المذكر والمؤنث والمتكلم والمخاطب والفاعل والمفعول به .

ومن أمثلته : «قالوا ربنا باعد بين أسفارنا» بصيغة الدعاء ، وقرىء «رُبُّنَا بَعْدًا» فعلاً ماضياً .

- الثالث : وجوه الإعراب : ومن أمثلته : «ولا يضار كاتب ولا شهيد» قرىء بفتح الراء وضمها ، «ذو العرش المجيد» برفع «المجيد» وجره .

- الرابع : الزيادة والنقص : مثل : «وما خلق الذكر والأنثى» قرىء «والذَّكَرُ وَالْأَنْثَى» .

- الخامس : التقديم والتأخير : مثل : «فيقتلون ويقتلون» ، قرىء : «فِيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ، ومثل : «وجاءت سكرة الموت بالحق» ، وقرىء : «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ» .

- السادس : القلب والإبدال في الكلمة بأخرى ، أو حرف آخر : مثل :

«وانظر إلى العظام كيف ننشرها» بالزاي ، وقرىء : «نشرها» بالراء .

- السابع : اختلاف اللغات : مثل : «هل أتاك حديث موسى» تقرأ بالفتح والإملالة في «أَتَى» و«مُوسَى» وغير ذلك من ترقيق وتفخيم ، وإدغام... وهكذا ...

ثم قال أبو الفضل الرازي : «... فهذا التأويل مما جمع شواذ القراءات ومشاهيرها ومناسبتها على موافقة الرسم ومخالفته ، وكذلك سائر الكلام لا ينفك اختلافه من هذه الأجناس السبعة المتنوعة ، فإن وافق هذا التأويل معنى الخبر (أي حديث الأحرف السبعة) حذواً بحذو فقد أصحاب من أخذ به ، وإن لم يوافقه فلا شك في دخول معنى الخبر تحت هذه الوجوه ، وإن لم يكن مرتبًا عليها»<sup>(١)</sup> .

### المذهب الثاني :

إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل العرب الفصيحة . وذلك لأن المعنى الأصلي للحرف هو اللغة ، فأنزل القرآن على سبع لغات مراعيًّا ما بينها من الفوارق التي لم يألفها بعض العرب ، فأنزل الله القرآن بما يألف ويعرف هؤلاء وهؤلاء من أصحاب اللغات ، حتى نزل في القرآن من القراءات ما يسهل على جلّ العرب إن لم يكن كلهم ، وبذلك كان القرآن نازلاً بلسان قريش والعرب كما قال الإمام البخاري في صحيحه .

وقال جماعة من العلماء : إن هذه اللغات هي لغات : قريش ، وهذيل ، وتميم ، وأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر<sup>(٢)</sup> .

والحاصل أن هذين المذهبين أقوى ما قبل في تفسير حقيقة الأحرف السبعة . ولا خلاف بينهما في التبيبة ، لأن أحدهما يبين أوجه الاختلاف ،

(١) «الأحرف السبعة في القرآن» ص ١٠٠ نقلًا عن كتاب أبي الفضل الرازي نفسه وهو مخطوط محفوظ في مكتبة الأوقاف بحلب . وانظر فتح الباري ج ٩ ص ٢٣ - ٢٤ . ومناهل العرفان ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢١٧ .

والثاني ما تطبق عليه هذه الأوجه من لغات العرب . وهمما يحققان ما وردت به الأحاديث من نزول القرآن على سبعة أحرف يقرأ بها .

### أين الأحرف الستة :

ذلك ما تبين بالأدلة من حقيقة الأحرف السبعة ، والقول الصحيح فيها الذي يجب أن لا يخرج عنه الباحث ، فأين هي الأحرف السبعة ، هل ما يقرأ به المسلمون من القراءات اليوم يشتمل على الأحرف السبعة ويتحققها ، أو أنه حرف واحد ، وأين هي الستة الباقية إذن .

يرى المحققون في هذا الموضوع كالأمام الواقلناني وغيره أن الأحرف السبعة باقية وأن المصاحف العثمانية التي استنسخها عثمان بن عفان رضي الله عنه قد اشتغلت على الأحرف السبعة جميعاً .

وهذه عبارات الإمام المحقق أبي بكر الواقلناني تلقي الضوء ساطعاً على القضية ، قال رحمه الله ورضي عنه :

«لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه...»<sup>(١)</sup> .

«... لأن القوم عندنا لم يختلفوا في هذه الحروف المشهورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم التي لم يمت حتى علم من دينه أنه أقرأ بها ، وصوب المختلفين فيها ، وإنما اختلفوا في قراءات ووجوه آخر لم تثبت عن الرسول عليه السلام ، ولم تقم بها حجة ، وكانت تجيء مجيء الآحاد وما لا يعلم ثبوته وصحته وكان منهم من يقرأ التأويل مع التنزيل ، نحو قوله :

---

(١) انظر البرهان ج ١ ص ٢٣٥ وشرح صحيح مسلم لل النووي ج ٦ ص ١٠٠ .

﴿والصلاه الوسطى وهي صلاة العصر﴾<sup>(١)</sup> . ﴿فإن فاءوا فيهن﴾<sup>(٢)</sup> ، و﴿لا جناح عليكم أن تتغدوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج﴾<sup>(٣)</sup> . . . فمنع عثمان من هذا الذي لم يثبت ولم تقم الحجۃ به ، وأحرقه وأخذهم بالمتعين المعلوم من قراءات الرسول عليه السلام . . .<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

- 
- (١) أصل الآية ﴿حافظوا على الصَّلَواتِ والصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقَوْمَوَاللهِ قَانِتِينَ﴾ وورد عن بعض الصحابة زيادة «وهي صلاة العصر» ، وهي قراءة تفسيرية ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير الصلاة الوسطى أنها صلاة العصر .
  - (٢) الآية أصلها في المرأة يحلف زوجها لا يقربها : ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ . وقراءة ﴿فيهن﴾ تفسيرية .
  - (٣) الآية في بيان بعض أحكام الحج ، وجواز تعاطي التجارة ونحوها للحرم بالحج ، وقوله «في مواسم الحج» تفسير ليس من الآية .
  - (٤) الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها ص ١٧٤ - ١٧٥ نقلًا عن الانتصار للباقلياني مخطوط ج ١ ورقة ١١٣ .

## الفصل السادس عشر القراءات والقراء

تعريف القراءة :

القراءة في اللغة : مصدر لقرأ .

وفي الاصطلاح : «القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واحتلافها بعزو الناقلة»<sup>(١)</sup> .

وقولهم : كلمات القرآن : أي كلمة من أول القرآن إلى آخره ، بيان ما يندرج تحت قاعدة عامة ، وما هو حالة خاصة . مثل السكوت اللطيف على «عوجاً» من الكهف .

وقولهم : بعزو الناقلة : أي أن هذا العلم ثابت بالنقل الثابت المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا مصدر له سوى النقل والتلقين الشفاهي .

والمرئ : العالم بالقراءات ، الذي رواها مشافهة بالتلقي عن أهلها إلى أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو حفظ كتاب «الтиسیر» في القراءات مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً ، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة»<sup>(٢)</sup> .

---

(١) منجد المقرئين لابن الجزري ص ٣ . وانظر تعريفاً آخر في مناهل العرفان ج ١ ص ٤٠٥ .

(٢) منجد المقرئين ص ٣ .

## ضابط القراءة المقبولة :

ولما كان النقل بعزو الناقلة يختلف قوة وضعفاً بحسب حال الناقلة ، فقد احتاج الأمر إلى ضابط تميز به القراءة المقبولة وغير المقبولة .

وقد ضبط علماء القراءات القراءة المقبولة بقاعدة مشهورة متفق عليها بينهم ، وهي :

«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت رسم أحد المصاحف ولو احتمالاً ، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة»<sup>(١)</sup> .

ويتبين من هذا الضابط ثلاثة شروط يتوقف قبول القراءة على اجتماعها كلها وهي :

الشرط الأول : موافقة العربية ولو بوجه :

ومعنى هذا الشرط أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجوه النحو ، ولو كان مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ، فلا يصح مثلاً الاعتراض على قراءة حمزة : «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» ، بجر الأرحام بأنه عطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ، وهو خلاف مذهب البصريين ، لأننا نقول إن الكوفيين يجيزون مثل هذا العطف ، وهكذا... .

الشرط الثاني : موافقة خط أحد المصاحف ولو احتمالاً :

وذلك أن النطق بالكلمة قد يواافق رسم المصحف تحقيقاً ، إذا كان مطابقاً للمكتوب ، وقد يواافقه احتمالاً أو تقديرأً باعتبار ما عرفنا أن رسم المصحف له أصول خاصة به تسمح بقراءته على أكثر من وجه .

مثال ذلك : «ملك يوم الدين» رسمت «ملك» بدون ألف في جميع المصاحف ، فمن قرأ «ملك يوم الدين» بدون ألف موافق للرسم تحقيقاً ، ومن قرأ «مالك» فهو موافق تقديرأً ، لحذف هذه الألف من الخط اختصاراً .

---

(١) النشر بتصرف يسirج ١ ص ٩ .

**الشرط الثالث :** صحة السند : وهو أن يروي القراءة عدل ضابط عن مثله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير شذوذ ولا علة .  
ويشترط في هذه القراءة أن تناول ثقة أئمة القراء الضابطين ، بحيث تكون مشهورة لديهم متلقاة بالقبول عندهم .

وقد يتساءل من لم يتممْنْ حقيقة المسألة ، كيف يكفي لقبول القراءة صحة السند مع أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ؟ .

والجواب عن هذا التساؤل من أوجه كثيرة نكتفي منها بوجه هو أن القراءة ثابتة بنقل أهل المنطقة كلهم ، لكن بحكم قانون الانتخاب الطبيعي يوجد أفراد يفوقون أهل عصرهم ، حتى يكونوا مرجعًا لهم ، وكذلك شأن هؤلاء القراء فإن السند وإن اتصل بخبر صحيح ظاهراً ، لكنه متواتر في الحقيقة ، لذلك قالوا يشترط أن تناول ثقة الأئمة وتكون مشهورة بينهم .

#### **أنواع القراءات حسب أسانيدها :**

وبالنظر لما ذكرناه فقد قسموا القراءات بحسب أسانيدها ستة أقسام ، وبينوا حكم كل نوع ودرجته من حيث القبول أو الرد ، وهذه الأقسام هي :  
**الأول :** المتواتر : وهو ما نقله جمّعٌ غيرٌ لا يمكن تواظؤهم على الكذب عن مثلهم إلى متهى السند ، وهذا النوع هو غالب القراءات .

**الثاني :** المشهور : وهو ما صح سنده واستوفى شروط القراءة الصحيحة واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، وهذا تصح القراءة به ، ولا يجوز رده ، ولا يحل إنكاره .

**الثالث :** الآحاد : وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهر المذكور ، وهذا لا تجوز القراءة به .

**الرابع :** الشاذ : وهو ما لم يصح سنده ولو وافق رسم المصحف والعربة مثل قراءة : «ملك يوم الدين» ، بصيغة الماضي في «ملك» ونصب «يوم» مفعولاً .

الخامس : الموضوع : وهو المختلق المكذوب .

ال السادس : ما يشبه المدرج من أنواع الحديث ، وهو ما زيد في القراءة على وجه التفسير كما نقل عن ابن عباس أنه قرأ ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا﴾ . فكلمة صالحة ليست قرآنًا ، إنما هي تفسير .

وهذه الأنواع الثلاثة الأخيرة لا تحل القراءة بها ، بالأحرى والأولى إذا كانت قراءة الآحاد لا تجوز القراءة بها ، ويعاقب من قرأ بها .

### القراءات المتواترة وقراؤها :

تلقي الصحابة القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأت كل قبيلة القرآن كما تعلموه منه صلى الله عليه وسلم . ثم خرجت كل قبيلة في الفتوحات في كتبية أو كتائب مجتمعة إلى بعضها، واستقرت في البلاد تقرأ قراءتها، ويتلقها الأبناء عن الآباء فكان لكل بلد أو قطر قراءته المتواترة جيلاً عن جيل .

وكان من الضروري والطبيعي أن يستهر في كل عصر جماعة من القراء ، في كل طبقة من طبقات الأمة ، يتفوقون في حفظ القرآن وإتقان ضبط أدائه ، والتصدی والتفرغ لتعليميه ، من عصر الصحابة ، ثم التابعين ، وأتباعهم ، وهكذا ، وكان من القراء من بلغ الذروة في الإتقان والضبط ، كما كان ثمة قراء دونهم ، وأخرون ليسوا من أهل الإتقان ، فقام العلماء بتمحيص هذه القراءات ودراسة أحوالها ، وبينوا للناس المتواتر منها .

واعتباراً من عصر التابعين انتشرت القراءات كثيراً فشعرت طائفة من أهل العلم بضرورة الاحتياط للقرآن وقراءاته ، فنهض كل إمام بضبط القراءة عن الأئمة المقربين وهكذا في العصور التالية ، ثم أودعت تلك القراءات في مؤلفات خاصة ، كما فعله أبو عبيدة ثم الطبرى ومن جاء بعد . . .

ثم جاء الإمام أحمد بن موسى بن العباس المشهور بابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ ، فأفرد القراءات السبع المعروفة فدونها في كتابه «القراءات السبع» فاحتلت مكانتها في التدوين وأصبح علمها مفرداً يقصدها طلاب القراءات .

وقد بني اختيارة هذا على شروط عالية جداً ، فلم يأخذ إلا عن الإمام الذي اشتهر بالضبط والأمانة ، وطول العمر في ملازمة الإقراء ، مع الاتفاق على الأخذ منه ، والتلقي عنه ، فكان له من ذلك قراءات هؤلاء السبعة وهم :

- ١ - عبد الله بن كثير الداري المكي المتوفى سنة ١٢٠ هـ .
- ٢ - عبد الله بن عامر اليعصبي الشامي المتوفى سنة ١١٨ هـ .
- ٣ - عاصم بن أبي النجود الأستدي الكوفي المتوفى سنة ١٢٧ هـ .
- ٤ - أبو عمرو زبان بن العلاء البصري المتوفى سنة ١٥٤ هـ .
- ٥ - حمزة بن حبيب الزيارات الكوفي المتوفى سنة ١٥٦ هـ .
- ٦ - نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدنى المتوفى سنة ١٦٩ هـ .
- ٧ - أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي المتوفى سنة ١٨٩ هـ .

وقد تابع العلماء البحث لتحديد القراءات المتوترة ، حتى استقر الاعتماد العلمي واشتهر على زيادة ثلاثة قراءات أخرى ، أضيفت إلى السبع فأصبح مجموع المتوترة من القراءات عشر قراءات ، وهذه القراءات الثلاث هي قراءات هؤلاء الأئمة :

- ٨ - أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدنى المتوفى سنة ١٣٠ هـ .
- ٩ - يعقوب بن إسحاق الحضرمي المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .
- ١٠ - خلف بن هشام ، المتوفى سنة ٢٢٩ هـ .

#### شبهات بعض المستشرقين حول القراءات :

دأب بعض المستشرقين على محاولة التشكيك بالقرآن العظيم وتشوش أذهان الناس ، ولما أن القرآن محاط بأعظم أنواع الحفظ والصيانة في نقله وأدائها بالسطور والصدور ، كان سبيل هذه الشبهات هو المغالطة وتجاهل الحقائق الثابتة ، كذلك فعل المستشرق جولد تسيهير في موضوع القراءات ، قال جولد تسيهير<sup>(١)</sup> : «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٨ .

الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف النقط الموضوعية فوق هذا الهيكل أو تحته ، وعدد تلك النقاط ، بل كذلك في حال تساوي المقادير الصوتية ، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة الغربية الأصلية ما يحدده إلى اختلاف موقع الإعراب للكلمة ، وهذا إلى اختلاف دلالتها ، وإنذا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالضبط أو اختلاف الحركات في المحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطاً أصلاً ، أو لم تتحرّر الدقة في نقطه أو تحريكه» انتهى .

كذلك يقول بعض الكاتبين المعاصرین : «وقد يدل بعض الروايات - على تحریف بعض الكلمات القرآنية بمعنى قراءتها بشكل مختلف عن القراءة التي أنزلت على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ينسجم مع الرأي الذي ينكر توادر القراءات السبعة ، ويرى أنها نتيجة لاختلاف الروایة والاجتهاد» (!!!) .

ويستدل هذا القائل لزعمه هذا ببعض روايات ، وبعض نقول عن بعض الأئمة ، مثل ما نقله عن جابر الجعْفِي عن أبي جعفر - وهو محمد الباقر - رضي الله عنه قال في رواية طويلة جاء فيها قوله : «أما كتاب الله فحرفو...» .

هكذا يحاول هذا المستشرق وهذا الكاتب نسبة القراءات إلى تصرف فردي و اختياري شخصي ، مصادمين الواقع الثابتة ، والدلائل القطعية ، نكتفي منها بما يلي :

١ - إن أحداً لم يقبل القرآن إلا موافقاً للمتلقي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد مرت بنا وقائع من إنكار الصحابي لما سمع قراءة لم يسمعها من النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي كان من شروط القراءة المقبولة التلقي بالأسانيد .

وقد أحسن جولدسيهير بهذا الضعف الخطير ، فراح يستره بما هو أعظم ، فادعى أن شرط صحة الرواية لا يحد من حرية القراءة ، لأنه ليس عسيراً - في زعمه - أن يسند المرء قراءته إلى ثقات معترف بهم فتحرز قراءته القبول»<sup>(١)</sup> .

وهذا الزعم من تسيهير يكشف عن جهله بحقائق نقل القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم وحقائق مصطلح الحديث ، أو تجاهله المتعمد لهذه الحقائق كلها ، فإنه ليس يصح الحديث بمجرد الادعاء ونسبة القراءة أو الرواية إلى ثقة معرف به ، بل هناك شروط الراوي ومنها العدالة والضبط ، وهناك شروط سلسلة السندي ، وهناك السلامة من الشذوذ والعلة ، وما في ذلك من تفاصيل تجعل من المتعذر حصول الاعتراف بقراءة أو رواية غير ثابتة على الحقيقة . فضلاً عن أن حقيقة المطلوب في القراءة المقبولة هو التواتر كما حققناه ، لذلك لا تقبل قراءة رجل انفرد بها عن أهل بلده ، كما هو متفق عليه في هذا العلم .

٢ - لو كان ثمة تسامح في القراءة وفق رسم المصحف من غير توقيف على التلقى لوجب أن يكون عدد القراءات كثيراً كثرة تبلغ أضعافاً هائلة بالنسبة للقراءات الثابتة التي دققها العلماء وتحققوا صحة سندتها وتواترها ، وقد اعترف جولدسيهير نفسه بقراءات يسمح بها الخط ، لكنها اعتبرت عند العلماء منكرة ، مثل قراءة «ستكثرون» في قوله تعالى : «ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفون كلاماً بسماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كتم ستكترون» [الأعراف : ٢٤٨] .

ومثل قراءة حماد الرواية «أباه» عوضاً عن «إياه» في قوله تعالى : «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه» [التوبة : ١١٤] . ولو كان مجرد موافقة الخط كافياً لاعتمدت هذه القراءات . . . ، وحسبنا

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٨ .

هذا دليلاً على أن مجرد موافقة الخط لم يكن هو العمدة في صحة القراءة .  
وإذا كانت قضية القراءة نقل قبيلة ثم بلد ، فكيف يمكن لرسم المصحف أن  
يؤثر فيها ، أو يؤثر فيها الاجتهد الشخصي ؟ ! .

٣ - إن فذلكة تسيير للموضوع جرت على قلب القضية من أساسها ،  
وذلك أنه ليس هناك أي اختلاف في أن تجريد المصاحف العثمانية من الشكل  
والنقط كان بقصد استيعاب الأحرف المروية الثابتة من قبل عن النبي صلى الله  
عليه وسلم ، لكن هذا الزاعم قلب القضية وجعل هذا الرسم للمصحف سبباً  
لظهور القراءات فيما بعد بزعمه الباطل .

٤ - أن يكون الاستدلال بقراءة مكذوبة كما سبق ، أو تكون قراءة تفسيرية  
كما هو مقرر ، أو أن يكون النقل مُختلقاً على الإمام الذي نسب إليه ، مثل  
الكلام المنقول عن الإمام أبي جعفر رضي الله عنه ، فإنه مكذوب عليه ، لأن  
سنته من طريق كذاب ، قال أبو حنيفة ما رأى أكذب منه<sup>(١)</sup> .

فتحققنا من ذلك كله قطعية نقل القراءات المعتمدة ، بأقوى نقل ، هو  
التواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

#### القراءات الشاذة :

القراءة الشاذة : هي كل قراءة لم يتتوفر فيها شرط واحد من شروط  
القراءة الصحيحة التي سبقت في ضبط القراءة الصحيحة .

وهذا إطلاق للشذوذ قديم ، وكان الأصل فيه إطلاق الشذوذ على ما  
خالف رسم المصحف ، واستوفىسائر الشروط ، ويطلق على القراءة التي  
استوفت الشروط إلا أن سندها ضعيف : «رواية ضعيفة» ، كما أطلقوا عليها  
وصف : «الشذوذ» أيضاً على سبيل التوسع . أما إذا لم يوجد للقراءة سند فإنها  
تكون روایة مكذوبة مختلفة ، يكفر متعتمدتها حتى لو وافقت المعنى ورسم  
المصحف .

---

(١) علل الترمذى بشرح ابن رجب ص ٦٩ .

أما حكم القراءة الشاذة فيتلخص بما يلي :

- ١ - يحرم القراءة بها ، ولا تجوز الصلاة بها ، لأنها ليست قرآنًا ،  
ويعاقب القارئ بها ويُستتاب .
- ٢ - ذهب كثير من الفقهاء ومنهم الشافعية إلى عدم الاحتجاج بالقراءة  
الشاذة ، لأنها زعمت قرآنًا ولم يثبت ذلك .
- ٣ - أما الاحتجاج بالقراءات الشاذة في اللغة فالراجح قبولها ، لأنها لا  
تقل عن كثير من شواهد النحوين واللغويين .

وبعد :

فإن للأحرف السبعة والقراءات أهمية بالغة ، لما جاءت به من فوائد في  
تنزيل القرآن وحفظ لغات العرب ولهجاتها . ولزيادة الدلالة على إعجاز  
القرآن ، فإنها تؤيد بعضها بعضاً ، كما أن نظم القرآن المعجز يجري في كل  
قراءاته على ما هو عليه من الإعجاز : جزالة أو تتابع سرد ، ونغم موسيقي ، مع  
كثرة أوجه القراءات ، مما يزيد الدلالة على إعجاز القرآن الكريم <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

---

(١) انظر التوسيع في حكم نزول القرآن على سبعة أحرف وقراءاته في تفسير الطبرى ج ١  
ص ٧٠ - ٧١ والأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها للدكتور حسن ضياء الدين عتر  
ص ١٤٦ - ١٣٨ وغيرهما .

## الفصل السابع عشر

### فواحة السور

حسن افتتاح الكلام من غاية البلاغة وأسباب القبول ، لأنه أول ما يلامس أذن السامع ، فإن كان بليغاً جميلاً استدعاً انتباها السامع وإقباله ، وإن لم يكن له ذلك الواقع والتأثير .

وقد شهد أئمة البيان والبلاغة للقرآن الكريم أنه أتت فيه فواحة السور على أحسن الوجوه وأكملها ، حتى أخذت منه فنون حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال ، كما أخذت من أساليبه سائر فنون البلاغة .

ويجد الناظر في فواحة السور تفتناً عظيماً في أنواع الافتتاحيات ، أثارت انتباها البلغاء وعقدوا لها دراسات ، ومؤلفات ، لحسنها ، وكثرة فنونها ، وفيها الافتتاح بالتحميد ، والتسبيح للله تعالى ، والقسم ، والنداء ، والأمر ، والجمل الخبرية ، وحرروف التهجي ، وجمل الشرط ، والاستفهام ، والدعاء ، والتعليق<sup>(١)</sup> .

#### الافتتاح بحرروف التهجي :

وكان أعجب فواحة السور حالاً ، وإثارة للبحث ؛ هي حرروف التهجي ، التي افتتحت بها سور كثيرة من القرآن ، وعرفت باسم «الحرروف المقطعة في فواحة السور» ، مثل : «آلم» ، «آلمن» ، «آلر» ، «حـم» ، «قـ» ، «نـ» .

(١) انظر تفصيلها وبيان السور التي افتتحت بكل نوع منها في الإتقان ، النوع السادس .

فما هو الهدف أو المقصود من إيرادها؟

أكثر العلماء من المفسرين واللغويين ، وغيرهم قالوا : إن هذه الحروف المقطعة في فواتح السور هي أسماء للسور التي افتتحت بها ، قالوا : سُمِّيْت بها إيداناً بأنها كلمات عربية معروفة التركيب ، قد رُكِّبت من هذه الحروف وأمثالها ، وفي ذلك إشارة إلى الإعجاز ، وأن القرآن لولا أنه وحي من الله تعالى لما عجزوا عن معارضته<sup>(١)</sup> .

يؤيد هذا القول أحاديث ، منها ما في الصحيحين<sup>(٢)</sup> عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة : آلم السجدة ، وهل أتى على الإنسان» .

وكذا حديث : «يس قلب القرآن»<sup>(٣)</sup> .

و الحديث : «من قرأ آية «الكرسي» و «حم» المؤمن عصيم ذلك اليوم من كل سوء»<sup>(٤)</sup> .

وذهب كثير من المحققين إلى أن هذه الحروف هي حروف مسرودة على طريقة التعديد - أي النطق بلفظها فقط - تنبئها على إعجاز القرآن ، وكأنه يقول : إن القرآن منتظم من عين الحروف التي يتالف منها كلام العرب ؛ فلو لا أنه نازل من عند خالق القوى والقدر لما تضاءلت عن الإتيان بمثله قدرتهم ، ولا عجزت عن كلام يساويه طاقاتهم ، وهم فرسان البيان وأرباب الفصاحة والبلاغة .

(١) هكذا نقله أبو السعود في تفسيره ج ١ ص ١٦ وكثيرون ذكروه أنه اسم للسورة دون ذكر الإشارة إلى الإعجاز .

(٢) كلاماً في الجمعة البخاري ج ٢ ص ٥ ومسلم ج ٣ ص ١٦ .

(٣) أخرجه أحمد عن معاذ بن يسار مرفوعاً في ضمن حديث ج ٢ ص ٢٦ وأخرجه الترمذى عن أنس عنه صلى الله عليه وسلم وفيه «وقلب القرآن يس» . في فضائل القرآن رقم ٤٨٣٠ والبزار عن أبي هريرة . تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٧ .

(٤) أخرجه البزار والترمذى في فضائل القرآن رقم ٣٠٣٩ ، والأحاديث في تسمية السور «حم» و «يس» وغيرها كثيرة ، انظرها في الجامعين الصغير والكبير في لفظ «من قرأ» وفي مصادر التفسير المأثور .

وقيل : إن هذه الحروف جاءت ليدل كل حرف منها على اسم من أسمائه تعالى ، أو أنها لو وصلت صارت إسماً من أسماء الله تعالى . وهما منقولان عن ابن عباس . فقد ورد عنه أنه قال : آلم : «أَنَا اللَّهُ أَعْلَم». وقيل : إن الألف من «الله» ، واللام من «لطيف» ، والميم من «مجيد» .

ومثال وصلها ببعضها ما ورد عن ابن عباس : «الر» و «حم» و «ن» هي الرحمن .

واستشهدوا لهذا بأن العرب قد تستعمل الحرف تريده به الكلمة ، كقول الشاعر :

فُقِلْتُ لَهَا قَفِيَ فَقَالَتْ قَـ .  
أَيْ وَقْتُ .

والذي يترجح عندنا من هذه الأقوال وغيرها هو المذهب الأول ، وذلك لما ذكرنا من الأدلة ، ولأنه أقرب المذاهب لاستعمال العرب ، وإفاده الكلام . أما الرأي الثاني الذي يجعلها إشارة فقط إلى إعجاز القرآن ، لأن القرآن مؤلف من هذه الحروف وغيرها ، وكلامكم هو كذلك ، وحيث عجزتم عن الإتيان بمثله فقد ثبت أنه كلام الله ، فهذا الرأي له مؤيدات كثيرة .

منها : أن عدد السور التي افتتحت بحروف التهجي تسع وعشرون ، وهو عدد حروف الهجاء إذا جعلنا الهمزة والألف حرفين ، وعدد الحروف الواردة فيها هو ١٤ / أي نصف الحروف ، وأنها جاءت على نظام تركيب الكلمة عند العرب ، منها ما هو حرف واحد ، ومنها اثنان ، وثلاثة ، وأربعة ، وخمسة . ومن أقوى ما يؤيد به هذا الرأي أن عادة القرآن أن يذكر بعد هذه الافتتاحيات القرآن وعظمته ، إلا مواضع قليلة هي ثلاثة .

لكنه بعدما فسرَ الرأي الأول بأن هذه الفوائح أسماء للسور سميت بها إشارة للإعجاز فقد أصبح الرأي الأول يتضمن هذا الثاني ، وهو بذلك أقرب منه ، لما فيه من إفاده معنى مراد ؟ ليس مجرد الرمز والإشارة .

وأما جعل هذه الحروف رمزاً لاسم من أسماء الله تعالى منفردةً أو بوصلها مع بعضها فقد أُولئَكَ كثيرون من أهل الرياضيات والتعبدات، وراح كل واحد يحملها محامل حسبما يخطر له، فليس مما نرجحه، لعدم انصباطه، أما شواهد كلام العرب فمنضبطة بقرينة تفید المراد ، والله تعالى أَنْزَلَ القرآن بلسان عربي مبين .

وبناء على الرأيين الأقوى في تفسير هذه الفواتح لحظ العلماء دقة التناصب بينها وبين السور التي افتتحت بها ، وأتوا بعجائب غريبة :

قال الإمام الزركشي رحمه الله<sup>(١)</sup> : « ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المقطعة ، واحتصاص كل واحدة بما بُدئَتْ به ، حتى لم يكن لترد « آم » في موضع « آر » ولا « حم » في موضع « طس ». وذلك أن كل سورة بُدئَتْ بحرفٍ منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له ، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها ، فلو وضع « قـ » موضع « نـ » لُعِدَم التناصب الواجب مراعاته في كلام الله .

وسورة « قـ » بُدئَتْ به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف ، من ذكر القرآن ، والخلق ، وتكرير القول ومراجعةته مراراً ، و... ، وقول العتيد والرقيب ... وحقيقة الوعيد... وغير ذلك مما هو واضح فيها» .

ونضيف إلى ذلك ملائمة حرف القاف الشديد لموضع السورة ومعانيها كذلك .

«واشتملت سورة « صـ » على خصومات متعددة : فأولها خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم وقولهم : « أَجْعَلُ الْآلهَةَ إِلَاهًا وَاحِدًا ». ثم اختصار الخصميين عند داود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصار الملا

---

(١) فيما لخصه السيوطي في الإتقان : النوع الثاني والستون مع تصرف .

الأعلى ، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم ، ثم في شأن بنيه وإغوايهم . . .»<sup>(١)</sup> .

وهكذا نخلص بعد هذه الدراسة إلى أن حروف الهجاء الواقعة في فواتح السور لها شأن عظيم : افتتحت بها تسع وعشرون سورة ، وهو أكبر عدد بالنسبة لغيره من فواتح السور الأخرى ، وكل هذه السور مكية عدا البقرة وآل عمران ، وقد اشتملت السور التي افتتحت بهذه الحروف على بيان عظمة القرآن

(١) وأما إخضاع هذه الحروف إلى حساب رقمي - الذي ظهر حديثاً - فقد سبق بمحاولة قديمة هي حساب الجمل الذي توصل به بعضهم إلى وقائع معينة ، أو فضيلة شخص ، وكل منها وكذا ما يشابههما من أي تفسير للقرآن - على هذا النحو - باطل مردود ، وذلك لأنه طريق غير مقبول للفهم في كلام العرب ، ولا يجوز فهم القرآن بغير طرائق فهمهم ، ولما في ذلك من فتح أبواب لأهل الباطل ، فإن كتاباً كبيراً لا يخلو من أن تتفق فيه كلمات أو حروف مع رقم ما ، فهل يجعل ذلك دليلاً على حقيقة ما يزعمه أصحاب هذا الرقم؟!

ثم إن الله تعالى تحدى العرب والعالم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، من الكلام الدال على المعاني ، ولم يتَّحد أحداً بحروف تُعدُّ ثم تقسم على عدد ، فإذا خال هذا الأمر خروج بالقرآن أسلوباً ومضموناً وإعجازاً عن حقيقة القرآن . هذا لو فرضنا أن هذا الحساب المزعوم قد انتظم ، كيف وقد اختل على يد مدعيه ولم يتنظم .

وليس أمر العدد جديداً ، بل قد لاحظ أسلافنا كثرة هذه الحروف في السورة التي افتتحت بها ، بل ذهبوا لما هو أبعد من ذلك وهو تلاوة مضمون السورة لهذه الحروف ونغمها الموسيقي ، فعلمانا من هذه البحوث العددية المعاصرة تأكيد دراستهم فقط ، وهو إحكام القرآن ودقة نظمه وعمق أغواره ، ليس بطريق حساب عدد متوهם مزعوم بل بطريق دقة النظم وعمق التجاوب بين هذه الفواتح وسورها .

قال الزركشي : «وقد عد بعضهم القفافات التي وردت في سورة «ق» فوجدها سبعاً وخمسين ، مع أن آيات السورة خمس وأربعون ، وفي سورة «ن» تكرر هذا الحرف أربع عشرة ومائة مرة وأياتها اثنتان وخمسون . . .» .

كذلك أحصى العلماء عدد كلمات القرآن وحروفه ، وكلمات سوره وحروفها أيضاً ، فلم يكن أمر الإحصاء والعدد غائباً عنهم . لكن العلماء كانوا أبعد نظراً وأسداً مسلكاً فإنهم أخذوا من هذا العمل بيان إحكام القرآن في نظمه ومعناه ؛ كما رأينا .

وإعجازه ، كما أن كل افتتاح منها جاء ملائماً للسورة التي افتتحت بها ، لفظاً ومعنى ، شكلاً ومضموناً ، نغماً ودلالة ، مما يجعلها واقعة في موقعها لتمييز هذه السور التي افتتحت بها ، فتكون أسماء لها ، ومفاتيح افتتحت بها ، كما قال الإمام التابعي الجليل الحسن البصري رضي الله عنه : «سمعت السلف يقولون : إنها أسماء السور ومفاتيحها» .

\* \* \*

## الفصل الثامن عشر

# جمع القرآن الكريم حفظاً في الصدور والسطور

جمع القرآن يعني حفظه ، وأول ما ورد هذا التعبير ورد في القرآن «إن علينا جمعه وقرآنه» .

وهذا موضوع جليل ، قد عُنيَ العلماء بدرسه في كتب علوم القرآن ، بل أفردوه بالدراسة في مؤلفات خاصة متعددة ، نذكر منها هذه المؤلفات :

١ - «المصاحف» لابن أبي داود ، مطبوع .

٢ - «المصاحف» لابن أشته .

٣ - «الانتصار لنقل القرآن» للقاضي الإمام أبي بكر بن الطيب الباقلاني (٤٠٣ هـ) .

٤ - «نكت الانتصار لنقل القرآن» للإمام الصيرفي . مطبوع .

## جمع القرآن في الصدور

حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن :

كان النبي الكريم أعظم العالم حفظاً للقرآن ، وكان يتلو هذا القرآن عن ظهر قلب لا يفتر لاسيما في الليل ، حتى إنه ليقرأ في الركعة الواحدة العدد من السور الطوال .

ولزيادة التثبيت كان جبريل يعارضه بالقرآن كذلك .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : «كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه في كل

ليلة في شهر رمضان حتى ينساخ ، يعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة» أخرجه البخاري<sup>(١)</sup> .

وقال أبو هريرة : «كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كل عام مرة ، فُعرض عليه مرتين في العام الذي قُبض ، وكان يعتكف كل عام عشرًا ، فاعتكف عشرين في العام الذي قُبض» أخرجه البخاري<sup>(٢)</sup> .

### حفظ الصحابة للقرآن الكريم :

توفرت للصحابة العوامل التي يجعلهم يحرصون على حفظ القرآن إلى أقصى حد ، وتجعل حفظ القرآن يتوفّر فيهم إلى أبعد مدى ، ومن تلك العوامل :

١ - قوة ذاكرتهم الفذة التي عرفوا بها واشتهروا ، حتى كان الواحد منهم يحفظ القصيدة الطويلة من الشعر بالسمعة الواحدة .

٢ - نزول القرآن منجماً كما عرفنا من قبل .

٣ - لزوم قراءة شيء من القرآن في الصلاة ، وما هنالك من الفضل والثواب في تطويل المتفرق صلاته لنفسه .

٤ - وجوب العمل بالقرآن ، فقد كان هو ينبوع عقيدتهم وعبادتهم ، ووعظهم وتذكيرهم ، وقد ترجموه إلى سلوك وخلق وحضارة .

٥ - حض النبي صلى الله عليه وسلم على قراءة القرآن ، والترغيب بما أُعد للقارئ من الثواب والأجر العظيم ، والقوم أميون لا سبيل لهم إلا الحفظ عن ظهر قلب ، وقد حددت السنة أقصى مدة للمسلم يختتم بها القرآن شهراً ، أو أربعين يوماً .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله

---

(١) و(٢) في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٦ .

عليه وسلم يقول : «مَنْ قَرَا حِرْفًا مِّنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعِشْرِ أَمْثَالِهَا ، لَا أَقُولُ «الْمَ» حِرْفٌ وَلَكِنْ «الْأَلْفُ» حِرْفٌ وَ«الْلَّامُ» حِرْفٌ وَ«الْمِيمُ» حِرْفٌ» أَخْرَجَهُ التَّرْمِذِيُّ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَقْرَأَ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ ، قَلْتُ : إِنِّي أَجَدُ قُوَّةً ، حَتَّىٰ قَالَ : فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزَدُ عَلَى ذَلِكَ» مُتَفَقُ عَلَيْهِ .

#### ٦ - تعااهد النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بتعليم القرآن :

فَكَانَ الصَّحَابَةُ تَلَامِذَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ الْقُرْآنَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِيخَهُمْ ، يَتَعَااهِدُهُمْ بِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ ، فَإِذَا أَسْلَمَ أَهْلَ أَفْقٍ أَوْ قَبْيلَةً أُرْسَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْقَرَاءِ مَنْ يَعْلَمُ الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ ضَمِّهِ إِلَى حَلْقِ التَّعْلِيمِ فِي جَامِعَةِ الْقُرْآنِ النَّبُوَيَّةِ .

وَقَدْ وَافَتَنَا الْوَثَائِقُ الشَّابِثَةُ الصَّحِيحَةُ بِنَمَادِجٍ عَنْ كُثْرَةِ الْحَفَاظِ بَيْنِ الصَّحَابَةِ ، فَهَذِهِ حَرْبُ الْمُرْتَدِينَ فِي الْيَمَامَةِ يُقْتَلُ فِيهَا ، سَبْعُونَ مِنَ الْقَرَاءِ ، بَلْ ثَبَّتَ بِأَوْثُقِ الإِثْبَاتِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرْسَلَ فِي وِفَادَةٍ وَاحِدَةٍ لِتَعْلِيمِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ سَبْعينَ مِنَ الْقَرَاءِ ، وَهُمُ الَّذِينَ غُدِرُّ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ فِي طَرِيقِهِمْ وَقُتُلُوهُمْ ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ .

وَإِنَّا إِذ نُوضِحُ هَذَا نَذْكُرُ أَوْلَى جِيلَنَا بِوَاجْبِهِمْ تجاهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَنْ يَحْذُوا حَذْوَ سَلْفِهِمِ الصَّالِحِ فِي حَفْظِ الْقُرْآنِ ، أَوْ عَلَى الأَقْلَى أَنْ يَجْعَلَ الْمُسْلِمُ مِنْ تَحْصِيلِهِ وَدِرْسِهِ لِلْقُرْآنِ حَصَّةً كَسَائِرِ مَا يَدْرِسُهُ وَيَتَحَفَّظُهُ مِنَ الْمَعْارِفِ ، وَنَذْكُرُ ثَانِيًّا بِتَلْكَ الصِّيَانَةِ الْكَبِيرَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي أُحِيطَّ بِهَا الْقُرْآنُ مِنْ ذِيْهِ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَزِلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَيْنَا بِنَقلِ الْكَافِةِ عَنِ الْكَافِةِ .

عَلَى أَنَّ التَّارِيخَ إِذ يُسْجَلُ بِدَقَّةٍ سَمَاتِ مَجَمِعِ سَلْفِنَا ، فَإِنَّهُ فِي الظَّوَاهِرِ الْعَامَةِ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يُسْجَلَ كُلُّ حَالَةٍ عَلَى اِنْفَرَادٍ مِنْ حَالَاتِ السَّمَةِ الْعَامَةِ ، إِنَّمَا يُسْجَلُ الْحَالَاتُ الْخَاصَّةُ وَالْمُتَمَيِّزَةُ عَنْ سَائِرِ الْأَفْرَادِ فَهُوَ لَا يُسْجَلُ مِنَ الْأَطْبَاءِ كُلِّ طَبِيبٍ وَلَا مِنَ الْمُهَنَّدِسِينَ كُلِّ مُهَنَّدِسٍ وَلَا مِنَ الْعَابِدِ كُلِّ عَابِدٍ ، وَلَا مِنَ الْفَقِهَاءِ

كل فقيه ، إنما يسجل من هؤلاء وهؤلاء الأفذاذ الذين بزروا أقرانهم ، وفاقوا أندادهم ، حتى يكونوا كالمراجع لهم ، وحتى لا يتادر إلى الذهن لدى ذكر اختصاصهم غيرهم .

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى كبار المقربين ليأخذوا عنهم القرآن ، كما أرشد ذكر مناقب اختص بها واحداً منهم أو اثنين بالذكر ، ولم يفهم من ذلك أحد حصر القضية فيهم .

عن مسروق أنه قال : «ذكر عبد الله بن عمرو عبد الله بن مسعود فقال : لا أزال أحبه ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «خذلوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب» أخرجه البخاري<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا النحو ورد الحديث عن قتادة قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه : من جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : «أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ، وأبو زيد» أخرجه البخاري<sup>(٢)</sup> .

فقد ذكر أنس هؤلاء لمعنى خاص لاحظه ، أو أنهم هم الذين حضروا لذهنه<sup>(٣)</sup> .

(١) في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٦ .

(٢) ج ٦ ص ١٨٧ .

(٣) وأما روایة قول أنس : «مات النبي صلی الله علیہ وسلم ولم یجتمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد» ، أخرجه البخاري أيضاً عقب الروایة السابقة ، فليس يصلح أن نأخذ منها ما يخلّ بما قدمنا الدلالة القاطعة عليه .

أما السند : فقد انتقده العلماء بأنه خالف الروایة الأولى وهي الأصح عند البخاري كما أشار لذلك البخاري نفسه ، والمخالفة جاءت من وجهين : أحدهما التصريح بالحصر ، والآخر ذكر «أبي الدرداء» بدل «أبي بن كعب» ، وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصر في الأربعة .

وقد تنوّعت المواصفات التي سردت فيها قوائم القراء من الصحابة ، افهناك الأئمّة الذين اشتهروا أكثر ، وكانوا مصادر تلقى عنهم المسلمين وهم سبعة : «عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري»<sup>(١)</sup> . وهناك آخرون كثيرون ذكرهم العلماء .

وقد ذكر الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام - في كتاب القراءات الذي صنفه<sup>(٢)</sup> - القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فعدّ من المهاجرين : الخلفاء الراشدين الأربع ، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وسالمًا مولى أبي حذيفة ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة (وهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير) ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة .

وحفظ القرآن من الأنصار في حياة النبي صلى الله عليه وسلم : عبادة ابن الصامت ، ومعاذ أبو حليمة ، ومُجَمِّع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلد .

= وأما المتن : فلا يصلح فهمه على معنى نفي الحفظ عن غير هؤلاء ، وحسينا حديث أنس الأول دليلاً حاسماً في المسألة ، وغاية ما هنالك أنّ الرواية فهم الحصر من الحديث فرواه على المعنى الذي فهمه ، فأخطأ فيه ، وخالف الثقات ، لذلك قال الإمام البيهقي في المدخل «الرواية الأولى أصح» .

وأجيب عن المتن على تقديم صحته وسلامته من أي علة بأن المراد به الحصر الإضافي لا الحقيقي ، والمعنى : لم يجمعه على جميع الأوجه والأحرف والقراءات التي نزل بها إلا أولئك النفر .

الإتقان ج ١ ص ٧٠ ، ولا يشكل على ذلك ورود الرواية في البخاري لأنّ البخاري قد يورد الحديث من أكثر من وجه ، لبيان قوّة أصل الحديث ، والتبيّنه على ما في بعض الروايات فلا يقدح ذلك فيه لأن العمدة على الأصل .

(١) الإتقان ج ١ ص ٧٢ .

(٢) كما نقل عنه السيوطي في الإتقان ج ١ ص ٧٢ وقال إنه صرّح بأن بعضهم كمله بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لا يخل .

لكن هذا التعداد ليس للحصر قطعاً ، فهناك أبُي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأنس بن مالك .

وقد أضاف الإمام الذهبي<sup>(١)</sup> جملة من القراء إلى ما ذكره أبو عبيد وهناك غيرهم كثير يستخرجهم القارئ من دراسة الكتب المؤلفة في الصحابة ، ومما توارد به الروايات في المراجع<sup>(٢)</sup> .

وهكذا ثبت حفظ الصحابة للقرآن في صدورهم بما يبلغ رتبة التواتر بل يزيد عليها أضعافاً ، تجعلنا تيقن ما قاله الإمام أبو الخير بن الجزري : «إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة» .

وذلك مصدق البشارة التي وردت عن الأنبياء السابقين في وصف هذه الأمة : «أناجيلهم في صدورهم» ، وهو تحقيق للحديث القدسي : «إنني مُبَتَّلِيكَ وَمُبَتَّلٌ بِكَ ، وَمَنْزَلٌ عَلَيْكَ كِتَاباً لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرُؤُهُ نَائِماً وَيَقْظَانَ...»<sup>(٣)</sup> ، كما أن هذا من تحقيق الإعلان القرآن الذي كرره القرآن وأكده :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾ .

\* \* \*

(١) في كتابه طبقات القراء كما نقل عنه الزركشي في البرهان ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) ومن ذلك : أبو زيد الذي ورد اسمه في الصحيح . وكمثل هذه الصحابية التي وجدتها السيوطي ولم يعدها أحد وهي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ويسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن ، أنظر الإنقان ج ١ ص ٧٢ ، وكذلك أبو أمامة ، وكان يقرئ في مسجد دمشق مع أبي الدرداء .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة ج ٨ ص ١٥٨ - ١٥٩ في حديث طويل .

## جمع القرآن الكريم تدويناً في السطور

هذا الجمع هو لون من الحفظ يدوم مع الزمان ، ولا يذهب بذهاب الإنسان ، فلا غرو أن يتحقق أكمل تحقق لهذا الكتاب الذي تكفل الله تعالى بحفظه : «إنا نحن نزَّلنا الذِّكْرَ وَإِنَا لَهُ لَحَافِظُونَ» .

وقد رافق الجمع بالكتابة كل نجم من نجوم هذا القرآن منذ أن تنزل هذا النجم بالوحى ، إلى أن تكامل العمل بجمعه في المصحف جمعاً محظطاً بأشد أنواع العناية والحفظ ، حتى انتشر بين أمم الإسلام وهو في كل ذلك بإجماعها واطلاعها .

وتقتضي الدراسة الدقيقة تقسيم البحث في جمع القرآن إلى ثلاثة مراحل ، كما قسمها المحققون من قبل .

### جمع القرآن تدويناً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم :

لقد عُنِيَ النبي صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن عناية بالغة جداً ، فكان كلما نزل عليه نجم دعا الكتاب فأملأه عليهم ، فكتبوه على ما يجدونه من أدوات الكتابة حينذ مثل الرقاع ، واللخاف ، والأكたاف ، والعُسُب<sup>(١)</sup> . وقد اشتهر أن عدد كتاب الوحي خمس وعشرون كاتباً ، لكنه فيما يبدو أكثر من ذلك بكثير . فقد بلغ عدد الكتاب فوق الأربعين ، حسبما أفاده الإحصاء المستقصي لبعض المحققين<sup>(٢)</sup> ، وقد حَصَرَ النبي الكريم جهد هؤلاء الكتاب في كتابة القرآن فمنع من كتابة غيره إلا في ظروف خاصة أو لبعض أناس مخصوصين ، كما في الحديث الصحيح : «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئاً إِلَّا قُرْآنٌ ، فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئاً غَيْرَ قُرْآنٍ فَلِيُمَحِّهِ» أخرجه مسلم<sup>(٣)</sup> .

(١) الرقة : القطعة من الأديم أي الجلد ونحوه ، واللخاف الحجارة الرقيقة ، والعُسُب : سعف النخل يكتشط طرفه العريض ويكتب عليه .

(٢) ابن حديدة الانصارى في كتابه «المصابح المُضيّ في كتاب النبي العربي» وقد بلغ عدد الكتاب عنده أربعة وأربعين .

(٣) مسلم في الزهدج ٨ ص ٢٢٩ وأحمد ج ٣ ص ٢١ بلفظه ، وانظر في المسألة كتابنا منهج النقد ص ٣٩ وما بعد .

فتحقق بذلك توفر طاقة كبيرة لكتابه القرآن وترتيبه ، كما أخرج الحاكم<sup>(١)</sup> بسند على شرط الشيخين عن أنس رضي الله عنه قال : «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع . . .» ، ومقصود هذا الحديث فيما نرى هو أن «المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم» .

ومن هنا كان لا بد أن تتوفّر نسخ كثيرة من القرآن مدونة عند عدد من الصحابة مثل «أبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، فغير شك جمعوا القرآن ، والدلائل عليه متظاهرة» .  
وكذلك السيدة عائشة رضي الله عنها .

وثمة نصوص ثبتت كثرة كتابة القرآن وانتشاره مكتوبًا ، تؤكد ما ذهبنا إليه ، نذكر منها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو» ، متفق عليه<sup>(٢)</sup> .

وفي لفظ لمسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا تسافروا بالقرآن ، فإني لا آمن أن يناله العدو» .

وهذا ظاهر في وجود المصاحف عندهم مكتوبة كما أشار البخاري في صحيحه .

وكذلك كتابه صلى الله عليه وسلم المشهور إلى عمرو بن حزم : «أن لا يمس القرآن إلا ظاهر» أخرجه مالك والنسائي وابن حبان<sup>(٣)</sup> .

وقد تظاهرت الأخبار أن سبب إسلام عمر بن الخطاب هو سماعه القرآن يقرأ في المصحف من سورة طه .

وغير ذلك من الأخبار في هذا الباب يثبت وجود القرآن عندهم مكتوبًا في نسخ عديدة لديهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وبذلك تحقق للقرآن

(١) ج ٢ ص ٢٢٩ وانظر المرشد الوجيز لأبي شامة ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) البخاري ج ٤ ص ٥٦ ومسلم ج ٦ ص ٣٠ .

(٣) الموطأ ج ١ ص ١٥٧ والنسائي ج ٨ ص ٥٧ وموارد الظمان ص ٢٠٣ .

على عهد النبي صلى الله عليه وسلم الحفظ التام بنوعيه : حفظ الصدور وحفظ السطور .

جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

ثم لاحت في الأفق إشارات تحذر من الخطر ، وذلك نتيجة القتل الكبير الذي وقع في صفوف الصحابة في حروب الردة ، وكان قراؤهم أكثر إقداماً بين مقاتليهم ، فكثر فيهم القتل حتى دعا ذلك للتذكرة في المستقبل الذي سيواجهه المسلمون الدولتين الأعظم في العالم آنذاك ، كما فعلت لنا الروايات الصحيحة القطعية الثبوت ، نسوق منها هنا رواية الإمام البخاري :

أخرج البخاري <sup>(١)</sup> عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

أرسل إلى أبي بكر مقتلَ أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أثاني ، فقال : إن القتل قد استحرّ يوم القيمة بقراء القرآن ، وإنني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ، قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا تفهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجتمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهم ، فتبتعد القرآن أجمعه من العُسُب واللُّخافِ وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبه مع أبي حزيمة الأنباري ، لم أجدها مع أحد غيره : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه

(١) في فضائل القرآن (باب جمع القرآن) ج ١ ص ١٨٣ .

الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم» . وهذا النص يفيد تخوف الصحابة وحسابهم للمستقبل الذي يجب الحذر والاستعداد لما يطرأ للقراء في مجتمع فرض عليه الجهاد وأحدقت به الأعداء . ويدرك الحديث ما اقتضاه العمل من الجهد في قول زيد : «فتبتعت القرآن أجمعه من العُسْب واللَّخَافِ وصدور الرجال» .

إن هذا يعني في ضوء المعلومات الثابتة التي قدمناها معنى جليلاً هو أنه «طلب القرآن متفرقًا ليعارض<sup>(١)</sup> بالمجتمع عند من بقي من جمّع القرآن ، ليشتراك الجميع في علم ما جُمِع ، فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء ، ولا يرتاب أحد فيما يوضع المصحف ، ولا يشكوا في أنه جُمِع عن ملأ منهم»<sup>(٢)</sup> .

وفي ضوء هذا نفهم قوله : «ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره» .

وروى البخاري عن ابن شهاب قال : «وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال : «فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، فقد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» ، فألحقناها في سورتها في المصحف»<sup>(٣)</sup> .

فقد ورد من أكثر من طريق<sup>(٤)</sup> أن زيداً وعمر بن الخطاب قاما بعمل جمع

(١) أي يقابل وتدقق نسخته .

(٢) البرهان ج ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٤ .

وقد اخترنا أن قصة هذه الآية وقعت في جمع القرآن على عهد أبي بكر لاتحاد مخرج القصتين فإنهما ترويان عن زيد بن ثابت ، أما الجمع على عهد عثمان فمن روایة أنس بن مالك ، كما أنه من المستبعد جداً فقد شيء من مصحف أبي بكر ، وعمل الصحابة في عهد عثمان إنما كان نشراً للمصاحف عن مصحف أبي بكر ، وهو الذي جزم به الإمامان ابن كثير والزرκشي .

(٤) كما أخرجهما ابن أبي داود في المصاحف ص ١٢ و ١٧ و انظر الإتقان ص ٥٨ .

القرآن هذا «وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان» .

وقد فسر هذا القول بتفاصيل متعددة كلها تشير إلى غاية التثبت ، ولعل أولاًها عندنا هو الاستشهاد على أن ذلك كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فسره أبو شامة المقدسي ، وعلم الدين السخاوي . «ولذلك قال في آخر سورة التوبة : لم أجدها مع غيره ، أي لم أجدها مكتوبة على الشرط المذكور مع غيره» .

وإلا فإن خاتمة براءة محفوظة عنده وعند غيره من الصحابة ، مشهورة قد وردت أحاديث في فضلها .

وبهذا جمعت نسخة المصحف بأدق توثيق ومحافظة ، واستغرق هذا الجمع زهاء سنة ، هي مدة ما بين واقعة اليمامة ووفاة الصديق رضي الله عنه ، وأودعَت نسخة المصحف لدى الخليفة لتكون إماماً تواجه الأمة به ما قد يحدث في المستقبل ولم يبق الأمر موكلًا إلى النسخ التي بين أيدي كتاب الوحي ، أو إلى حفظ الحفاظ وحدهم .

ويعجبنا في هذا ما قاله الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي في كتاب «فهم السنن» : «كتابة القرآن ليست محدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب ، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وُجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيها القرآن منتشر ، فجمعها جامع ، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء<sup>(١)</sup> .

وما كان أقواه وأمته من خيط ذاك الذي جمع به الصحابة رضي الله عنهم كتاب الله تعالى .

وقد اعتمد الصحابة كلهم وبالإجماع القطعي هذا العمل وهذا المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وتتابع عليه الخلفاء الراشدون كلهم وال المسلمين كلهم من بعده ، وسجلوها لأبي بكر الصديق منقبة فاضلة

(١) البرهان ج ١ ص ٢٣٨ والإتقان ج ١ ص ٥٨ .

عظيمة من مناقبه وفضائله الجمة رضي الله عنه ، أثروا عليها وأشادوا بها ، لكونه أول من جمع القرآن ، أي هذا الجمع العظيم الموثق ، وحسبنا في ذلك ما ثبت عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : «أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله»<sup>(١)</sup>.

**جمع القرآن بنسخ المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه :**

إن ما يميز السياسة الراشدية نظرها الثاقب الذي يتدير الأمور ، بل الذي يسبق الحوادث قبل وقوعها ، كما سجلها المؤرخون قدیماً وحدیثاً ، وهكذا كان عمل أبي بكر والصحابة في جمع المصحف عدة ماضية آتت أعظم النتائج في مواجهة ما تطويه الأيام من تغيرات ومفاجآت<sup>(٢)</sup> ، فقد استجد في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ما يوجب نشر هذا المصحف وتعديمه على الآفاق ليتحقق الغاية التي جُمِعَ لأجلها واستغرق تلك الجهود والأوقات .

أخرج البخاري<sup>(٣)</sup> عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وآذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف نسخها ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف . والمراد أنه أول من جمع كتاب الله الجمع الموثق باطلاع جميع المسلمين عليه ، لما علمنا بالأدلة القاطعة الثبوت أن الصحابة كان عندهم القرآن مكتوباً .

(٢) نذكر هنا بموافقت الصحابة من روایة الحديث لما برب قرن الفتنة وظهر الكذب وكيف واجهوا الموقف بأحكام الوسائل العلمية في المحافظة على الحديث النبوی ، كما فصلناه في كتابنا منهج النقد في علوم الحديث ص ٥٥ - ٥٧ محققاً بالأدلة الثابتة .

(٣) ج ٦ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفه أو مصحف أن يحرق» .

فقد أفادت هذه الرواية فوائد لها أهميتها في فهم العمل الذي قام به عثمان بن عفان رضي الله عنه ، عُنيَ العلماء ببحثها ودراستها :

وأول ذلك : السبب الدافع للعمل الذي قام به عثمان وهو اختلاف الناس في وجوه قراءة القرآن ، حتى قرؤوه بلغاتهم - كما قال ابن التين<sup>(١)</sup> - على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض فحشى من تفاقم الأمر في ذلك فنسخت تلك الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش . . . .

وهذا يوضح لنا فرقاً جوهرياً بين عمل أبي بكر وعمل عثمان ، وهو أن عمل أبي بكر كان جمع القرآن كله في نسخة معتمدة يشترك فيها الجميع لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً في نسخة واحدة موثقة ذلك التوثيق ، بل كان ما وجد من نسخ المصحف عند كتابة الولي على مسؤوليتهم الخاصة .

وأما نوع الاختلاف الذي حدث بين الناس في القراءة فيليخصه لنا الإمام أبو بكر الباقلاني في الانتصار بأن عثمان «إنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبتت مع تنزيل . . . خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد»<sup>(٢)</sup> .

(١) الإنقاـن ج ١ ص ٦٠ ، وقارن بفتح الباري ج ٩ ص ١٩ .

(٢) البرهـان ج ١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والإتقـان الموضع السابق .

ثم إننا نجد ما يدل على أن العمل في نسخ المصاحف ساهم فيه غير هؤلاء الأربع المذكورين هنا ، وقد أخرج ابن أبي داود من أربعة طرق عن محمد بن سيرين قال : «جمع عثمان إثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار ، منهم أبي بن كعب...»<sup>(١)</sup>.

وتوفينا روايات تفصيلية بأسماء صحابة آخرين سوى أعضاء اللجنة الرباعية ساهموا في نسخ المصاحف ، حتى اجتمع من التبع إحصاء أسماء تسعة نفر منهم ، مما يقوى رواية الإثنى عشر ، ويشير إلى أن اللجنة الرباعية كانت هي الرئيسية ، ورفلها في العمل خباء ، عملوا معها لكتابة المصاحف التي تكفي لحاجة المسلمين»<sup>(٢)</sup>.

#### شروط الكتابة في المصاحف العثمانية :

وأما القواعد التي اتبعواها في كتابة المصاحف ، فكانت أصولاً هامة سارت عليها الأمة من بعد ، وقد صرّح الحديث بقاعدة هامة منها ، وحدثنا الروايات عن غيرها ، فمن مهمات ذلك :

١ - اختيار حرف قريش : لما جاء في الحديث : «وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا».

وهذا لا يدل على إبطال بقية الأحرف السبعة ، لما هو معلوم من قواعد رسم الصحف أنه غير مشكول ولا منقوط ، وأنه لم تثبت فيه ألفات المد حسب قواعد في رسم الألف وعدمهها ، فمثلاً «مالك» تكتب «ملك» و«الكتاب» تكتب «الكتب» .

ومن هنا كان لقراءة رسم المصاحف طريقان : الموافقة للرسم المكتوب تحقيقاً ، والموافقة احتمالاً وتقديراً .

(١) المصاحف ص ٣٤-٣٣ وانظر فتح الباري ج ٩ ص ١٦ .

(٢) قارن رأينا هذا بفتح الباري ج ٩ ص ١٦ - ١٧ ، وفيه التبع للزيادة على الأربعة . وراجع للتوضع نكت الانتصار لنقل القرآن للصيغة ص ٣٦٧ وما بعد .

قراءة «ملك يوم الدين» موافقة للرسم تحقيقاً . وقراءة «مالك يوم الدين» موافقة له تقديرأً .

لكن لا تجوز أي قراءة يحتملها الرسم إلا إذا ورد بها النقل المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو مقرر في ضابط القراءة الصحيحة ، غاية الأمر هنا أن يكون الرسم موافقاً للسان قريش تحقيقاً ، ولغيرهم تقديرأً<sup>(١)</sup> .

٢- إذا لم يمكن استيعاب كل الأوجه كُتب بعض المصاحف بعض الأوجه ، وكتب بعض آخر بأوجه أخرى مثل «وصى» ، «أوصى» .

٣- تجريد المصحف عن كل ما ليس قرآنأً ، حتى سرت هذه العبارة المأثورة التي تناقلها التابعون : «جردوا المصحف» .

٤- التثبت باللغ في الرسم ، كما قال كثير بن أفلح أحد الكاتبين مع اللجنة الرباعية : «فكانوا إذا اختلفوا في الشيء آخره» ، قال ابن سيرين : «أظنه ليكتبوه على العرضة الأخيرة»<sup>(٢)</sup> .

وقد ورد نحو ذلك بأكثر من وجه .

وبهذا كان عمل عثمان بن عفان متكاملاً في غاية الضبط والإتقان وقد حقق الهدف الذي قصد إليه من وراء هذا العمل من وجهين هما بيت القصيد :

آ- المحافظة على نص القرآن أن يدخل فيه ما ليس منه ، أو أن يتعرض لأي تحريف ، بسبب العوامل التي سبق ذكرها .

ب- اعتماد القراءات المتعددة المتواترة التي يمكن أن يقرأ بها القرآن ، كما ذكرنا في قاعدة الرسم ، وبذلك قضى عثمان رضي الله عنه على الخصم

(١) وأما رواية أنهم اختلفوا في التابوت فقال القرشيون : التابوت ، وقال زيد : التابوه ، فرفع إلى عثمان فقال أكتبوه «التابوت» فإنه نزل بلسان قريش ، فهذه الرواية في إسنادها كلام ، رواها الزهرى مرسلة ، وتفرد بوصولها من هو ضعيف ، وانظر فتح البارى ج ٩ ص ١٧ .

(٢) فتح البارى ج ٩ ص ١٦ .

بسبب القراءات بين المسلمين ، لأن الجميع علموا شرعية ما يقرأ به القرآن ، لاعتماده على الأصل المجمع عليه من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين .

يشير إلى هذا الهدف قول عثمان يرد على الخارجين عليه اعترافهم لحرقه المصاحف : «إنما منعتكم من الاختلاف . . .» .

### نشر عثمان المصاحف في الأمصار :

تم العمل الضخم الذي قام به عثمان وهو نسخ المصاحف بما لا يتجاوز كثيراً (سنة ٢٥ هـ) التي هي سنة غزو المسلمين إرمنية كما يثبته التاريخ<sup>(١)</sup> ، فأعاد عثمان الصحف إلى حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ووزع المصاحف على وجه يحقق المقصود ، ويزيل الإشكال فأرسل إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية بمصحف من المصاحف التي نسخت ، واحتفظ عنده بمصحف سمي «المصحف الإمام» ، وقد وقع الاختلاف في عدد هذه المصاحف ، والمشهور أنها خمس على ما قرره السيوطي ، لكن إذا أضفنا إليها المصحف الإمام كان المجموع ستة مصاحف .

لاحظ عثمان في هذا التوزيع إرداد الكتابة بالقراءة ، وهي العمدة بالنسبة لقراءة القرآن التي تحتاج إلى التلقى من الأفواه ، فأرسل إلى كل بلد قارئاً يرافق المصحف ويقرأ بالقراءة الموافقة لرسم المصحف ، على التوزيع التالي : زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني ، وعبد الله بن السائب مقرئ المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرئ المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرئ المصحف الكوفي ، وعامر بن عبد القيس مقرئ المصحف البصري<sup>(٢)</sup> .

وفي مقابل ذلك أمر عثمان بما سوى ذلك من المصاحف أن يحرق ،

(١) خلافاً لما توهّمه بعض السابقين ممن لم يحقق فزعم أنه كان سنة ٣٠ ، ومن ثم جاء بعض الأجانب ليبني على هذا القول الساقط خيالات باطلة ، وانظر تحقيق الترجيح في فتح الباري للحافظ ابن حجر .

(٢) بتصرف يسير عن مناهل العرفان ج ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

فاستجاب الصحابة كلهم لذلك ، وحمدوا صنيعه ، حتى عبد الله بن مسعود نفسه ، فإنه بعد أن امتنع قليلاً وافق طواعية ، كما ثبت ذلك بالأدلة القاطعة الثابتة عنه<sup>(١)</sup> .

وإنما صنع عثمان ذلك بهذه المصاحف الفردية لإزالة جذور الخلاف ومنابته .

وقد انعقد إجماع الأمة عَبْر كل العصور منذ عهد الصحابة على التزام المصحف الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم ، وعملت بذلك جميع الفرق الإسلامية ، لا يسمح أحد بمخالفة المصحف لا في رسمه ولا ترتيبه .

وهذه المصاحف في مختلف البلاد الإسلامية ولدى مختلف الفرق المسلمة لا تختلف في شيء عن مصاحف أهل السنة ، حتى في طريقة تقسيم السور وترقيمها ، الأمر الذي أثبت بالدلالة القاطعة لكل العقلاة المنصفين على اختلاف أديانهم «أن المصحف الذي نسخه عثمان قد توأط إلىنا بدون أي تحريف على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة ، فلم يوجد إلا القرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة ، وهذا الاستعمال الإجماعي من الجميع للنص المقبول نفسه حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المتصل الموجود معنا»<sup>(٢)</sup> .

#### فضيلة عمل عثمان :

وقد حمد المسلمين سلفاً فخلفاً لعثمان رضي الله عنه صنيعه ، حتى لقبوه جامع القرآن ، لما «وفق له من هذا الأمر العظيم ، ورفع الاختلاف ، وجمع الكلمة ، وأراح الأمة»<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر الآثار عنه في المصاحف لابن أبي داود تحت عنوان «رضا عبد الله بن مسعود لجمع عثمان ...» .

(٢) باختصار عن المستشرق (و. موبر) .

(٣) البرهان ج ١ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .

وقد ثبت عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال : «يا معاشر الناس ، اتقوا الله ، وإياكم والغلو في عثمان وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأمنا»<sup>(١)</sup> .

وقال عليٍّ رضي الله عنه أيضاً : «لو وليت ما ولني عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل»<sup>(٢)</sup> .

وقد عنيت الأمة الإسلامية بهذه المصاحف العثمانية أكبر عناية ، فاتخذت هذه المصاحف أصولاً يؤخذ منها ، وأئممة يقتدى في كتابة المصاحف بها ، حتى حدثنا الرجالون المسلمين العلماء ، والأئمة الكبار عن نسخ من هذه المصاحف أو قطع منها شاهدوها في بلاد الإسلام ، ولا تزال أجزاء هامة من بعض هذه المصاحف حتى عصرنا هذا تحفظ بها بعض دور الآثار الضخمة وتزهو بها على العالم .

ويحدثنا الإمام ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤ هـ) عن المصحف الشامي فيقول<sup>(٣)</sup> : «أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن ، شرقي المقصورة المعمرة بذكر الله ، وقد كان قد ياماً بمدينة طبرية ، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود سنة ٥١٨ ، وقد رأيته كتاباً عزيزاً ، جليلاً ، عظيماً ، ضخماً ، بخط حسن مبين ، قوي ، بحبر محكم ، في رقّ أظنه من جلد الإبل» .

وقد ظل هذا المصحف مفخرة تزهو بها دمشق ، ويحتضنها جامعها الأموي الكبير ، حتى كان الحريق الكبير الذي أصاب المسجد الأموي سنة

(١) فتح الباري ج ٩ ص ١٥ والنص أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص ٣٠ وابن الأباري والسياق لابن أبي داود لكن الجملة الأولى من سياق ابن الأباري ، وانظر الإنقاذ ج ١ ص ٥٩ ومقدمة في علوم القرآن ص ٤٦ ومناهل العرفان للزرقا尼 ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) المصاحف من أكثر من طريق ص ١٩ و ٣٠ وانظر البرهان ج ١ ص ٢٤٠ .

(٣) في كتابه فضائل القرآن المطبوع في آخر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٥ .

١٣١٠ هـ ، واحتراق فيه هذا المصحف الجليل<sup>(١)</sup> .

وهكذا سجلت الأمة الإسلامية بحفظها القرآن في الصدور والسطور منذ عهد الرسالة ، ثم بصنع أبي بكر وصنع عثمان بن عفان والصحابة في نسخ المصاحف مزية ليست لأمة غيرها ، هي اعتماد المسلمين على نسخ من كتاب ربهم ، منقولة على غاية الدقة والتحرى عن الأصل المكتوب عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، مع مقابلة ذلك كله بحفظه في صدور المسلمين كلهم ، ثم نقله كذلك عَبْرَ أجيالهم ، ليعرف لهم التاريخ على لسان المُوالي لهم والمخالف لدينهم بأنه أدق وأكمل مما يتوقعه أو يمكن أن يفعله أي إنسان ، تحقيقاً لقول الله تعالى : «وإنه لِكِتابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَزَرِّيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» .

\* \* \*

---

(١) قال الأستاذ العلامة الدكتور صبحي الصالح في كتابه مباحث في علوم القرآن ص ٨٩ : «وقد ذكر لي الزميل الأستاذ الدكتور يوسف العشن أن القاضي عبد المحسن الأسطواني أخبره بأنه قد رأى المصحف الشامي قبل احتراقه ، وكان محفوظاً في المقصورة ، وله بيت خشب» انتهى بحروفه .

## حفظ الله تعالى القرآن العظيم من التحريف والتبدل فيه والزيادة والنقصان أبد الآدين

لقد أثبتت البحث العلمي في حفظ القرآن على عهد الصحابة الكرام أنه قد ثبت قطعاً ويقيناً حفظ الصحابة للقرآن الكريم بعدد يفوق التواتر حفظاً في الصدور ، كما أنه حفظ تسجيلاً في السطور في الصحف حتى بلغ عدد النسخ جملة كبيرة عند كتاب الوحي الذين زاد عددهم على الأربعين .

وهذا يدل قطعاً على أن الله تعالى قد حفظ القرآن الكريم من التبدل والتحريف والزيادة والنقصان . ويدل على ذلك أيضاً أدلة أخرى كثيرة قطعية يقينية ، نذكر نبذة منها فيما يلي :

أولاً : قوله تعالى : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»<sup>(١)</sup> . فقد دل على أنه سبحانه هو الذي أنزل هذا القرآن وهو تكفل أن يحفظه من التلاعيب والزيادة والنقصان ، فكما يجب الإيمان قطعاً بأن هذا القرآن أنزله الله تعالى ، يجب الإيمان قطعاً بأن الله هو حافظ لهذا القرآن قطعاً . وذلك يوجب ألا يدخل عليه أي تحريف أو تبدل أو زيادة أو نقصان .

فلو جرى على هذا القرآن تبدل أو تغيير أو زيادة أو نقص : لما صحت الخبر في قوله تعالى : «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» ولما صدق الله تعالى وعده بالحفظ لهذا القرآن العظيم ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . فإن الله تعالى لا يخلف

(١) سورة الحجر ، الآية ٩ .

وعده ، وإن خبره صادق محتم الوقوع . ومن أصدق من الله قِيلًا ! ومن أوفى بعهده من الله !! فإنه سبحانه لا يكذب خبره ولا يتخلّف وعده ولا تنقض كفالته .

ثانيًا : قوله تعالى : «إن الذين كفروا بالذِّكْرِ لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»<sup>(١)</sup> .

فإنه لو جرى على هذا القرآن الكريم تبديل أو زيادة أو نقص : لكان ذلك منافيًّا ومعارضاً لقوله «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» فإن الله تعالى أخبر أن الباطل لا يأتي هذا القرآن ولا يتسرّب إليه لا في نصوصه ولا في معانيه ، فهو لا يعارض ولا ينافق ، ولا يُزاد فيه ولا ينقص منه ، لأن الزيادة فيه باطلة ليست منه ، والنقص منه هو إبطال لما هو منه حقاً دالاً على حق . فقوله تعالى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» دليل صيانته وحفظه من التلاعب والزيادة والنقص . وهذا الخبر القرآني لا يتخلّف ولا يتبدل . إذن فالباطل لا يمكن أن يتسرّب إلى هذا القرآن قطعاً ، لا في نصوص كلماته بزيادة أو نقص ، ولا في معانيه بتكييف أو تضليل .

ثالثاً : لو جرى على هذا القرآن الكريم تحريف أو زيادة أو نقص : لكان ذلك منافيًّا ومخالفاً لقوله تعالى : «وأوحى إليَّ هذا القرآن لِأنذركُم به وَمَنْ بَلَغَ» الآية . وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله «قل أي شيء أكبر شهادة قُل اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَوْحَيْتُ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ» . فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر به أول هذه الأمة وأوسطها وأخرها على حد سواء ، وجعل الله تعالى القرآن الكريم حجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على جميع العباد ، وبلا غاً عنه لكافة العباد إلى يوم المعاش ، فإنه صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة العامة للثقلين إلى يوم القيمة ، ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يبقى كتابه الذي أنزله الله عليه ، يبقى محفوظاً إلى يوم الدين ، لتقوم الحجة على العباد ، وليهتدوا به إلى سبيل

(١) سورة فصلت ، الآية ٤١ .

الرشاد ، ويلغّه آخر هذه الأمة كما بلغه صلى الله عليه وسلم لأولها .  
فلو جاز أن يجري عليه تحريف أو زيادة أو نقص لما تحقق إنذاره  
صلى الله عليه وسلم بالقرآن لمن يأتي من بعده ، كما أنذر الذين في عصره ،  
في حين أن الآية تُخبر بإنذاره صلى الله عليه وسلم لمن في عصره ومن بعده  
على حد سواء .

رابعاً : لو جرى على هذا القرآن الكريم تحريف أو زيادة أو نقص :  
لأدى ذلك إلى ذهاب الثقة به ، ولأدى ذلك إلى عدم الإيمان الجازم بما جاء  
به ، وكيف لا يوثق به ولا يقطع جزماً بما جاء به ، مع أن الله تعالى بين لعباده  
أن هذا الكتاب الذي هو بجميع آياته موثوق به ومقطوع بحقيقة لا يتطرق  
الباطل ولا الخلل إلى جانب من جوانبه . قال تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ  
يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فإن فحوى هذه الآية ونصها يناديان  
العباد ويخبرانهم أن الثقة كل الثقة ، واليقين كل اليقين ، والحق كل الحق ،  
في هذا الكتاب العزيز الذي لا يجد الباطل والوهم والكذب والافتراء والتلاعب  
وما شابه ذلك - لا يجد ذلك إلى الكتاب سبيلاً أصلاً .

فلو جرى عليه تحريف أو زيادة أو نقص لذهب الثقة واليقين به .

أما ذهاب الثقة بالمزيد فالأمر بَيْنَ . وأما ذهاب الثقة بالمزيد عليه فإن  
العقل يقول : لعل في هذا الأصل زيادة أيضاً ، مما يدرينا أنها كلها أصل ؟!  
وأما ذهاب الثقة به حالة النقص : فذلك لأن بين الأصل المنقوص عنه  
والشيء الناقص منه ارتباطاً في المعاني والأحكام والأخبار وغير ذلك ، ولو  
جرى عليه النقص لأدى ذلك إلى عدم الثقة بالناقص والمنقوص منه . فلا يكون  
أحد من المسلمين على ثقة بدينه ، لاحتمال نسخ بعض الصلوات أو تغيير  
أوقاتها أو الزيادة عليها ، أو نسخ الزكاة أو مقاديرها ، أو نسخ الصيام أو الزيادة  
فيه أو بتبديله بغيره ، أو نسخ الحج ، أو تحليل الخمر والميسر ونحوهما من  
المحرمات ، أو تحريم بعض أنواع من الحلال ، وبذلك لا يكون أحد من  
الناس على عبادة إلا وهو على شك منها ، ولا يُقدم على حلال ولا يُحجم عن

حرام إلا وهو متشكّكُ ، فَأَيْنَ الْإِيمَانُ وَالْجَزْمُ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى ! نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى !

إن ذلك يخل بوجوب امتحان الإسلام ، الذي كلف الله تعالى به جميع الأئمَّا ، في كل الأزمان ، وذلك الإِخْلَالُ ضدَّ نصوص القرآن القطعية التي تطالب الناس بالإسلام في كل عصر وآن . قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنذِيرًا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ لَا تُنذِرُوهُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ فلذلك كان أيضًا حفظ كتابه النازل عليه صلَّى الله عليه وسلم ثابت بالأدلة القطعية المفحمة للعقل ، كما تقدم .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نذِيرًا ﴾ فقد بيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ وظيفة سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله أن ينذر العالمين إلى يوم الدين ، دون أن يقتصر على أهل زمانه فحسب . ولا بد لهذا الخبر أن يتحقق وقوعه ، لأنَّه من الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ فكيف كان ذلك ؟ هل تحقق أم لا ؟ .  
نعم كان ذلك حَقًا ، كما بيَّنَ الله تعالى في قوله ﴿ وَأَوْحَى إِلَيْيَ هَذَا الْقُرْآنَ لَا تُنذِرُوهُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي وأنذر القرآن كل من بلغه هذا القرآن إلى يوم الدين ، لأنَّ هذا القرآن باقٍ كما هو ، إلى يوم الدين بحفظ رب العالمين<sup>(۱)</sup> .

خامسًا : إنَّ المعلوم قطعًا أنَّ القرآن الكريم كان في حياة الصحابة والسلف الصالحة بمنزلة الروح من الجسد ، به آمنوا بالإسلام ، وبه جاهدوا ، وبه جادلوا وقارعوا أهل الملل ، ولأجله عاشوا ، وبذلوا أرواحهم رخيصة من أجل القرآن ودعوتهم ، واستحفظوه حواافظهم الفذة ، يتلونه آناء الليل وأطراف النهار . فمن المحال أن يحصل في كتاب الله تعالى خلل أو زيادة أو نقص من أي شخص كان مهما عظم شأنه سهوًا أو عمداً إلا وينهض القوم بأجمعهم

(۱) تلاوة القرآن المجيد ص ۱۱ وما بعد ، وهدُيُّ القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان ص ۲۱۶ وما بعد ، كلامها لفضيلة أستاذنا الشيخ عبد الله سراج الدين حفظه الله .

كبيرهم وصغرهم ، دانيهم وقاصيهم لتقويم العوج وتصحيح النص . ويحاربون لأجله ، ويجهدون في سبيله ، لا سيما وأن إعداد نسخة المصحف التي أريد أن تكون مرجعاً للناس ، التي أعدت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم نسخ المصاحف عنها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ذلك كله باطلاع المسلمين كلهم ، ومراجعة كل من عنده علم بشيء من كتاب الله تعالى ، الأمر الذي يوقن به كل عاقل بأن نص القرآن الموجود هو طبق الوحي الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكما هو في اللوح المحفوظ ، يتعبد به المسلمون ربهم ، ويترشّف به القارئون ، ويهتدى به العالم<sup>(١)</sup> .

سادساً : على أنه لو كان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يعلم أن في القرآن الكريم الذي نشره عثمان في الأمصار إسقاطاً ، أو تغييراً ما ، لما أمكن أن يتجاوزه أبداً ، ولما جاز له أن يستغل وهو خليفة آلت إليه أمور المسلمين لمدة ست سنوات تقريباً يستغل بمقاتلة من خالفوه في السياسة عن تصحيح القرآن ومقاتلة الذين رضوا بتحريفه وتبدلاته . فكيف وهو لم يفعل شيئاً من

(١) ولم يُذكر في القافية كما زعم بعضهم : «أن المعارضة لا يمكن أن تترك هذه الفرصة تمر ، دون أن تستغلها في صراعها مع العهد وال الخليفة ، مع أنها لا تجد إشارة إلى ذلك في كلامهم» انتهى .

وهذا زعم عجيب جداً ، ناشيء عن الخطأ العظيم في فهم مجتمع الصحابة الذين نزع الله الغلُّ من صدورهم ، وكانوا إخواناً متحابين ، لا سيما في عصر الراشدين ، أو هو قياس غريب على الأوضاع السياسية الحاضرة التي فيها أحزاب حكومة وأحزاب معارضة .

وإلا فإن المعارضة في عهد الشيفين أبي بكر وعمر وكذا في عهد عثمان لا وجود لها إلا في خيال هذا القائل الواهم .

ومما يدل على ما نقول أنه لو لا أن الكلمة مجتمعة عند الصحابة كلهم على كتاب الله بأقصى تقدير وغيره لما كان يسع المعارضة المزعومة في كلام هذا القائل أن تفعل شيئاً . فدلل كلام هذا القائل نفسه على أن القضية هي قداسة القرآن ، والحفظ عليه ، والإجماع على العمل به وبسنة النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة جميعهم ، والأمة كلها في عهد الراشدين ومن بعدهم ، وإنما فلان سلطان بل لا وجود لمن خالف ذلك ، فلا يمكن أن يطرأ على القرآن تغيير قط .

ذلك ، ولا فاه بكلمة حوله ، بل كيف وقد كان هو يتلو القرآن وفق المصحف الذي نشره عثمان ويؤم الناس به في الصلوات .

سابعاً : لقد ذكر الله تعالى بالمدح والتعظيم - التوراة ، ثم ذكر الإنجيل ، ثم ذكر هذا القرآن الكريم ، وبين منزلته من بين الكتب الإلهية ، ورفعه رتبته على جميع الكتب ، وأنه المهيمن على الكتب السماوية التي نزلت قبله ! قال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التُّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ الآية . ثم قال تعالى ﴿فَقَرَأْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ الآية . ثم قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ .

فقد أخبر سبحانه عن رتبة هذا الكتاب العزيز بالنسبة لجميع الكتب قبله بأنه مصدق لما جاءت به من عند الله تعالى ، وأنه المهيمن على جميع الكتب قبله .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : «المهيمن الأمين . والقرآن أمين على كل كتاب قبله» .

وقال أيضاً : «المهيمن : الحاكم» .

وكلا قوله هنا صحيح .

إذا كان أمر القرآن وموقفه من الكتب السابقة أنه هو الأمين عليها ، والحاكم على ما فيها فلا يمكن أن يجري عليه تحريف في كلمة ، ولا زيادة أو نقص ، لأن ذلك يعني أن الله تعالى قد نصب على كتبه السماوية السابقة أميناً غير مضمون وحَكَماً غير مأمون . تعالى الله الحكم العليم عن ذلك علواً كبيراً .

بل إن في جعل الله تعالى هذا القرآن الكريم أميناً وحَكَماً على الكتب قبله شهادةً منه سبحانه بضمانة وأمانة هذا القرآن وحفظه من التلاعب فيه والزيادة والنقص ، ولذلك حُقًّ له أن يكون مهيمناً على الكتب السماوية قبله ،

حاكمًا عليها وشاهداً وأميناً ، يُحْقِّقُ ما فيها من حق ، ويُبْطِل ما حُرُّف منها ، أو زيد فيها .

وهكذا نجد الأدلة القطعية اليقينية تشهد بحقيقة نقل القرآن ، ذلك النقل الذي لم يكن لكتاب غيره قط باجتماع التواتر له حفظاً في الصدور وتذويناً في السطور . وضمان من الله تعالى بل ضمانات ، وتكفل بل كفالات ، وأي ضمان أعظم من ضمان الله ، وأي كفالة أحفظ من كفالة الله تعالى ، كيف وقد أكَّد عز وجل وعده القاطع وكفالته الضامنة بمؤكَّدات على غاية القوة ، فقد أكَّد بـ «إن» ، ثم أكَّد بالضمير «نحن» ، ثم باللام في «الحافظون» .

ثم زاد هذه المؤكَّدات قوة بالتعبير بصيغة العظمة التي في الجمع «إنا نحن» ، وبالجملة الإسمية الدالة على الثبات والدوم ، فأفاد ذلك تأكيداً بالغاً غاية الغايات ، ونهاية النهايات .

وبهذا آمنا بحفظ القرآن الكريم من التبدل والتغيير والزيادة أو النقص ، إيماناً بنزله من عند الله ، وإيماناً بمن أنزله وهو الله سبحانه وتعالى ، لنقبل عليه تلاوةً وتدبراً ، وعلماً وعملاً ، ودعوة للخلق إليه ، بكل يقين واطمئنان ، كما تشير لذلك عبارة الآية الكريمة ، لمن تأملاها :  
«إنا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» .

\* \* \*

## الفصل التاسع عشر

### رسم القرآن الكريم

هذا البحث يظهر لنا غاية حفظ الأمة لكتاب ربها ، حتى في طريقة

كتابته .

والمراد برسم القرآن هنا كيفية كتابة الحروف والكلمات في المصحف على الطريقة التي كتبت عليها في المصاحف التي أمر عثمان اللجنة الرباعية فكتبتها ، ووزّعها على الأمصار . ويُطلق عليه : رسم المصحف ، ومرسوم الخط<sup>(١)</sup> .

ويرجع هذا الرسم في الأصل إلى كتابة القرآن بإملاء النبي صلى الله عليه وسلم على كتاب الوحي ، فكتبوا حسبما يعرفون وبإشرافه صلى الله عليه وسلم واطلاعه عليه<sup>(٢)</sup> .

ومن هنا فإن جمهور العلماء ذهبوا إلى منع كتابة المصحف بما استحدث الناس من قواعد الأملاء ، للمحافظة على نقل المصحف بالكتابة على الرسم نفسه الذي كتبه الصحابة واستمرت عليه الأمة ، وقد صرخ الإمام أحمد فيه

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) وليس منشأ الرسم هو تأثر المسلمين العاطفي بإجلال الخليفة الشهيد عثمان بن عفان كما تصوره بعض الكاتبين متثيراً بأراء استشرافية .

(٣) مناهل العرفان ج ١ ص ٣٧٠ .

بالتحريرم فقال : «تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واؤ أو ألف أو غير ذلك»<sup>(١)</sup>.

وسئل الإمام مالك : هل تكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى .

قال الإمام أبو عمرو الداني : «ولا مخالف له من علماء الأمة»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا اتخذت الأمة الإسلامية الرسم العثماني سنة متبعة إلى عصرنا هذا ، كما قال البيهقي في شعب الإيمان : «وابطاع حروف المصاحف عندنا كالسِنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها»<sup>(٣)</sup> .

وكان ذلك للبالغة في المحافظة والاحتياط على نص القرآن حتى في مسألة شكلية هي كيفية رسمه .

لكن العلماء استثنوا من ذلك نقط المصاحف وتشكيلها ، لتمييز الحروف ، والحركات فأجازوا ذلك بعد اختلاف في الصدر الأول عليه ، وذلك لما اضطروا إلى ذلك لتلافي الأخطاء التي شاعت بسبب اختلاط العرب بالعجم .

وكان أول ما فعلوه من ذلك ضبط حركات الحروف ، وقد رمزوا لذلك في بادئ الأمر بنقط على كيفية معينة ، ثم تلا ذلك تمييز الحروف المعجمة عن غيرها .

وقد اختلفوا في أول من نقط المصاحف ، فقال المبرد : «أول من نقط المصاحف أبو الأسود الدؤلي صاحب علي بن أبي طالب ، وذكروا أن ابن سيرين التابعي كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر ، وذكر الجاحظ في

(١) المقعن لأبي عمرو الداني ص ٣٠ وانظر البرهان ج ١ ص ٣٧٩ .

(٢) المقعن ص ١٠ والبرهان الموضع السابق .

(٣) البرهان ج ١ ص ٣٨٠ .

كتاب الأمصار أن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف وكان يُقال له : نصر الحروف<sup>(١)</sup>.

وهكذا حافظت الأمة على صورة الحروف والكتابة وفق الرسم العثماني ، إنما أضافت له النقط والشكل ، لما أن ذلك دلالة على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها .

وإذا ما نظرنا لمتطلبات العصر وللحاجة إلى تسهيل قراءة القرآن وتعلمها على الناس فبوسعنا أن نقول : إنه يجوز كتابة القرآن بالرسم المعتمد لنا في مجالس التعليم ، لتسهيل التعلم ولكي يتم نقل المتعلم إلى الرسم الأصلي بسهولة ، نتيجة تدربه على أسلوب القرآن الكريم ، على ما يستفاد من رأي الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمة الله ، الذي توسع في هذه المسألة ولم يلزم العامي بالرسم العثماني قائلاً : «لثلا يقع في تغيير الجھال ، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه ، لثلا يؤدي إلى دروس العلم ، وشيء أحکمته القدماء لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجۃ»<sup>(٢)</sup> .

### أحكام تختص بالمصحف :

لما كان المصحف يضم بين دفتيره كلام الله تبارك وتعالى ، فقد اختص بأحكام شرعية ليست لغيره من الكتب مهما جلتْ أو عظمتْ أهميتها ، وقد عُني العلماء بتفصيل تلك الأحكام ، وتفریعها ، نذكر مهام منها فيما يلي :

١ - كره كثير من العلماء بيع المصاحف وشراءها ، لما أخرج ابن أبي داود عن عبد الله بن شقيق قال : «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشدون في بيع المصاحف» .

والمحترر عند بعض الأئمة ومنهم الشافعية كراهيّة البيع دون الشراء ، والثمن يتوجه إلى الورق أو أجراة الكتابة ، أو يتوجه لهما معاً .

(١) البرهان ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) البرهان ج ١ ص ٣٧٩ .

ولعل هذا بالنسبة لمن عنده مصحف في بيته فلا يبيعه ، أما أصحاب المكتبات فلا يمكن تطبيق ذلك عليهم ، لما فيه من تعطيل صالح المسلمين ، غير أنه لا يسمى بيعاً بل هبة ، ولا يقال اشتري بل استوهد ، تأدباً واحتراماً .

٢ - يُستحب تقبيل المصحف وتطيبه ، وجعله على كرسي ، ويحرم توسده ، لأن فيه امتهاناً ، وكذا مد الرجلين إليه .

٣ - يستحب الاستياك لقراءة القرآن .

٤ - إذا احتج إلى تعطيل أوراق فيها قرآن لبلاء أو نحوه فلذلك طرق : غسلها بالماء إن أمكن أو إحراقها بالنار ، واختار الحنفية أن يُحفر له في الأرض ويُدفن في موضع بعيد عن أن تطأ الأقدام .

٥ - اتفق جماهير العلماء ومنهم الأئمة الأربعة على تحريم مس المصحف للمحدث حديثاً أصغر أو أكبر ، لقوله تعالى : «لا يَمْسِهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» ، ولما ثبت في الحديث : «أَنْ لَا يَمْسَيَ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

---

(١) انظر هذه الأحكام وغيرها في البرهان ج ١ ص ٤٥٩ و ٤٨٠ والإتقان ج ٢ ص ٤٧٧ - ١٧٣ ، وانظر تفصيل مسألة مس المصحف في كتابنا هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الطهارة والصلاه .

## الفصل العشرون

### إعجاز القرآن الكريم

المعجزة في اصطلاح علماء التوحيد هي : «أمر خارق للعادة مقوون بالتحدي مع عدم المعارضة» .

ويطلق على المعجزات دلائل النبوة وأعلام النبوة ، ونحو ذلك ، وهذه الألفاظ إذا سُميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب ولا في السنة ، وإنما فيه لفظ الآية ، والبينة ، والبرهان»<sup>(١)</sup> .

الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر :

قد يكرم الله تعالى بعض أوليائه من المتقيين الأبرار بأمر خارق يجريه له ، ويسمى ذلك «الكرامة» .

وثمة فرق شاسع بين المعجزة والكرامة ، لأن الكرامة لا يدعى صاحبها النبوة ، بل لا يتحدى بها الناس ، وإنما تظهر على يده لصدقه في اتباع النبي ، لذلك قرر كثير من المحققين كالأئمأ أحمد بن حنبل وغيره أن الكرامات التي تقع للأولياء هي من جملة معجزات الأنبياء ، وهذا حق وصواب ، لأن هؤلاء الأبرار ما كانت تقع لهم هذه الخوارق لولا اعتقادهم بالاتّباع الحق للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيامهم بدعاوته ، فكانت الكرامة لهم معجزة للنبي

(١) لواحة الأنوار البهية للسفاريني ج ٢ ص ٢٧٨ نقلأ عن الجواب الصحيح لابن تيمية ، لكن يجب التبه إلى التمييز بين المعجزة والآية أو البرهان والبينة في اصطلاح علماء التوحيد .

صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم تقررت هذه القاعدة : «كل كرامة لولي معجزة لنبيه» .

وهذا يبين لنا أن شرط الكرامة للولي صدق الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم لكن ليس من شرطه العصمة ، فإن الولي قد يقع في المعصية ، أما الأنبياء فقد عصّهم الله تعالى .

وأما السحر فهو أبعد شيء عن المعجزة أو الكرامة ، وإن كان قد يقع فيه غرابة وعجائب ، لكنه يفترق عن المعجزة والكرامة من أوجه كثيرة تظهر في شخص الساحر وفي عمل السحر :

فمما يفترق به الساحر عن الولي ركوب متن الفسق والعصيان ، والطاعة للشيطان ، والتقرب إلى الشياطين بالكفر والجناية والمعاصي ، حتى ترى الساحر أكذب الناس وأشدّهم شراً .

وأما عمل السحر فقد يكون مُستَغْرِباً طريفاً ، لكنه لا يخرج عن طاقة الإنسان والجن أو الحيوان ، كالطيران في الهواء مثلاً ، بل هو أمر مقدور عليه لأنّه يتربّ على أسباب إذا عرفها أحد وتعاطاها صنع مثلها أو أقوى منها ، لذلك ما إنْ يُواجه السحر بالحقيقة حتى يذهب سدى ، **﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حِيثُ أَتَى﴾** ، ومن هنا خضع السحر لموسى عليه السلام ، لأنّهم وهم أعرف الناس بالسحر ، كانوا أكثر الناس يقيناً بحقيقة معجزته ، وصدق نبوته فما وسعهم أمام جلال المعجزة الإلهية إلا أن خروا سجداً وقالوا : آمنا برب هارون وموسى .

نوع المعجزة وحكمته :

وتنقسم المعجزات إلى قسمين :

**القسم الأول : المعجزات الحسية :**

مثل معجزة الإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم حتى روى المئين ، وتکثير الطعام القليل ، وقلب الحصى حية ، وإحياء الموتى . . .

القسم الثاني : المعجزات العقلية :

مثل الأخبار عن المغيبات ، والقرآن الكريم ، واستجابة الدعاء .

وقد جرت سنة الله تعالى كما قضت حكمته أن يجعل معجزة كلنبي  
مُشَاكِلَةً لما يُتقن قومه ويتفوقون فيه . ولما كان العرب قوم بيان ولَسْنٍ ، يُقادون  
بِمِقْوَلِهِمْ كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الكبرى هي القرآن الكريم .

مصدر علمنا بإعجاز القرآن :

وقد أُعلنَ إعجازُ القرآن على العالم من أعظم مصادر ثابت وهو القرآن  
نفسه ، حيث نادى على رؤوس الأشهاد وفي كل جيل وقبيل يتحدى الناس بل  
العالم أن يأتوا بمثله ، قال تعالى : «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ، فَلَيَأْتُوا  
بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ»<sup>(١)</sup> .

فقد كَبَّلُهم بالعجز عن هذا التحدي فلم يفعلوا ما تحدّاهم ، فجاءهم  
بتخفيف التحدي فتحداهم بعشر سور فحسب في هذه الآية :

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَحِبُّوْ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمٍ  
اللَّهُ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»<sup>(٢)</sup> .

ثم أرخى لهم حبل التحدي ، ووسع لهم غاية التوسعة فتحداهم بسورة  
واحدة أيّ سورة ولو من قصار السور ، قال تعالى : «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا  
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»<sup>(٣)</sup> .

وقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر عاماً  
وال المسلمين قليل مُسْتَضْعَفُونَ ، وكان الوحي يتتابع وهو يتحداهم ، ويفضح  
عجزهم الذي استبان وظهر لكل من له عين تبصر ، وأذن تسمع ، وعقل يعي ،

(١) سورة الطور ، الآيات ٣٣ و ٣٤ .

(٢) سور هود ، الآيات ١٣ و ١٤ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٣٨ .

وقد قطع الله عليهم بل على الثقلين كلهم منافذ اللذود لهذا الإعلان الحاسم  
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ  
بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضِ ظَهِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقد أمعن القرآن في هذا التحدي وأكده في سورة البقرة المدنية ،  
فتحداهم ثانية بسورة منه ، وأكده عجزهم عن ذلك بالإعلان على العالم أنهم لن  
يستطيعوا ذلك ، ولن يفعلوه أبداً :

﴿وَإِنْ كُتْمَ فِي رَبِّ مَا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا  
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كَتْمَ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعِلُوا وَلَنْ تَفْعِلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ  
الَّتِي وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

### القدر المعجز من القرآن :

وهكذا نجد القرآن تحدي العرب أن يأتوا بمثل سورة واحدة من القرآن ،  
ولو كانت من قصار سوره ، وإذا كانت أقصر سورة فيه هي سورة الكوثر تتألف  
من ثلاث آيات قصار علمنا أن كل آية طويلة معجزة ، وكل عدة آيات قصار  
تبليغ سورة الكوثر أو أكثر من ذلك فهي معجزة كذلك .

وإذا علمت أن عدد آيات القرآن يزيد على ستة آلاف آية علمت كم عدد  
المعجزات في القرآن الكريم ، فضلاً عن النظر فيما يحمله من أوجه الإعجاز  
المتعددة ، فتكون معجزاته بذلك كثيرة متنوعة يضيق عنها الحصر والتعداد .

### خصائص إعجاز القرآن :

إن من المقرر المعلوم أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى بين سائر  
المعجزات ، لما اختص به في إعجازه من خصائص ليست لمعجزة سواه .

١ - اختص القرآن : «مع كونه معجزاً أنه معجز لجميع المكلفين ،  
فوجب في الحكمة أن يكون أمراً يبقى ببقاء التكليف ، ولذلك تكفل الله تعالى

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات ٢٣ و ٢٤ .

بحفظه وحراسته ، وخصّه بأن أودعه من علم الأولين والآخرين ومن دلالة الحرام والحلال ما يدعو إلى تحفظه والتوفّر على تأمله . . .»<sup>(١)</sup> .

٢ - اختص القرآن بكونه معجزة بذاته بخصوصية ثانية انفرد بها عن جميع المعجزات بل عن جميع البراهين والبيانات ، قال ابن خلدون :

«إن الخوارق في الغالب تقع معايرة للوحى الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده في عينه ، ولا يفتقر إلى دليل معاير له كسائر المعجزات مع الوحي ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم «ما من نبيٌّ من الأنبياء إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحى الله إليّ» ، فارجو أن تكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة»<sup>(٢)</sup> . يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهي كونها نفس الوحي ، كان المصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثير المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة»<sup>(٣)</sup> .

٣ - ثمة خصوصية أخرى بالغة الأهمية هي أن الإعجاز في الخوارق الحسية أنها أمور مخالفة للمعتاد من سنن الكون ، وقواعد الطبيعة ، فتتأتي المعجزة الحسية ويدركها الناس بتلك المخالفة لقوانين الطبيعة فيعلمون إعجازها وصدق النبي الذي ظهرت على يديه<sup>(٤)</sup> .

(١) المغني للقاضي عبد الجبار ج ١٦ ص ٣٤٤ .

(٢) البخاري ج ٩ ص ٩٣ ومسلم ج ١ ص ٩٢-٩٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٦ - ١٠٧ مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٩ .

(٤) نبه هنا إلى أنها ليست مخالفة للعقل ، ولا هي مستحيلة في النظر العقلي المجرد ، أي أن تتبع الأحداث في الطبيعة وإنتاج الأسباب للمسبيات ليس واجباً عقلياً مثل كون الواحد والواحد يساوي إثنين ، لكن العادة جرت على ذلك بحكمة الله تعالى وتدبره ، وقد يتحقق السبب ولا يتحقق المسبب لمانع ، أو لتدخل قانون طبقي أعلى من الأول ، وهكذا يجري الله المعجزات وفق سنن إلهية خاصة غير معروفة للبشر ، ولا داخلة في تعلمهم ، وهو خالق العالم ومدبّره ، وذلك لتحقيق حكمته وإرادته في تأييد رسله وأنبيائه .

أما إعجاز القرآن فإنه لم يكن بواسطة مخالفة السنن الكونية ، وصرف الإنسان عنها ، بل إن معجزة هذا القرآن يدركها الإنسان بمقدار إعمال عقله وفهمه ، بل إنه كلما ازداد معرفة بسنن الكون والطبيعة ازداد يقيناً بإعجاز هذا القرآن .

ولذلك واجه القرآن عناوين المشركين وتطليهم للمعجزات بخصوصية القرآن الكبرى التي تجعله يكفي عن كل معجزة ، فقال عز وجل :

﴿وقالوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوْلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرْحَمَةً وَذَكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

## شهادة العالم بإعجاز القرآن

شهادة العرب بأحوالهم وأفعالهم :

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم والعرب أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً ، كما ذكر الجاحظ - وأحکم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت في البيان عدة ، لهم القصيدة العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المشور ، إذا تأملت بالذوق الصحيح والملكة الفنية المذوقة تبيّنت من خلال أدبهم ما بلغوه في هذا المضمamar .

فلما أمر الله نبيه أن يبلغ دعوته للناس راح يتبع أفراد عشيرته وقومه ، يقرأ عليهم ما نزل عليه من القرآن ، ولم يكن برهانه ولا ما أمر به أن يُلزِمُهم حجةً وبرهاناً ، أنما هو إله واحد وأن محمداً نبي لله إلا دليلاً واحداً هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه .

(١) سورة العنكبوت ، الآياتان ٥٠ - ٥١ .

قال الإمام الباقلاني : «فلو كان هذا القرآن من ذلك القبيل - الشعر - أو من الجنس الذي ألفوه لم تَزُلْ أطماءهم عنه ، ولم يدهشوا عند وروده عليهم ، فكيف وقد أمهلهم ، وفسح لهم الوقت ، وكان يدعوهم إليه سينين كثيرة ، وقال عزّ من قائل : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِير﴾ . وبظهور العجز عنه بعد طول التقرير والتحدي بان أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرون عليه . . .»<sup>(١)</sup> .

بل إن العرب قد تحملوا في مواجهة التحدي بالقرآن وركوبهم متن العnad والتصميم على الشرك وعبادة الأوثان الأهوال والأخطار ، فلو كان ذلك بوعهم ، وتحت مقدورهم لما عدلوا عن السهل المتناول من القول يحملون به حجته ، ويصرفون الناس عن دعوته ، إلى ر Cobb متن كل صعب وذلول ، وتتكلف الوعر المضني من الفعل بخوض غمار الحرث .

**شهادة بلغاء العرب بإعجاز القرآن بأقوالهم :**  
 صدرت عن سادة العرب الفصحاء البلغاء اعترافات صريحة بإعجاز القرآن ، أملتها عليهم سجيتهم العربية ، وطبعتهم الفنية التي لا يمكن معها جور ولا محاباة ، وإن كانوا مخالفين لرسول الله صلى الله عليه وسلم معاندين دعوته إلى الإيمان ، وقد أوردت لنا المصادر وقائع كثيرة يطول بسطها واستقصاؤها هنا<sup>(٢)</sup> .

من ذلك ما روى الإمام محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وحده : يا معاشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عننا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد

(١) إعجاز القرآن ص ٢٨٩ .

(٢) انظر للاستزادة إن شئت كتاب «المعجزة الخالدة» فقد توسع وأفاض .

ساعدهم ، فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت من السُّلْطَة<sup>(١)</sup> في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقَت به جماعتهم وسفهَت به أحلامهم ، وعَبَتْ آلهتهم ودينهم وكفرت به ممن مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ؟

قال فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال : يا ابن أخي إن كنت إنما ت يريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ ت يريد به شرفاً سوْدَنَاك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى تُبَرِّئَك منه ، فإنه ربما غلب التابع<sup>(٢)</sup> على الرجل حتى يُداوَى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : «أفرغت يا أبا الوليد» قال : نعم . قال : فاستمع مني ، قال : أفعُل . قال : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حَمٌ، تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًاً وَنَذِيرًاً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُون﴾<sup>(٣)</sup> . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وهو يقرأها عليه فلما سمع عتبة أنصت وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأيَ أنِي سمعت قولَ الله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معاشرَ قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلُوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونَ لقوله الذي سمعت نبأ ، فإنْ

(١) أي الفضل .

(٢) أي الجنبي بزعمه الفاسد .

(٣) سورة فصلت ، الآيات ١ - ٤ .

تصبّهُ العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزّكم وكتتم أسعد به . فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذارأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»<sup>(١)</sup> .

ولقد تحيرت العرب في شأن هذا القرآن لأنّه نزل بلسانهم ، لسان عربي مبين ، ثم هم يجدونه مبيناً لكلامهم ، فحاروا ماذا يقولون فيه من طغيان اللدد والخصوصة .

وإنّه لخبر مشهور ، خبر تحير الملاً من قريش ، حينما ائمرت حين حضر موسم الحج ، لكي يتتفقوا على قول واحد يقولونه للناس ، وقد رأوا شتات كلامهم السابق المختلف ، وأداروا الرأي فيما يقولون في هذا القرآن وفي النبي الكريم الذي سوف يتلو هذا القرآن على الناس في الموسم ؟ .

فطرحوا فكرة القول بأنه شاعر ، وأنه كاهن ، أو أنه مجانون أو ساحر ، وصاحب المشورة فيهم الوليد بن المغيرة يرد كل ذلك عليهم بالحجّة والبرهان ، ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجنة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : «ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته» .

فهذا التحير المظلم الذي غشّاهم وأخذ منهم بالكم ، والذي نعنه الوليد فأجاد النعّت ، كان تحيراً لما يسمعون من نظمه ، وإعظاماً ودهشة لما يحسون من إعجاز بيانه .

ولهذا فإنّهم كانوا يخافون أن يفلت الزمام من أحدّهم فيدخل في الإسلام لتأثيره بعظمة القرآن ، حتى قالوا لبعضهم كما سجل القرآن ذلك عليهم : «وقال الذين كفروا لا تَسْمَعُوا لِهذا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لِعْلَكُمْ تَغْلِبُونَ» .

فكانوا إذا تلا النبي القرآن عليهم صخّبوا وصفقوا كيلا يتمكن الناس من

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٠ - ٩١.

سماع القرآن بهذا الضجيج ، فكانت طريقة في الغلبة طريفة . . .

بلغاء كبار سمعوا القرآن فأمنوا :

وهذا أعظم الشهادات بإعجاز القرآن ، إن سادة العرب في البيان ألقوا زمام قيادتهم وأسلموا لهذا القرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم «مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن إسلامه وكتب بن زهير في صدق إيمانه ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم : من الشعراء والخطباء الذين أسلموا .

على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر ، أو بحر زاخر»<sup>(١)</sup> .

وما قصة إسلام عمر بخافية عنا ، وما أسلم إلا بتلاوته للقرآن الكريم من سورة «طه» كما هو معلوم .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه حدثاً طويلاً عن إسلامه ، وفيه : أن أنيساً أخا أبي ذر ذهب إلى مكة ثم عاد فقال لأبي ذر : «لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله . قلت فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر . وكان أنيس أحد الشعراء . قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة فيما هو بقولهم . ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر بما يلائم على لسان أحد بعدي أنه شعر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون»<sup>(٢)</sup> .

ونسوق لك تصريح جبّير بن مطعم بأن سبب تحول قلبه إلى الإسلام ، أنه أصغى إلى تلاوة الرسول سورة الطور في صلاة المغرب . فقد روى البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن أبيه قال :

(١) انظر إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) صحيح مسلم - فضائل الصحابة - باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه ج ٤ ص ١٩٢٠ - طبع عيسى البابي الحلبي بمصر ، أما قوله (على دينك) أي مثلك يعبد الله والمراد بقوله : (أقراء الشعر) طرقه وبحوره ، ويقوله (فما يلائم) . أنه شعر لا يوافق نسق الشعر .

«سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»<sup>(١)</sup> .

شهادة بلغاء من النصارى بإعجاز القرآن :

قال الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا في تقادمه كتاب إعجاز القرآن للرافعي :

«فإن من أُتي حظاً من بيان هذه اللغة وفاز بسهم راجح من أدابها حتى استحكمت له ملكة الذوق فيها ، لا يملك أن يدفع عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن ببلاغته وفصاحته ، وبأسلوبيه فينظم عبارته . وقد صرّح بهذا من أدباء النصرانية المتأخرین الأستاذ جبر ضومط مدرس علوم البلاغة بالجامعة الأمريكية في كتاب (الخواطر الحسان)» .

قال الرافعي يعلق على هذا :

«وصرح لنا بذلك «بإعجاز القرآن» أديب هذه الملة وبلغها الشيخ إبراهيم الياجي الشهير ، وهو أبلغ كاتب ، أخرجته المسيحية ، وقد أشار إلى رأيه ذلك في مقدمة كتابه (نجمة الرائد) ، وكذلك سألنا شاعر التاريخ المسيحي الأستاذ خليل مطران ، ولا نعرف من شعراء القوم من يجاريه فأقرّ لنا بمثل ما أقرّ به أستاده الياجي ، والأمر بعد إلى العقل «المنصف» ، والعقل «المنصف» ليس له دين إلا الحق . والحق واحد لا يتغير»<sup>(٢)</sup> .

كذلك الأديب الشاعر المعاصر نقولا حنا قد تلا القرآن ، فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده ، وزاده إيماناً بالله على إيمانه ، وقدف في أعماق فكره وضميره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز العزيز وأنه يسمو على سائر معجزات الأنبياء ، فهو معجزة إلهية خالدة تبرهن بنفسها على نفسها . وأعلن ذلك في قصيدة من روائع الشعر ، عنون لها بهذا العنوان «من وحي القرآن» وقال في مقدمة هذه القصيدة :

(١) كتاب المغازى والسير - قبيل باب تسمية من سمي أهل بدر .

(٢) عن «وحي القلم» - بتصرف يسir ص ١٥ - ١٦ .

«قرأتُ القرآن فأذهلني ، وتعمقتُ به ففتنني ، ثم أعدت القراءة فآمنت... آمنت بالقرآن الإلهي العظيم ، وبالرسول مَنْ حَمَلَه ، النبي العربي الكريم ، أما الله فمن نصرانيتي ورثت إيماني به ، وبالفرقان عظم هذا الإيمان...»

«وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يديّ أنظرها وأحسها كل حين... هي معجزة لا كبقة المعجزات... معجزة إلهية خالدة تدلّ بنفسها عن نفسها ، ولن يست بحاجة لمن يحدّث عنها أو يبشر بها .»

وكان يقول : «وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين وشواهد وحجج وبراهين لحضور الخلق على اعتناقها ، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبت أصولها في القلوب . أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن ، فهو أعلم معلم وأهدى مبشر ، وهو أصدق شاهداً وأبلغ حجةً وأدمع برهاناً... هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلـي ، المنظورة المحسوسة في كل زمان... ومن إيماني العميق هذا استلهمت أبيات قصيـتي هذه»<sup>(١)</sup> .

وذكر في قصيـته ثبوت نبوة محمد صـلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة أجلـها القرآن ، وكان مما قال فيها :

وآياته - ليست تُعدُّ - عِظام<sup>(٢)</sup>  
علا وسما كالنجم ليس يُرَامُ  
كأن على الأفواه صُرَّ كمام<sup>(٣)</sup>  
وأن يتلاشى حُقُّدهم وخصام  
بُـفْرـقـانـ نـورـ لم يـشـبـهـ قـتـامـ

يقولون ما آياته، ضلّ سعيـهم  
كـفـىـ معـجـزـ الفـرقـانـ لـلـنـاسـ آـيـةـ  
فـكـلـ بـلـيـغـ عـنـهـ ظـلـ صـامـتاـ  
وـشـاءـ إـلـهـ العـرـشـ بـالـنـاسـ رـحـمةـ  
فـقـرـقـقـ ماـ بـيـنـ الضـلـالـةـ وـالـهـدـىـ

\* \* \*

(١) من وحي القرآن - نقولا حنا ص ١ .

(٢) «ليست تعد» جملة معتبرة بين المبتدأ «آياته» والخبر «عِظام» ، والمراد أن آيات النبي عِظام أي معجزاته عظيمة جداً وكثيرة لا يحيط بها العد والإحصاء .

(٣) الصـرـ : الشـدـ أوـ الـرـبـطـ . الـكـمـ : ما يـكـمـ بهـ فـمـ الـبـعـيرـ لـثـلـاـ يـأـكـلـ أوـ يـعـضـ .

## منشأ إعجاز القرآن

### رأي الإعجاز بالصرفة :

على الرغم من إجماع العلماء على إعجاز القرآن ، وأن إعجازه وصف ثابت له ، فقد شدّ بعض المتكلمين وهو أبو إسحاق النظّام من المعتزلة ، ونحو في هذه المسألة منحى انفرد به دون أهل العلم قاطبة ، وعُرِفَ رأيهُ بينهم بـ «الصّرفة» .

وقد فسر النظّام إعجاز القرآن بهذا وقال يشرح رأيه : «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المتنزلة لبيان الأحكام من الحال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك ، وسلب علومهم به» .

وقد جرّ النظّام لهذا القول بعده عن معاناة أساليب البيان وانشغل بالأساليب الفلسفية ، مما أدى إلى وقوعه في هذا الخلط في تفسير إعجاز القرآن .

وتجدر بالذكر أن هذا القول لا يدخل فيه عنصر الطعن في القرآن ، ولا كان في قصد صاحبه ما يحوم حول ذلك ، لأنّه يعترف ويشهد بأنه من عند الله تعالى ، إلا أنه شدّ في تفسير إعجاز القرآن ، وحسب القارئ هنا أن أحداً من علماء البيان لم يوافقه على ذلك ، حتى المعتزلة أنفسهم ومنهم تلميذه الجاحظ ، الذي يعني برد هذا الرأي وجلاء إعجاز نظم القرآن حتى كان - أي الجاحظ - أول من يبلغنا عنه هذا التعبير «نظم القرآن» .

والحقيقة أن هذا الرأي من الضعف بحيث يعني شرحه عن تكليف الرّد عليه ، ولو لا ترداده على ألسنة بعض المتأخرين في هذا العصر لما عرضنا له بشيء لمصادمه بدهيات الدلالة من القرآن والإجماع والعقل والواقع ، كما أوضحه العلماء .

قال الإمام الزركشي في البرهان<sup>(١)</sup> :

١ - «وهو قول فاسد ، بدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ فإنَّه يدلُّ على عجزهم مع بقاء قدرتهم . ولو سلبوا القدرة لم يبقَ فائدة لاجتماعهم ، لم تزلْتَه منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بكثير يحتفل بذكره .

٢ - هذا مع أنَّ الإجماع منعقد على إضافة - أي نسبة - الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة إعجاز بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله . . .

٣ - «ومما يبطل القول بالصَّرْفَة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما مَنَع منها الصَّرْفَة لم يكن الكلام معجزاً وإنما يكون المنع معجزاً فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه» . يعني وأنَّ فضيلة القرآن ظاهرة ، ومزاياه معجزة باهرة ، مما يدلُّ على بطلان تفسير إعجاز القرآن بالصرف ، ويثبت الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم .

ونتكلُّم عن أوجه إعجاز القرآن فيما يلي :

### أوجه إعجاز القرآن الكريم

كثرت الدراسات واستفاضت البحوث في تبيان أوجه الإعجاز الذاتي للقرآن فما من عصر إلا قدمت فيه مجموعة من الدراسات والأراء تحاول كشف أوجه إعجاز القرآن مما قدم للدراسات القرآنية واللغوية البيانية كنوزاً لا تفني ذخائرها ولا تبيد .

والجدير بالذكر هنا أنَّ تعدد الآراء في بيان أوجه إعجاز القرآن وتنوع الوجهات في دراستها ليس تنوع اختلاف وتعارض ، إنما هو تنوع ناشيء من غزارة فنون هذه المعجزة وعظمتها ، مما يجعل أي فكر أو أي عصر من

(١) ج ٢ ص ٩٣ . باختصار وتصرف يسير .

العصور عاجزاً عن استتفاد أوجه إعجاز القرآن والإحاطة بها خبراً ، وإنما يبلغ من ذلك مقداراً يتناسب مع ما يمكن أن يتحققه هذا الإنسان العاجز المحدود وهو يحاول فك أسرار الإعجاز الذي تجاوز الطاقة والحدود .

### عرض الإعجاز عند المتقدمين :

وسوف نكتفي بنموذج من بيان الأسلاف لأوجه إعجاز القرآن يساعد على استجماع الأفكار وتلخيص عصارة زبدة دراساتهم ، ويهود لتحليل جديد لهذه الأوجه .

وهذا النموذج للإمام المفسّر الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنباري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ في مطالع كتابه العظيم في التفسير «الجامع لأحكام القرآن» .

قال القرطبي رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup> .

### ووجه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

١ - منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها ، لأن نظمها ليس من نظم الشعر في شيء ، وفي صحيح مسلم أن أنسياً أخاه أبي ذر قال لأبي ذر : لقيت رجلاً في مكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : بما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنس : لقد سمعت قول الكهنة ، مما هو بقولهم ، ولقد وضع قوله على أقراء الشعر فلم يلتبث على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكافدون .

وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ـ حـ» فصلت ، فإذا اعترض عتبة بن ربيعة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان في هذا القول مقرأً بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٧٣ - ٧٥ .

والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

٢ - ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

٣ - ومنها : الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك في سورة : **﴿فَقَ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ﴾** إلى آخرها ، قوله سبحانه : **﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** إلى آخر السورة ، وكذلك قوله سبحانه : **﴿وَلَا تَحْسِنَ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾** إلى آخر السورة .

قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره ، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : **﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** ، ولا أن يقول : **﴿وَيُرِسِّلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بَهَا مَنْ يَشَاء﴾** .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هي لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها وقع التحدى والتعجيز ، ومع هذا فكل سورة لا تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ، فهذه سورة «الكواثر» ثلاث آيات قصار ، وهي أقصر سورة في القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبيين :

أحدهما : الإخبار عن الكواثر وعظمها وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدقيين به أكثر من أتباع سائر الرسل .

والثاني : الإخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قول الحق : **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَدْتُ لَهُ تَمَهِيداً﴾** ثم أهلك الله - سبحانه - ماله وولده ، وانقطع نسله .

٤ - ومنها : التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به مخلوق ،

حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه .

٥ - ومنها : الإِخْبَارُ عَنِ الْأَمْوَارِ الَّتِي تَقْدَمَتْ فِي أُولَى الدُّنْيَا إِلَى وَقْتِ نَزُولِهِ مِنْ أُمَّيٍّ مَا كَانَ يَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا يَخْطُطُهُ بِيمِينِهِ ، فَأَخْبَرَ بِمَا كَانَ مِنْ قَصْصَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أُمَّهَا ، وَالْقَرْوَنَ الْخَالِيَةَ فِي دَهْرَهَا ، وَذَكَرَ مَا سَأَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابَ عَنْهُ وَتَحْدِثُوهُ بِهِ مِنْ قَصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَشَأْنَ مُوسَى وَالْخَضْرَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَحَالَ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، فَجَاءُهُمْ - وَهُوَ أُمَّيٌّ مِنْ أُمَّةَ أُمَّيَّةٍ لَيْسَ لَهَا بِذَلِكَ عِلْمٌ - بِمَا عَرَفُوا مِنَ الْكِتَابِ السَّالِفَةِ صَحْتَهُ ، فَتَحَقَّقُوا صِدْقَهُ .

قال القاضي أبو الطيب : ونحن نعلم ضرورة أن هذا ما لا سبيل إليه إلا عن تعلم ، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ، ولا متربداً إلى المتعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي .

٦ - ومنها : الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس في العيان ، في كل ما وعد الله سبحانه ، وينقسم : إلى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه ، وإلى وعد مقيد بشرط قوله : «مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ» **﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾** ، «مَنْ يَتَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِمَحْرَجاً» و «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوْ مِائَتِينَ» وشبه ذلك .

٧ - ومنها : الإِخْبَارُ عَنِ الْمَغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبِلِ الَّتِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا إِلَّا بالوحي فمن ذلك ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيُظْهِرُ دِينَهُ عَلَى الْأَدِيَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ» الْآيَةُ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ .

وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ، ليتحققوا بالنصر ، وليسْ يقْنُوا بالنجاح ، وكان عمر يفعل ذلك ، فلم يزل الفتح يتواتي شرقاً وغرباً ، برأً وبحراً ، قال الله تعالى : «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ

قبلهم» وقال : «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين» وقال : «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم» وقال : «الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبيهم سيفلوبون . . .» .

فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

٨ - منها : ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام .

٩ - منها : الحكم البالغة التي لم تجر العادة أن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي .

١٠ - منها : التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف ، قال الله تعالى : «وَلُوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا» . انتهى كلام القرطبي .

وبالنظر في هذه الأوجه العشرة نجد أن إعجاز القرآن يتسع تنوعاً واسعاً شامللاً للأسلوب وللمضمون أي المعنى ، مما يجعل إعجازه متناولاً كل أنواع البشر : من كان مميزاً للكلام البليغ والأبلغ ، ومن لم يرزق تلك الموهبة ، وإن كانت الحجة تلزم هذا النوع من الناس بشهادة أهل الموهبة الفنية والذوق الأدبي ، من الفصحاء العقلاء ، والبلغاء المراجيح الآباء .

لكن إذا أفحى هؤلاء القاصرون بمضمون القرآن وبما استحمل عليه من المعاني لم يبق في الإعجاز أبلغ ولا أعظم من ذلك .

### عرض الإعجاز عند المعاصرین

وقد عني العلماء المعاصرون والباحثون المحدثون بتحقيق البحث في أوجه إعجاز القرآن مستفيدين من دراسات القدماء ومن نتائج بحث الحديثاء ، وقدموا دراسات متواتلة تنفع كل دراسة الدراسة التي قبلها وتضيف إليها ما ولدته

فريحة كل دارس جاء بعدها . وكان أول المشاهير في العصر الحديث علامة الأدب مصطفى صادق الرافعي رحمة الله في كتابه «إعجاز القرآن» ، ثم جاء الباحثة المحقق الدكتور محمد عبد الله دراز رحمة الله فقدم دراسات متعددة عن إعجاز القرآن كان أشهرها كتابه «النبا العظيم» ، الذي تميز بنظرات جديدة في الموضوع ، ثم جاء معاصره العلامة محمد عبد العظيم الزرقاني<sup>(١)</sup> فنفع القول في أوجه إعجاز القرآن وأفاد من دراسات الدكتور دراز واستكمل دراسته فجاءت دراسة عصرية وافية اقتبس منها الدارسون وأفادوا من نتائجها ، وعني بعضهم أخيراً<sup>(٢)</sup> بتنقيحها والبناء عليها فجاء عمله بذلك أتم وأوفى .

وستنقدم فيما يلي خلاصات ونتائج مستفيدين من هذه الدراسات مع الإيجاز الشديد مراعاة لمقتضى المقام في هذا الكتاب :

### القسم الأول من أوجه إعجاز القرآن : أسلوب القرآن الكريم

هذا القسم من أوجه إعجاز القرآن فيه أعظم جوانب الإعجاز في القرآن ، وإن كان قد يخفي معنى عظيمه على كثير من الناس ، والسبب في عظمة هذا الوجه أنه هو الذي به كان القرآن قرآنًا ، وأن المنهج البياني المعجز للقرآن هو سمة عامة لجميع القرآن الكريم ، أما الأوجه الأخرى فيوجد الوجه منها في بعض الآيات دون الآخر ، مثل أخبار الغيب ، والإعجاز العلمي ، والإعجاز التشريعي وهكذا .

وهذا الوجه يدركه العرب ، وهم أول من يخاطب به وإذا عجزوا هم عنه ، فغيرهم أعجز وأعجز ، لكن جلال الإعجاز في هذا الكتاب لا يقتصر

(١) في كتابه القيم *مناهل العرفان في علوم القرآن* ج ٢ ص ٢٠٥ وما بعد إلى ص ٣٠٨ ، ويبلغت أوجه إعجاز القرآن عنده أربعة عشر وجهاً ، عدا ما يتضمنه بعضها من خواص معجزة ، أدمجها في بعض الأوجه .

(٢) هو شقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر في كتابه «المعجزة الخالدة» ، فليرجع إليه للاستزادة ص ٢٢٥ - ٣٨٨ .

على ذلك بل إنه يشمل أوجهًا أخرى يدرك الإعجاز فيها كلَّ من يفقه معاني الكلام ، ولو لم يكن له في ساحة البيان جولات .

وقد أطالت الدارسون القدماء والمحدثون في بيان خصائص أسلوب القرآن الكريم ، ونلخص منها هذه الجوانب فيما يلي :

الوجه الأول : خاصية تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره : وهي خاصية بارزةٌ عُنيَ بها بعض المتأخرین ، وصاغها نظرية في إعجاز القرآن الموسيقي ، وهو الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله<sup>(۱)</sup> .

أما خاصية تأليف القرآن الصوتي في شكله : فهي أول ما يسترعي سامع القرآن الكريم عن بعد بحيث يسمع فيه جملة الحركات والسكنات ، والغنايات والمدات وهكذا . . . فإن السمع يجد نفسه إزاء لحن غريب عجيب لا يجده في كلام آخر ، هو لحن فرد اختص به القرآن لا يوجد في الموسيقى ولا في الشعر ، وذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتعدد فيها الأوزان بيتاً بيتاً وشطرًا شطرًا ، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أصداها وتذهب مذهبًا متقارباً ، فلا يلبث سمعك أن يمجها ، وطبعك أن يملها إذا أعيدت وكررت عليك بتوجيه واحد بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوع ومتجدد ، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء ، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم .

وأما جوهر تأليف القرآن الصوتي : فيكِمُنْ في نظم حروفه ورصفها وترتيب أوضاعها : هذا ينقر وذاك يصفر ، وثالث يهمس ، ورابع يجهر ، وأخر حرف استعلاء وغيره حرف شدة أو رخاوة ، وهكذا ، ترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في هذا التناغم الموسيقي المعجز ، الذي جعل منه القرآن قالباً لما حمله من معاني الرسالة وحِكَمِها وأحكامها ، وعقائدها وقواعدها ، ومواعظها وزواجرها ، وما امتاز به أسلوبها في عرض هذه المعاني من سائر الخصائص المعجزة .

---

(۱) في كتابه القيم «إعجاز القرآن» ونكتفي بالإشارة إلى نظريته هذه لضيق المقام .

## الوجه الثاني : القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى :

وهما نهايتان في اتجاهين متضادين ، لا يقبل المرء على إحداهما إلا ابعد عن الأخرى ، ذلك أن البلية إما أن يؤدي مراده جملة مختصرأً ، مقللاً من الألفاظ فلا بد أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، وإما أن يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه ، فلا يجد بدأً من أن يمد في نفسه مداً ، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة .

ولئن وُقِّعَ البلية لتقريب هاتين العايتين تقريرًا ما في جملة أو جملتين ، فلا يلبيث أن يدركه الكلال والإعياء ، وضعف الطبع الإنساني فلا يسترجع قوته إلا في شيء بعد الشيء ، كما تصادف في التراب قطعة من التبر هاهنا وقطعة هناك ، فتقول هذا نفيس جيد ، وهذا أنفس وأجود... وقد أجمع نقاد الشعر والنشر على أن أربع الشعرا لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة من قصائد معدودة ، ثم وراء ذلك الوسط والرديء والغث والمستكره... .

أما القرآن الكريم فقد جاء البيان فيه مقدراً أحسن تقدير ، فلا تحس فيه بالإسراف ولا بالتقدير ، فهو يؤدي لك الصورة وافية نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها ، ولا يشد عنها شيء من عناصرها وكمالها ، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاذه ، كما قال الإمام أبو بكر الباقلاني : «محاسن تتواتي ، وبدائع تترى» .

ولنزيرك أيضاً في هذا فخذ ما شئت من القرآن ، وأخص كلماته عدداً ، ثم أخص مثل عددها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن المصحف ، وانظر ما حواه هذا الكلام من المعاني ، وقياسه إلى ذلك ، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها من غير القرآن أو يمكن أن تبدلها بأخرى غيرها دون إخلال بغض قائله ؟ وانظر مقابل ذلك أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من القرآن ؟ ؟ لما وجدت لذلك سبيلاً في القرآن ، بل إن كتاب الله تعالى - كما

قال الإمام ابن عطية<sup>(١)</sup> : لو نُزِعْتَ منه لفظة ثم أُدِيرَ لسانُ العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد» ، بل هو كما وصفه الله : «كتابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» .

#### الوجه الثالث : خطاب العامة وخطاب الخاصة :

وهاتان غايتان أخرىان متباudتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجهتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك - إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منهمما بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال ، فاما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوق والمملوك ، فيراها كل منهم مقدرة على مقاييس عقله وعلى وفق حاجته ، فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلوغ أوفي كلام بطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهمهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة ، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسّر لكل من أراد «ولَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهُلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» .

#### الوجه الرابع : إقناع العقل وإمتاع العاطفة :

في النفس الإنسانية قوتان قوة تفكير ، وقوة وجdan ، وحاجة كل واحدة منها غير حاجة أختها : فأما إحداها فتنتب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، ف يؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجданية معاً .

---

(١) في مقدمة تفسيره الجليل «المحرر الوجيز» ج ١ ص ٣٩ .

## فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس ؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوًّا في جانب ، وقصوراً في جانب ، فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا توجه نفوسيهم إلى استهواه نفسك واحتلال عاطفك ، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعُرْيٍ ونُبُوٍ عن الطياع ، وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استشارة وجداً لك ، وتحريك أوتار الشعور في نفسك ، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشدًا ، وأن يكون حقيقة أو تخيلاً ، فتراهم جادين بهم هازلون ، يستبكون وإن كانوا لا ي يكون ، ويطربون وإن كانوا لا يطربون : «والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون وأنهم يقولونَ ما لا يفعلون» .

هذا مقاييس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاصعاً لها حين قال أو كتب ، فإذا رأيته يتوجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت : هذا ثمرة الفكر ، وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها وقبضها أو بسطها ، واستشارة كوانن لذاتها أو ألّمها ، قلت هذا ثمرة العاطفة ، وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعد ما قضى وطره من سابقه ، كما ينتقل من غرض إلى غرض ، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه .

وأما أن أسلوباً واحداً يتوجه اتجاهها واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعصمين ، ومن المتعة الوجданية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شرابةً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حَيْثُمَا توجَّهْتَ ، ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟ .

أولاً تراه في معمعة براهيته وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيز ، وتبكيت وتأنيب ؟ يbeth ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها : «تَقْشِعُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» . «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَذْلِ» .

**الوجه الخامس : تآلف الألفاظ والمعاني :**  
التآلف في الألفاظ هو ألا تكون بينها ثغرة في المخارج ، ولا في النغم بل تآلف وتتأخى في نسق واحد .

ويقول الإمام أبو بكر الباقلانى في هذا : «واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان ، قليل الطلاق ، ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل بيت عصمة تفطن لما فيه ، وهو أدق من السحر وأهول من البحر ، وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجناً ، وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تَنْفِرُ في موضع وتَزَلُّ عن مكان لا تزل فيه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها في مكانها ، وتتجدها غير منازعة في أوطانها ، وتجد الأخرى لو وضعت في موضعها ل كانت في محل نقار ، ومرمى شرار ، ونابية عن استقرار . . .»<sup>(١)</sup> .

وأما التآلف في المعاني : فهو ألا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذي بليه ، وأن تآلف الألفاظ والمعاني ، وما تشيره من الصور والأخيلة ، وما

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٨٠ .

تستدعيه من معان يستلزم بعضها بعضاً ، فيتألف من ذلك علم كثير ، وأفهامٌ  
زاخرة .

وهذه الخصوصية هي كغيرها أيضاً مستوفاة في جميع القرآن ، وفي كل  
آية منه ، لا يحتاج الدارس والباحث إلى اختيار وانتقاء ، بل كيما قلب  
المصحف ونظر بعين البصيرة المدركة وجد أي خصوصية يطلبها على أعظم  
منازل الكمال الذي لا يطيقه إنسان ، ووجد أسلوبه ينفذ من كافة أقطار  
النفس ، ويغلغل في أعماق الأفئدة ، فيحملها على الخشوع والإختبات ، لما  
في طياته من قوة وهيبة تدل على تنزله من علو ، وصدوره من عظمة الألوهية  
وشرف الربوبية ، وقدرة الإله الحق ذي الجبروت .

فالقرآن بنفسه يدل على قدر متكلمه ويخبر عن مقام منزله عز وجل ، كما  
ينبه على عظيم شأنه تبارك وتعالى ، فيثبت لكل عاقل صحة رسالة محمد صلى  
الله عليه وسلم ، وصدق نبوته<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

## القسم الثاني من أوجه إعجاز القرآن : الإعجاز بالمضمون

يمتاز هذا القسم من أوجه إعجاز القرآن بأنه معجزة عقلية ، يعقلها  
ويدركها كل من يفهم الخطاب ويرد الجواب ، سواء كان يملك ذوقاً أدبياً أم  
لا يملك ، بل سواء كان عربياً أو أعمجياً . وذلك من غاية كمال الإعجاز في  
القرآن الكريم .

ونقتصر على مهامات من أوجه إعجاز المضمون في القرآن فيما يلي :

(١) انظر في خصائص أسلوب القرآن هذا كتاب «النبا العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز  
ص ٩٥ وما بعد ومناهل العرفان للزرقاوي ج ٢ ص ٢١٥ وما بعد ، وبينات المعجزة  
الخالدة ص ٣٠٢ - ٣٠٧ - ٣١٧ - ٣٢٠ والعملة في الخاصة الأخيرة على المرجعين  
الأخرين وإعجاز القرآن للباقلاني وكتاب المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة  
ص ١٣٣ - ١٣٥ .

الوجه الأول : الإخبار عن الغيب :

والقرآن حافل بأنواع الاخبار عن الغيب : غيب المستقبل ، وغيب الحاضر ، وغيب الماضي ، مما يحتاج تفصيله لتأليف واسع كبير ، لذلك سنكتفي هنا بإلماعة ولمحة وجية لضيق المقام عن التوسيع فضلاً عن الاستيفاء .

أولاً : الإخبار عن غيب المستقبل :

في القرآن تنبؤات كثيرة جداً عن أمور ستقع في المستقبل ، لعل أهم ما ذكر منها تلك الأخبار المتعلقة بأمور مصيرية ، إذا لم تتحقق بدقة كاملة أدت إلى انتقاض دعوة القرآن من الأساس ، ومن ذلك :

١ - إخبار القرآن في مكة والمسلمون في أقل القلة وأشد الضعف عن تحول المؤمنين إلى القوة وانتصارهم ، وهزيمة المشركين ، وذلك في مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿أُمّ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّتَّصِرُونَ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلَوْنَ الدُّبُرَ﴾<sup>(١)</sup> .

فنبأ القرآن بهزيمة جموع المشركين في وقت لا مجال فيه للتفكير بالحرب ، لغاية ما كان عليه المسلمين من الضعف والقلة ، لذلك تسأله عمر : أي جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت في الدرع وهو يقول : «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلَوْنَ الدُّبُرَ» ، فعرفت تأويلاها<sup>(٢)</sup> .

وفي الحديث الآخر عن ابن عباس في يوم بدر قال : «وهو - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - في الدرع فخرج وهو يقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم وال ساعة أدهى وأمر»<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة القمر ، الآياتان ٤٤ - ٤٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه البخاري ج ٦ ص ١٤٣ - ١٤٤ . وانظر ابن كثير في تفسيره سورة القمر ج ٧ ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

## ٢ - إخباره بوقوع الجدب على المشركين وكشف الله إياهم عنهم وعودهم إلى الكفر :

قال تعالى : «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابُ أَلِيمٍ . رَبَّنَا اكْسَفَ عَنَا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَجْحُونٌ . إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنْكُمْ عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُتَّقِمُونَ»<sup>(١)</sup>.

فأنخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أمرين : رفع العذاب عن قريش بدعائهم وعدم اتعاظهم بذلك وعودهم إلى الكفر ، وهزيمتهم يوم البطشة الكبرى ، وهو يوم بدر .

كما في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : «... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدباراً فقال : اللهم سبع كسبع يوسف ، فأخذتهم سنة حست كل شيء ، حتى أكلوا الجلود والميته من الجوع ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، قال الله عز وجل : «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابُ أَلِيمٍ...» إلى قوله «إِنْكُمْ عَائِدُونَ» قال : أفيكشف عذاب الآخرة ؟ «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُتَّقِمُونَ» فالبطشة الكبرى يوم بدر...»<sup>(٢)</sup>.

## ٣ - إخباره عن عودة النصرة للروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام الفرس حتى اضطر ملك الروم للالتجاء إلى القسطنطينية .

وقد فرح المشركون بذلك لكون الفرس مجوساً يعبدون النار والأصنام ، والروم أهل كتاب ، فأنزل الله تعالى : «أَلم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ

(١) سورة الدخان ، الآيات ١٠-١٦.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم ، وانظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٣ .

وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ . لَهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .  
وَيَوْمَئِذٍ يُفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ . . . .

وهذا مثال مشهور من أخبار الغيب بالقرآن ، وقد اشتمل على خبرين خطيرين :

أولهما : انتصار الروم على الفرس في فترة وجيزة جداً بالنسبة للتغير ميزان القوى بين الدول ، ولا سيما في ذلك العصر ، وخصوصاً بعد هزيمة ساحقة منكرة ، وقد تحقق ذلك في سبع سنين من تاريخ الحادث ونزول القرآن فيه .

ثانيهما : احتفال ذلك بتغيير ميزان القوة لمصلحة المسلمين وانتصارهم على المشركين وكان ذلك يوم بدر ، وفرح المؤمنون بنصر الله لهم ، كما فرحوا بنصر الروم وهم أهل كتاب على الفرس وليس لهم كتاب<sup>(١)</sup> .

### ثانياً : الإخبار عن غيب الحاضر :

في القرآن أخبار كثيرة عن مغيبات حديثة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيما مما كان بيته الأعداء والمنافقون ، وقد عُنيت سورة التوبية بكشف دخائل المنافقين ودسائسهم ، وفضح مؤامراتهم حتى سميت الفاضحة .

ومن هذا النوع من الأخبار أيضاً هذان المثالان :

١ - مؤامرة المشركين في بعض الغزوات على المسلمين أن يعطوهم الهدنة التي اعتادوها لأجل الصلاة ، ويفاجئوهم بالهجوم عليهم غدرًا وهم يصلون ، فأنزل الله تعالى بيان كيفية صلاة الحرب بما فيه الواقية من هذه المكيدة وقال فاضحاً نوايا العدو : «وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلَحْتُكُمْ

---

(١) انظر النبا العظيم ص ٤٢ - ٤١ ومناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٧ ، ومصادر التفسير ، تفسير أول سورة الروم ، وانظر التحقيق في كتاب «المعجزة الخالدة» ص ٣٤٠ - ٣٤٤ ، وفيه أمثلة أخرى كثيرة ليست في غيره .

وأمتعتكم فيميرون عليكم ميّلةً واحدةً<sup>(١)</sup> .

٢ - ائتمر المنافقون بتوجيهه من اليهود فبنوا مسجداً بجوار مسجد قباء ، زعموا أنه للصلوة وللمساكين يأوون إليه ، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلّي فيه ، فأنزل الله تعالى يكشف خبيثة نفوسهم الخبيثة<sup>(٢)</sup> : ﴿وَالَّذِينَ أَتَحْذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنَّ أَرْدُنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لَا تَقُومُ فِيهِ أَبْدًا لَمَسْجِدٌ أَسْسَنَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يَحْبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> .

### ثالثاً : أخبار الغيب الماضي :

وذلك كثير جداً في القرآن يتضمن الإخبار عن حوادث قديمة وقعت من قبل ، وقصص الأنبياء وأمّهم مما سنعرض له بشيء من التفصيل في بحث القصة في القرآن<sup>(٤)</sup> .

### الوجه الثاني : الإعجاز التشريعي :

إن القرآن قد جاء بتشريع معجز يثبت أنه تنزيل من الله ووحي منه تبارك تعالى ، وذلك من أوجه كثيرة ذكر منها :

١ - إنها جاءت على لسان رجل أمي وفي أمة أمية ، تعيش الحياة القبلية بكل كيان أفرادها ، لا يخطر على بال أحد منهم انتظام أو التزام بقانون عام أو نظام حضاري .

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٢ .

(٢) سورة التوبة ، الآيات ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) وقد عدّ صاحب مناهل العرفان الأخبار عن الملائكة والجن من أنباء الغيب الحاضر ، ونحن نرى أنها تُعتبر كذلك بالنسبة لمن سبق منه الإيمان ، لا سيما إن قورنت بما عند الأمم الأخرى من علوم الغيب ، أما غير تلك الحالة فهي من الغيبات التي يتوقف الإيمان بها على أصل الإيمان بالله ورسله .

(٤) انظر التوسيع في هذا الوجه الثاني كتاب «بيان المعجزة الخالدة» فقد أطال وأجاد بما لا تجده في غيره ص ٣٢١ - ٣٥٨ .

٢ - إنه تشريع شامل وكافٍ لإنصاف الحق ، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم المالية ، والاجتماعية والأسرية ، والدولية . . .

٣ - إنه تسامي على كل قانون عرفته الأمم قديمها وحديثها ، حتى أقرت المجتمع القانونية الدولية الفقه الإسلامي مصدرًا أساسياً تقتبس منه القوانين ، وإن القوانين الحديثة في تطورها تسامي لتقترب من الفقه الإسلامي .

قال فضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله<sup>(١)</sup> :

«من هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن ، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هي من عند الله ، وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في إحدى المجلات الإسلامية بعنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) جمعتها إحدى الهيئات الإسلامية في رسالة ، ونشرتها ، وترجمتها إلى الفرنسية والإنكليزية ، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتي بها أمي لا يقرأ ولا يكتب وقد نشأ في بلد أمي ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة وهي في أحكامها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى .

وكتبنا بحثاً وزانا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة (الميراث) ، وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون في نحو ثلاثة عشر قرناً ومع ذلك هو بالملكية بالخلافة لا يوازن بشرعية القرآن إلا إذا وزانا بين عصا هشة وسيف بتار ، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، بل هو من عند الله تعالى .

والأتراك القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشري لم يصل إلى الآن إلى خير منه ونحن نقرر لهذا أن ما ذكره القرطبي غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلاً هو من عند الله تعالى العليم الخبير» .

(١) في كتاب «المعجزة الكبرى» ص ٩٥ ، وانظر دراسات مفصلة حول هذا الموضوع وبيان تفوق أنظمة القرآن ص ٤٥٤ - ٤٧٥ من كتابه هذا .

الوجه الثالث : اتساق نظريات القرآن وأحكامه :

جاء القرآن الكريم بهداية كاملة شاملة ، كافية وافية في جميع الشؤون المختلفة المتنوعة ، وزاد عدد آياته على ستة آلاف آية تناولت مختلف الموضوعات التي تزيد على المئات ، وجاء ذلك كله متفقاً في معانيه وأحكامه ، متسقاً في أسلوبه وإعجازه ، فكان ذلك دلالة على أنه كلام الله ، كما قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً﴾<sup>(١)</sup>

وقد فصل الإمام الغزالى وجه الدلالة بهذا تفصيلاً وافياً بإيجاز جميل فقال<sup>(٢)</sup> :

«الاختلاف لفظ مشترك بين معانٍ ، والمراد هنا نفي الاختلاف عن ذات القرآن ، يقال : هذا كلام مختلف ، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة ، أو هو مختلف الدعوى ، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ، وبعضه على وزن الشعر وبعضه متزحف وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزلة وبعضه على أسلوب يخالفه .

وكلام الله متنزه عن هذه الاختلافات ، فإنه على منهج واحد في النظم مناسب أوله آخره ، وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا إلى الدين .

وكلام الآدميين تتطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام الشعراء والمترسلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهج النظم ، ثم اختلف في درجات الفصاحة ، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين ، ولا يتساوى رسالتان وقصيدتان بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة وأبيات

(١) سورة النساء ، الآية ٨١ .

(٢) كما نقل عنه السيوطي في الإنegan ج ٢ ص ١٢٤ بتصرف يسير .

سخيفة ، وكذلك تشمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء في كل واد يهيمون ، فتارة يمدحون الدنيا وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن ويسمونه حزماً وتارة يذمونه ويسمونه ضعفاً ، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صرامة وتارة يذمونها ويسمونها تهوراً ، ولا ينفك كلام الأديمي عن هذه الاختلافات ، لأن منشأها اختلاف الأغراض بالأحوال .

والإنسان تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرجه وتعذر عليه عند الانقباض .

وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى شيء مرة ويميل عنه أخرى ، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة ، فلا يصادف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بشرًا تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

الوجه الرابع : تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة :

وهو وجه هام ، ذهب عنه الناس ، فلا يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك هو صنيعه العجيب في القلوب ، وتأثيره العميق في القلوب<sup>(١)</sup> .

لو أن إذاعات عالمية أو صحفاً كبرى أخبرت عن دويلة صغرى أنها أخذت بكتاب لديها فارتقت من دحض الضعف والتخلف والجهل إلى أوج القوة والتقدير والعلم حتى اكتسحت الدولتين الأعظم لا عترنا ذلك حيلة إذاعية ، أو خدعة صحفية ، لأن هذا يتنافى مع ما جرت به العادة وقوانين الاجتماع ، وقد كان العرب أدنى من ذلك حالاً وأشد تخلفاً ، وإذا بهم بهذا القرآن وتأثيره فيهم انقلبوا حتى كانوا كما سجل القرآن نفسه في مدحهم : «كُتُّمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» ، وهكذا ظل القرآن مدى التاريخ كتاب

(١) كما ذكر الخطابي في رسالته «بيان إعجاز القرآن» ص ٦٤ .

الهداية ، يؤمن بسيبه الكافر ، ويهدى الضال ، ويتوب الفاسق ويُشوب العاصي ، مما لا تجده من التأثير العميق لكتاب آخر قط .

وهذا كما قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًَا مَثَانِيَ تَقْشِيرٌ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .

\* \* \*

## الفصل الحادي والعشرون

### التصوير في القرآن

بحث هذه الخاصة في أسلوب القرآن قديم وحديث ، سابق ولاحق ، ييرز الإعجاز عن إدراك إعجاز القرآن ، وقد أشار القدماء لهذه الخاصة بما عبروا عنه حسب مصطلحاتهم كالتخيل والتجسيم ، دون أن يغوصوا أعماقه الفنية ، حتى إذا جاءت العصور الحديثة وفيها ارتقى التصوير ، وأدوات العرض بالرؤبة من أشرطة وأجهزة رائية جهد الأدب أن يلحق المصوّرة ، ويحل بالكلمة والعبارة محل الصورة ، وكان من البدهي أن يلتفت الدارسون إلى إعجاز القرآن يبحثون فيه عن الصورة وعن فن التصوير .

وكان أن وجدوا في أدب القرآن المعجز أنه معجز في تصويره بالمعنى العصري الحديث كما أنه معجز في نظمه في نظرية النظم في الاصطلاح القديم<sup>(١)</sup> ، كيف لا وهو الذي تحدى الله تعالى العالمين كلهم أن يأتوا بمثله ، أو بمثل سورة منه ، وأعلن لهم على رؤوس الأشهاد أنهم لم يأتوا بمثله ، ولن يأتوا بمثله ، فكان إعجاز القرآن معجزاً في كل عصر ، وفي أي مقياس أدبي صحيح ، وذوق فني سليم ، لا ينحصر بعصر دون آخر ، ولا يضيق على مقياس أدبي صحيح أو آخر ، ولا يستطيع أن يدرك كنهه أو يحيط بأسراره عقري بل ولا عصر من العصور أو جيل من الأجيال ، إنها معجزة فوق الإعجاز ، معجزة كل عصر وزمان .

---

(١) إشارة إلى نظرية «النظم» التي فسر بها الجرجاني إعجاز القرآن .

يتجه القرآن لهذا الإنسان فيخاطبه بكليته ، وذاته كلها عقله وفكره ونفسه ووجوداته ، يخاطب كينونة الإنسان كلها ، وذلك بأسلوبه العجيب أسلوب التصوير الحي .

لو استعرضت القرآن من بدايته إلى ختامه فستجد طريقة خاصة بالتعبير الفني تكسو أسلوب القرآن حتى يصطبغ بألوانها البرّاقة الزاهية فإنك لن تجد فيه بياناً مجرداً لمعنى ذهني ، أو حالة نفسية أو حادث مادي أو مشهد منظور ، أو طبيعة آدمية ، أو موقف من مواقف يوم الحساب ، بل تجده عبر عن كل منها بصورة محسوسة متخيلة ، حاضرة شاخصة ، صورها بالألوان أو الحركات أو الإيقاع ، ومزج بها جرس الكلمات ونغم العبارات ، حتى تسري في أوصالها الحياة وتدب في جنباتها الحركة فإذا خلع عليها الحوار فقد نفع فيها الروح فاكتملت فيها كل عناصر التخييل الحسي والتشخيص الحي ، حتى ترتكب ساحة الحوادث على بساط الطبيعة والواقع ، وتنسى أن هذا كلاماً يُتلى ، لأن القرآن قد أحالك من قارئه أو مستمع إلى مشاهد يتبع أحداث المنظر وتتجدد الحركات ، وفيض الانفعالات الدافقة والوجودات المتجاوية مع الحوادث الجارية... فتبدي لك صورة حية بارعة خلابة ، تهيمن على مشاعرك وأحساسك حتى يجعلك أمام قبس من الحياة الحقيقة .

أما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة وحتى ينقلهم نقلأً إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتواتي المناظر ، وتتجدد الحركات وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى ومثل يُضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع أمامه ، وهذه شخصوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجودات المنبعثة من الموقف ، المتساوية مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنتم عن الأحساس المضمرة» .

«إنها الحياة هنا وليس حكاية الحياة» .

«إِذَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْأَدَاءَ الَّتِي تَصُورُ الْمَعْنَى الْذَّهَنِي ، وَالحَالَةُ النُّفُسِيَّةُ ، تَشَخَّصُ النَّمُوذِجُ الْإِنْسَانِي ، أَوَ الْحَادِثُ الْمَرْئِي ، إِنَّمَا هِيَ الْفَاظُ جَامِدَة ، لَا أَلْوَانٌ تَصُورُ ، وَلَا شَخْصٌ تَعْبُرُ أَدْرِكَنَا مَوْضِعُ الْإِعْجَازِ فِي تَعْبِيرِ الْقُرْآن»<sup>(١)</sup> .

وَيُوَسِّعُنَا أَنْ نَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ التَّيِّنَجَةَ الَّتِي اَنْتَهَى إِلَيْهَا صَاحِبُ الْبَحْثِ فِي «الْتَّصْوِيرِ الْفَنِيِّ» لِعُلُّهَا كَمَا قَالَ الدَّكْتُورُ صَبِّحُ الصَّالِحُ<sup>(٢)</sup> : «أَنْ تَكُونَ أَصْدِقُ تَرْجِمَةً لِمَفْهُومِنَا الْحَدِيثِ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، لِأَنَّهَا تَسْاعِدُ جِيلَنَا الْجَدِيدَ عَلَى استِرْوَاحِ الْجَمَالِ الْفَنِيِّ الْخَالِصِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَتَمْكِّنُ الدَّارِسِينَ مِنْ استِخْلَاصِ ذَلِكَ بِأَنفُسِهِمْ ، وَالاستِمْنَاعُ بِهِ بِوْجْدَانِهِمْ وَشَعُورِهِمْ ، وَلَا رَيْبُ أَنَّ الْعَرَبَ الْمُعَاصِرِينَ لِلْقُرْآنِ دَهْشُوا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِأَسْلُوبِهِ الَّذِي حَاوَلُوا أَنْ يَعَارِضُوهُ فَمَا اسْتَطَاعُوا ، حَتَّى إِذَا فَهَمُوهُ أَدْرَكُوا جَمَالَهُ ، وَمَسَّ قُلُوبَهُمْ بِتَأْثِيرِهِ . . . . » .

### وسائل التصوير الفني في القرآن :

لَيْسَ أَدَوَاتُ التَّصْوِيرِ الْفَنِيِّ قَاسِرَةً كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى أَدَوَاتٍ مُعِيَّنةٍ ، مِنْ تَشْبِيهٍ مَرْكُوبٍ أَوْ بَسِيطٍ ، أَوْ مِنْ اسْتِعَارَةٍ تَخْيِيلِيَّةٍ أَوْ غَيْرَ تَخْيِيلِيَّةٍ ، أَوْ مَجازٍ أَوْ نَحْوٍ مَا قَدْ يَقْعُدُ فِي خَاطِرِ الدَّارِسِ قَبْلَ التَّمْعَنِ وَالتَّرْوِيِّ ، هَذَا ظَنُّ الَّذِينَ يَغْلِطُونَ فِي حِسْبَوْنِ الْأَدَبِ صِنَاعَاتُ الْحَرْفِ وَالْحَدِيدِ وَالْخَشْبِ ، وَهُمْ بِذَلِكَ يُفْقِدُونَ الْأَدَبَ حَيْوَتَهُ وَيَحْنُطُونَهُ جَثْمَانًا فَاقِدًا رُوحَهُ ، فَالْأَدَبُ وَالْفَنُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ تَحِيطَ بِهِ الْقَوَالِبُ ، أَوْ تَحْدِدَهُ الْحَدُودُ ، فَكِيفَ بِمَعْجَزَةِ الْأَدَبِ وَفِنِ التَّصْوِيرِ فِيهَا . . . .

إِنَّ وَسَائِلَ التَّصْوِيرِ فِي الْقُرْآنِ هِيَ كُلُّ وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ تُشِيرُ إِلَى الْمُخِيلَةِ وَتُسْتَدِعِي الصُّورَةَ إِلَى الْفَكْرِ ، وَتُسَيِّرُ الْحَرْكَةَ ، وَتَلْمِسُ مُشَاعِرَ الْوَجْدَانِ وَالْقَلْبِ .

(١) التَّصْوِيرُ الْفَنِيُّ فِي الْقُرْآنِ ص ٣٣ .

(٢) فِي كِتَابِهِ «مِبَاحِثُ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ» ص ٣٢٠ .

فالحروف في القرآن تصور ، والكلمة تصور ، والجملة ، وفنون البلاغة كذلك تصور ، وهناك من وراء ذلك أدوات وأدوات ، وهناك «تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالإيقاع . . . وكثيراً ما يشترك الوصف وال الحوار وجرس الكلمات ، ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن ، والحسّ والخيال ، والفكر والوجدان . . . ».

أما المادة التي تُستخدم من المعاني والأشياء فهي مادة «تصوير حي متزرع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة ، تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، فالمعنى ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخليع عليها الحياة»<sup>(١)</sup> .

ولسنا هنا أمام ظاهرة ضيقة لكي نتلمس لها الأمثلة ، ونتكمل لها الاختيار ، بل إنك حينما قلبت الطرف في هذا القرآن وجدت فيه خصائص الإعجاز الأسلوبي عامة ، والتصوير منها خاصة .

فمن التصوير بالحرف : هذه الآية الوجيزة الجامحة من سورة القلم :  
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

هذه الآية أمدح قول يقال ، جمعت في وجاهة عبارتها الفضائل العلمية والعملية ، لأن المخلق الكريم لا يتحقق في الإنسان إلا بعد معرفته ما يحسن من الأمور وما يقبح ، وما هو الأحسن ، ثم يختار الأحسن والأفضل في كل موقف ، وأمام كل مسألة ، وينفذه ، فذلك ما يقتضيه الوصف بالخلق العظيم .

لكن حرف الجر «على» نقل هذا المعنى المجرد إلى صورة حسية يتخيّلها المرء ، لأن هذا الحرف معناه الاستعلاء ، والاستعلاء إنما يكون على شيء مادي ، فكأن مكارم الأخلاق قد ذلت وانقادت للنبي صلى الله عليه وسلم يتصرف فيها تصرف المستعلي على الشيء المتمكن منه ، كما أنها أفادت رفعة مقام النبي صلى الله عليه وسلم لأنّه في قمة المكارم والفضائل ،

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ٣٢ .

فلا يمكن أن يدايه أحد أو يساويه لأنه علا فأصبح «على خلق عظيم» .  
وهكذا ارتقى المعنى بهذا التصوير ليبلغ غاية لا تساميها غاية ، حيث أصبح النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى المكارم والفضائل ، ثم هي فوق ذلك لا تصدر عنه بتكلف أو مشقة بل بغاية اليسر ، لأنها منقادة له ، وتلك نهاية في الكمال لا تدرك ، ولا يبلغها إلا من قال الله تعالى له : «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» .

ومن ثم قال المادح المتذوق عظم هذه الآية وجلالها :

إذا اللَّهُ أَثْنَى بِالذِّي هُوَ أَهْلُهُ      عليه مما مقدار ما يمدح الورى  
ومن التصوير بالحرف : هذه الجملة من مطلع سورة البقرة : «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» .

قوله : «ذَلِكَ الْكِتَابُ» أفاد غاية كمال القرآن ، حتى كأنه لا كتاب سواه ، وذلك لأن هذه العبارة جملة اسمية مُعرَّفةُ الطرفين ، وتعريف طرف الجملة الاسمية يفيد الحصر ، فأفادت الجملة حصر صفة الكتاب في القرآن ، والمراد بيان غاية كماله حتى كأنه لا كتاب سواه ، كما تقول : لا شجاع إلا على .

لكن حرف اللام في «ذلك» وهو لام بعد أضفى على المعنى خيالاً مصوراً فإنه أفاد أن هذا الكتاب لفروط كماله بعيد عن أن تناهه أطماع الطامعين بانتقاد شيء منه أو الإتيان بمثله ، فصور تعالى المعنى بالبعد الحسي ، فاستعمل اسم الإشارة ، وهي تستعمل حقيقة في الحسيات ، وأدخل لام بعد ، يصوّره لنا في بعده المعنوي عن أن يتوصل إليه بالبعد المكاني الذي لا تبلغه وسائل التوصيل .

ومن التصوير بالكلمة : قوله تعالى<sup>(۱)</sup> : «الذِّي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَلْوُكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» .

(۱) في مطلع سورة الملك .

فقوله تعالى هنا : **﴿لِيُلُوكُم﴾** المراد منه يختبركم ، وأصل المقصود ليظهر أيكم أحسن عملاً ، ولما أن الاختبار يكشف هذه الحقائق ويظهرها فقد عبر به عن ذلك ، لكن الآية القرآنية نقلتنا من هذا المعنى المجرد إلى صورة فيها المعاناة المستمرة باستعمال الكلمة **﴿يُلُوك﴾** وأصل الكلمة من (الليل) ، فصورت هذه الكلمة الإنسان بعرضه لامتحانات واحتياكها به في كل شؤونه وكأنه قد بلي منها ، وجاءت الصيغة **﴿يُلُوك﴾** بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار لكي تحضر لك صورة هذا الإنسان وأنواع الاختبارات تتواتي عليه في عباداته ومعاملاته ، وما له وبده ، ونفسه ومجتمعه ، ودنياه وأخرته هل يستقيم فيها جميعها على أمر الله أو لا يستقيم ، فتتابع عليه الابلاء حتى بلي ، فأثرت الكلمة في إيجاد الصورة كما لعبت الصيغة دوراً أعطى الصورة حركة وحساً ، لو عبرت بكلمة أخرى أو صيغة أخرى غير المضارع من المادة نفسها لفات من غرض الكلام ونقص مغزاها .

ولصيغة الكلمة الصرفية دورها الهام جداً في أسلوب القرآن الكريم ، ينطوي على لون من قمة الإعجاز البصري ، بل وجدناه ينطوي على إعجاز علمي عظيم .

ومن أمثلة ذلك هذه الآية<sup>(١)</sup> : **﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾** .

تصور كل من الكلمتين **﴿صَافَاتٍ وَيَقْبِضُنَّ﴾** طيران الطيور في الهواء ، في حال بسط أجنحتها ، وفي حال ضربها بأجنحتها على جنوبها **﴿صَافَاتٍ﴾** : أي بساطات أجنحتها **﴿وَيَقْبِضُنَّ﴾** أي يضربن بأجنحتهن على جنوبهن ، والصورة واضحة من التعبير ، وجاءت الكلمة فوقهم ل تستكمم صورة الطيران فهو محلق في الهواء **﴿فَوْقَهُم﴾** .

لكن التأمل الدقيق يوقننا على سر في التعبير غاية في العجب ، ذلك أنه

---

(١) سورة الملك أيضاً ، الآية ١٩ .

اختار في المعنى الأول صيغة اسم الفاعل «صفات» ، وفي المعنى الثاني الفعل المضارع «يقبضن» .

ولو أنه قال : «قابضات ويصفقن» لما فات التناجم الموسيقي الذي يتهم بعض الناس فيه ما لا يجوز من الأوهام ، فما السر في هذا الاختيار للصيغة المختلفة في كل معنى من المعنيين ؟

إن الإعجاز العلمي الكامن وراء هذا التصوير هو الذي يكشف لنا سر هذا الاختيار .

لقد عَبَر القرآن عن بسط جناح الطائر في طيرانه باسم الفاعل «صفاتٍ» ، وعَبَر عن قبض الطائر جناحه وضربه جنوبه بجناحيه بصيغة الفعل «يَقْبِضُنَّ» ، ليأتي التصوير الفني في القرآن على غاية الدقة في موافقة قانون الطيران ، وذلك لأن الأصل في قاعدة الطيران هو بسط أطراف الجسم الطائر في الهواء ، وهو القانون الذي بُنيت عليه الطائرات الحديثة بأنواعها ، ووجدت به رياضة الطيران الشراعي ، فجاء القرآن في تصويره للطيران بالتعبير عما هو طاريء بلفظ الفعل ، لأنه يفيد الحدوث وعَبَر عما هو الأصل بصيغة اسم الفاعل ، أي أنهن في جو السماء صفات ويكونون منها القبض تارة بعد تارة<sup>(١)</sup> .

ومن التصوير بالجملة : قوله تعالى : «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيرَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بَأَنْعَمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجَوَعِ وَالْخُوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» .

وقد جاء التصوير في الجمل هنا بواسطة الاستعارة ، وهي استعارة قرآنية تعلو إلى أسمى مراتب البلاغة ، لا يصل إليها بيان إنساني قط ، إنما هو بيان القرآن فقط .

---

(١) باختصار وتصرف عن تفسيري الكشاف والنسفي وكتابنا محاضرات في تفسير القرآن ص ١٢٧ - ١٢٨ .

ففي هذه الآية الكريمة استعارات متعددة تبلغ أعلى درجات البيان : أنظر قوله تعالى : «**فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالخُوفِ**» وتأمل ما فيه من اجتذاب النفوس والعقول والمشاعر ، فقد أضاف اللباس إلى الجوع ، وفي ذلك تشبيه الجوع باللباس ، على سبيل الاستعارة ، فالجوع القائم المستمكن الذي ي عدم فيه القل ، ويكثر العدم ، والخوف الذي يفزع النفوس ، ويذهب بالاطمئنان ، ويلقي بالاضطراب ، شبهه باللباس السابع ، لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله ، وكذلك الجوع إذا عم ، والخوف إذا طم ، فإنه لا يبقى في الجماعة أحد لم ينله ، لأن الأزمات الجانحة ، والخوف من عدو داهم لا ينجو منه أحد ، فكان التعبير عن هذه الحال باللباس ، وفوق ذلك فإن اللباس يلتتص بالجسم ويلازمه ولا يفارقه ، وكذلك الجوع ، والهم والغم والخوف ، وفي ذلك تصوير للأمة أو المدينة إذا عمتها المؤس والشقاء وداهما الخوف من كل ما يحيط بها .

وهناك استعارة أخرى وهي قوله تعالى : «**أَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ**» ، فإن اللباس يلبس ولا يذاق ، ولكن لباس الجوع والخوف لأنه يتصل بالنفس ، وبالنعمه تزول بعد أن كفروا بها ، عبر عنه بالذوق ، فشبّه حال التزول بحال الإذقة ، للنزول الذي ترتّب عليه أنهم أحسوا بمرارة المذاق بعد أن كانوا في بحبوحة العيش فكان التعبير بأذاق أنساب لهذا المعنى .

وهناك استعارة تمثيلية ثبتت من مجموع العبارات ، وهو تشبيه حال جماعة من الناس كانت مؤمنة مروزة فلما كفرت بالنعم فلم تقم بحقها ، ولم تؤد الطاعات ولم تنته عن المنهيّات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها واسعاً من كل مكان فجحدت نعمة الله تعالى فضاق رزقها ، وبدلت من الأمان خوفاً ، ومن الرغد جوعاً<sup>(١)</sup> .

ومن الأمثلة للتوصير بالجملة قوله تعالى : «**وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً**»<sup>(٢)</sup> .

(١) المعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٤ .

قال الرمانی<sup>(١)</sup> يوضح بلاغة هذه الآية وما بها من الاستعارة :

«أصل الاشتعال للنار ، وهو في هذا النص أبلغ ، وحقيقة كثرة شب  
الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايداً سريعاً صارت في الانتشار  
والإسراع كاشتعال النار ، وله موقع في البلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر في  
الرأس انتشاراً لا يُتَلَافِي ، كاشتعال النار» .

وهذا التعبير لم يكن معروفاً عند العرب ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب  
باشتعال النار للسرعة وللبياض وللملازمة ، ولأنه يتنهي بتدمير ما تصل به ،  
وتجعل حطامه تراباً<sup>(٢)</sup> .

هذا عرض سريع لفن التصوير في القرآن ، يبرز إعجاز القرآن وفق  
منظور معاصر ، ومقاييس في حديث ، سبق فيه القرآن تقدم العصور والقرون ،  
بل تفزن في هذا التصوير بما تعجز عنه آلات التصوير الحسية ، وفنون التصوير  
الأدبية ، وقد شمل في تصويره أنواع الظواهر الطبيعية في الإنسان والكون ،  
وتغلو في المشاعر الداخلية ، وعرض للمعاني الدقيقة في صور من السمع  
والبصر والذوق والوجودان واللون والزمان والمكان . . . وجعل من هذا الجمال  
الفنى المعجز قالباً يحمل جمال الفكرة والدعوة ، والحجج والبراهين ،  
والحکم والتشريع ، لكي يعتصم الإنسان بحبل القرآن في كل مكان وكل  
زمان .

\* \* \*

(١) في رسالته النكث في إعجاز القرآن ٨١ - ٨٢ .

(٢) انظر المعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة ص ٢٨٠ - ٢٨١ . وللحرجاني تفصيل قيم حول  
بلاغة الآية لم نطول به .

## الفصل الثاني والعشرون

### الكون في القرآن

هذا البحث من الدراسات التي أجدادها تقدم العلم في إبراز وجه عظيم من وجه إعجاز القرآن وهو إعجازه العلمي ، ولا يزال الدارسون يفيضون فيه مع ظهور الجديد في العلم ووسائله ، وكلما استقر قرار العلم في مسألة ما بإعطاء الحكم الجازم أو استخلاص التبيبة النهائية فيها .

وعلى الرغم من بدائية الإنسان العلمية لدى نزول القرآن وانتشار التسليم بالأفكار التي هي اليوم خرافية ، وعلى الرغم أيضاً من أن القرآن لم يقصد فيما عرض له من شؤون الكون تقرير علم كوني ، فإننا نجد القرآن يسبق القرن العشرين وعصور الكهرباء والذررة وغزو الفضاء .

ونستطيع أن نوجز إعجاز القرآن العلمي في ركنتين أساسين :

الأول : ما احتواه القرآن من المعرف عن الكون وأصناف المخلوقات . وفي هذا يقول الدكتور موريس بوكاي<sup>(١)</sup> : «إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص (يعني القرآن) لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة ، فهناك الخلق ، وعلم الفلك ، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، والتناسل الإنساني ، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ . يعني فضلاً عن أن

---

(١) دراسة الكتب المقدسة ، ص ١٤٥ .

القرآن أتى بثقافة علمية سبقت بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات».

الركن الثاني : وقد يستغربه القارئ : وهو أن ما لا يحتويه القرآن هام أيضاً ، فإن القرآن «لا يحتوي في الواقع على ذكر النظريات السائدة في عصر تنزيله ، عن تنظيم العالم السماوي مثلاً ، تلك النظريات التي أثبتت العلم فيما بعد عدم صحتها... ولا بد من التنوية بهذا الطابع السلبي ، كما يقول الدكتور موريس بوكاي<sup>(١)</sup> .

والسبب في ذلك أنه لو كان مصدر القرآن غير سماوي لكان لازماً قطعاً أن تتسرب إليه نظريات ذلك العصر ، كما حدث لبعض مفسري القرآن أن فسر بعض الآيات خطأ متأثراً بمعارف عصره . كما فسر بعضهم قوله : «يا بني إسرائيل إن تكُّ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات...» فسر الصخرة بأنها صخرة عظيمة تستقر عليها الأرض<sup>(٢)</sup> .

وتوكّد المقابلة بين القرآن والتوراة والإنجيل دلالة هذين الركنين : فإن القرآن - كما يقول الدكتور بوكاي : «يشير وقائع ذات صفة علمية ، وهي وقائع كثيرة جداً خلافاً لقلتها في التوراة ، إذ ليس هناك وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية في القرآن ، وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية...» .

ومن هنا كانت النتائج خطيرة ومتباينة جداً لدى الدراسة المقارنة ، والتي توصل إليها عالم كبير لم يكن لدى تصديقه للدراسة مسلماً ، هو الدكتور موريس بوكاي نفسه ، فاستمع إليه يحدثك عن النتائج<sup>(٣)</sup> :

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٢) انظر ذلك في تفسير النسفي للآية ١٦ من سورة لقمان وكذا وقع نحوه لغيره وانظر

تفسير الآية في كتابنا في التفسير ص ٧١ .

(٣) دراسة الكتب المقدسة ، ص ١٣ - ١٤ .

«لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أي فكر مسبق ، وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكانت أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتي كانت وجيبة . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي (١) استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على آية مقوله قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث .

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل :  
أما بالنسبة للعهد القديم : فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ، أي سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوحاً في عصرنا .

وأما بالنسبة للأنجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعه واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة وتعني بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعرفات الحديثة بقدم الإنسان على الأرض ..» .

«سيجد القارئ في الجزءين الأول والثاني في هذا الكتاب (٢) أمثلة صحيحة في ذلك . أما الجزء الثالث فسيجد فيه القارئ أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة (يعني القرآن) ، وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان ، كما سيجد القارئ في ذلك بياناً لما قد جاء به العلم الحديث الذي هو في متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التي ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة ، ولا عجب في هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائماً أن الدين والعلم توأمان متلازمان .

(١) تعلم الدكتور موريس بوكاي اللغة العربية بإتقان حتى يتمكن من دراسة القرآن بنفسه ، فليعتبر بذلك شبابنا .

(٢) أي كتاب «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعرفات الحديثة» .

فمنذ البداية كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام، وإن تطبق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الإزدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية ، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوروبا . وإن التقدم الذي تمّاليوم بفضل المعارف العلمية في شرح بعض ما لم يكن مفهوماً أو في شرح بعض ما قد أسيء تفسيره حتى الآن من آيات القرآن ، ليشكّل قِمَةً المواجهة بين العلم والكتب المقدسة» .

### الأصول العامة لحديث القرآن عن الكون :

إذا أردنا بعد هذا أن نزداد فهماً للقرآن في حديثه عن الكون فتأملنا حديثه هذا وما اشتمل عليه من المعلومات والمعارف فإننا نجد أن هناك أصولاً عامة يجب أن تكون نصب أعيننا لدى دراسة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون ، وهذه الأصول هي :

١ - إن القرآن الكريم لم يتخذ العلوم الكونية موضوعاً من موضوعاته الأساسية ، بل كان غرضه الأكبر هو هداية الناس . «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» . «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور» . فهو لم يضع نظريات في العلوم ، وليس يرفع من قدره أن يفعل ذلك ، لأن هذه العلوم إذا خلت من الهدایة تحولت إلى نعمة تحقيق بالإنسانية . كما هو مشاهد لنا على مستوى الأفراد والجماعات والدول ، فحسب القرآن أن ينشئ المجتمع الفاضل ، لكنه في الوقت نفسه قد أرسى أسس تقدم العلم بما رسم من مفاهيم صحيحة ، وأبطل من أفكار زائنة .

٢ - إن العلوم الطبيعية خاضعة للتدرج يوماً بعد يوم فترك القرآن بحث النظريات العلمية ابتلاء للناس كما ترك غيرها من الوسائل الحيوية والمهن والصناعات والحرف ليترك المجال مفتوحاً وليستحق كل بما يقدمه . وقد وقف القرآن من هذه العلوم موقف المؤيد الموافق لها فأمر بها وحضر الناس على النظر في مظاهر الكون وما تكتنه من أسرار ودلائل مما أودعه الخبر القدير من أعاجيب الخلق والتكونين ، وبينَ القرآن أن حقائق هذا الكون فيها عبرة للعقلاء

من الناس : «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب» .

٣ - قرر القرآن أن الكون خادم الإنسان مُسخّر له ، وأثبتت العلوم الحديثة ما قرره القرآن ، والتاريخ الإسلامي لم يعرف الانفصال بين عالم الدين وعالم الطبيعتين ، فابن النفيس مثلاً عالم الضوء كان إماماً في الفقه الشافعي يقتدى به ، وغيره كثيرون ، فليس هناك تباين بين الدين والعلم ، بل كثيراً ما قد نجد عالم الدين عالماً كونياً وعالم الكون عالماً دينياً ، فلا عداء بين الإسلام والعلوم الكونية قديمها وحديثها لأن الكون في مفهوم القرآن مُسخّر كما بینا للإنسان ، بخلاف ما ساد في أوربة حتى عهد قريب من أن الإنسان وجد في جو معاد له وأن الكون يصارع الإنسان .

وقد أثبتت الأبحاث العلمية المتقدمة أن هذا الكون خادم للإنسان ، وأن مجال انتفاع الإنسان منه لا يمكن أن يحيط به الحصر ، بل يخضع لمدى قدرة الإنسان على الانتفاع منه ، وذلك ما أشار إليه القرآن في مواطن كثيرة كقوله تعالى : «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» قوله : «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ...» قوله : «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» .

فقد عبر القرآن تعبيراً دقيقاً عن العلاقة بين الكون والإنسان في هذه الكلمة «سخر» بكل ما فيها من معاني استمرار الخدمة ، فكان هذا الموقف من القرآن الكريم تقريراً لقاعدة العلم الأساسية ومنطلقاً للعلماء في أبحاثهم .

٤ - إن القرآن تكلم عن حقائق الكون ولم يتَّبَعْ نظريات علمية ، لكنه تكلم ولفت النظر إلى ما في الكون من عجيب الصنع وكان هدفه الاستنباط والاستدلال على المكون الخالق والامتنان على الناس بما أنعم الله عليهم . وهذان الغرضان متلازمان مع الهدف الذي من أجله جاء القرآن ، فالمنة والإنعم تستدعي الشكر والطاعة والتقرب إلى الله تعالى .

ومن ثم جاء موقف هام آخر للقرآن ، وهو أن القرآن في حديثه عن الكون جاء من حيث طريقته جاماً بين الإجمال والتفصيل ، وفي هذا الحديث نجد التوافق بين القرآن والعلم قرناً فقرناً ، وهنا يظهر عنصر معجز عظيم لأن القرآن في حديثه عن الكون انتقد من التأثر بما كان عليه أمر الناس من علوم ونظريات سائدة في ذلك العصر ، فقد كان في عصر القرآن الكريم من يعبد الفلك ومظاهر الطبيعة مثلاً ، فجاء القرآن وتكلم عن الكون وعن الأفلاك كلاماً علمياً يتفق مع أحدث النظريات القائمة المعتمدة اليوم ، ولا مصدر لهذا العلم في ذلك الوقت القصي إلا التنزيل عن خلق الكون ، ولذلك نجد أن كثيراً من مواقف القرآن الكريم يزداد على مدى الزمن وضوحاً ودقة ، بعد أن كان يفهم فهماً إجمالياً .

خذ مثلاً قوله تعالى : «**وأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَوَاقِحَ**» في معرض الحديث عن المطر والسحب ، وقد تبين ذلك في العلم الحديث ، فالرياح التي تمطر تلقي السحاب ببعضه ، إذ تتفاعل القوة الموجبة في السحاب مع القوة السالبة فيكون البرق والرعد والمطر ..

خذ مثلاً قوله تعالى : «**وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْجَينْ لِعِلْكُمْ تَذَكَّرُونَ**» وقد فهم المتقدمون من زوجين الأمررين المتقابلين كالليل والنهار والظلمة والضياء ، ولكن المعنى الأوسع هو السالب والموجب ، فإن أصغر خلية في الذرة وهي الجوهر تتألف من السالب والموجب وقد جاء العلم الحديث يقرر أن مادة الكون ترجع إلى عنصر واحد هو (الطاقة) ومن الطاقة الموجبة والطاقة السالبة تتكون الذرة ، ثم المادة ..

وهكذا توصل التقدم العلمي الحديث إلى ما سبق أن قرره القرآن منذ أربعة عشر قرناً . وهذا الموقف للقرآن من العلوم كان له أثر في تحرر الناس من الخرافة والأوهام وفي تقدم العلوم على أيدي المسلمين بعد أن كان العالم في الظلمات حتى تلمس العالى قرونًا على يد المسلمين الذين منهم انبثقت الشعلة ، وإنما لنرجو أن تتحقق هذه الأمة بتقدمها الخلقي الديني وما ينبثق عنه

من تقدم علمي مجدًا يسابق مجدها القديم برسالتها الخالدة في إنقاذ الإنسانية وهداية بنى الإنسان .

### شروط تفسير الآيات الكونية :

يحاول كثير من العلماء المخلصين تفسير الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون ، وإبراز ما في تضاعيفها من موافقة مكتشفات العلم ، وكثيراً ما أوغل بعضهم وتكلف . مما لا يتفق مع أصول علم التفسير ، ونقتبس على هذا الصنيع ملاحظتين من فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمد أبو زهرة<sup>(١)</sup> تشملان شروط قبول هذا التفسير :

**الملاحظة الأولى :** أنهم يحاولون أن يُحَمِّلوا القرآن نظرياتهم . وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه وكما تومي إشاراته ، وذلك لأنهم أحياناً يُحَمِّلُونَ القرآن ما لا يحتمل ، ويرهقون ألفاظه بالتأويل ، وأحياناً يأتون بنظريات لم تكن حررت بعد من الشك والنظر ، وقد تتغير .

ولا يصح أن يبقى القرآن تردد معانيه باختلاف النظريات ، بل إن الواجب أن ندرس ما في القرآن على أنه حقائق ، بما وافقه من العلوم قبلناه .

**الملاحظة الثانية :** أن يدرس الكون في القرآن على أنه (يعني القرآن) حقائق ثابتة ، وأنه هو موضع التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن ، فلا تجعل حقائقه (القرآن) موضع نظر ، بل إن الإيمان بالقرآن يوجب الإيمان بكل ما اشتمل عليه ، ولا يصح لنا أن نترك ظاهر القرآن ونتوجه إلى تأويله ، إلا أن يكون الظاهر يقبل التأويل وتكون حقائق العلم الثابتة تقتضي الأخذ بالتأويل الذي يحتمله القرآن من غير تعسف ، ولا خروج بالألفاظ إلى غير معانيها .

وإنا بهذه الدراسة وبما قررناه من شروط تفسير الآيات الكونية نؤكّد الحقيقة المسلمة أن كتاب الله تعالى هو كتاب الحق ، والصدق والعلم ، لأنَّه من عند الله تعالى الذي لا يخفي عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، وهو كتاب الوجود لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

\* \* \*

(١) في كتابه «المعجزة الكبرى» ص ٥٥٢ .

## الفصل الثالث والعشرون

### القصة في القرآن

لا يخفى ما تدل عليه أخبار الأمم السابقة مع أنبيائها ، ووقائع الماضي البعيد الذي عفت عليه الأيام ، وذهبت بعلمه ومعرفته ، فالقصص عن الأمم السابقة معجزة بينة ، وحججة حاسمة من دلائل علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، كما أنه دروس وعبر ، وحكم ومواعظ يفهمها العامة من مؤمن ومنكر ، والخاصة من متعمق ومتمعن ، لذلك عنى القرآن الكريم بأنباء السابقين أيمانا ، وبث هذه الأخبار في ثنايا دعوته ، ولتأييد حججه وبياناته .

#### أهداف القصة في القرآن :

لا بد أن يلاحظ المتأمل لكتاب الله تعالى عناته بالقصص حتى إنها قد بُثت في ثنايا الكتاب الكريم بشكل بارز ملحوظ ، وذلك لما يهدف إليه إيرادها من الحكم والأسرار الجليلة ، نلخص جملة من أهمها فيما يلي :

أولاً : الهدف الأكبر والأعظم للقصص في القرآن هو إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن وحيٌ يوحى من الله تعالى ، وذلك لأن علم الماضي قد ذهب واندثر ، والنبي صلى الله عليه وسلم أميٌ لا يقرأ ولا يكتب ، وقومه كذلك أميون ، لم ينشأ بين أهل الكتاب ولا كان ثمة مدرسة يتعلم منها هو أو أحد من قومه ، ولا خالط أحداً من أهل العلم بالكتاب السابق ولا تلقى عن أحد منهم شيئاً قط ، فلما جاء بهذه الأخبار ينبغيء بها نبأ الأنبياء مع أممهم ، فيطابق ما كان عند أهل الكتاب صواباً لم يدخله خطأ ، ويصحح ما كان عندهم

دخله تغيير أو تبديل ، ويخبر بوقائع لا يعلمها أهل الكتاب ولا ذكرت في تراثهم فكان كما قال تعالى في وصف القرآن : «مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» . وهذا مع أن علماء أهل الكتاب كانوا يخفون تلك العلوم التي عندهم ولا يطلعون أحداً عليها ، فدل ذلك القصص على أنه لا يمكن إلا أن يكون تلقياً من عالِم الغيب والشهادة ، الذي يعلم السر في السموات والأرض .

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الوجه من الإعجاز ، وصرح به في مواضع متعددة ، تأكيداً لإعجازه ، وتأكيداً لتحدي المرتاب الشاك ، والمنكر المعاند .

فنجده - مثلاً - عقب ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها يقول : «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْلَامَهُمْ أَيْمَهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ»<sup>(١)</sup> .

ويقول في سورة هود : «تَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَقْبِلِينَ»<sup>(٢)</sup> .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أمياً لم يقرأ كتاباً قط ، ولا تعلم من عالم قط ، وقومه كذلك أميون ، وهو لم يشاهد تلك الحوادث ولا التقى بشخصيات تلك الواقع التي قصها القرآن ، بل قد تعرض للامتحان فيما يأتي به من قصص الغيب الماضي ، فطرح عليه أهل الكتاب أسئلة مما يعلمونه مغيبة عنه فسألوه بواسطة أهل مكة عن أهل الكهف والروح وذي القرنين فأجابهم عن ذلك كله بدقة وتفصيل ، فآمنا من ذلك «.. إِنَّهُ مَا عَلِمَ إِلَّا بِوْحِيِ اللَّهِ وَاطْلَاعَهُ عَلَيْهِ ، وَهِيَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، لَا يَقْعُدُ الصَّدْقُ فِيهَا إِلَّا بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة هود ، الآية ٤٩ .

(٣) ثبَّتَ دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار الهمَذاني ص ٨٦ - ٨٧ . وفي هذه العبارة إشارة هامة إلى حكمة من حكم كثرة القصص واتساع المساحة التي يحتلها من القرآن ، وهي تأكيد هذا الإعجاز .

ثانياً : بيان أن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله في النهاية ، وبذلك الكافرين المكذبين ، ولا يخفى ما في ذلك من تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقوية نفوس المؤمنين ونذر الضالين المعاندين وحزنهم عن مواقفهم ، فتأثر النفوس كل نفس بحسب ما تحتاج إليه ، إذ يتواتي عليها بيان نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ويتكرر رفع راية العدل ، ومحقق قوة الظلم من خلال وقائع القصص التي يذكرها القرآن ، بل بما يقع فيه من التصريح بهذا التنبيه ، وإثارة هذه القضية ، في كثير من مناسبات القصص .

تأمل هذه الآيات تعقيباً على قصص الأنبياء في سورة هود : **(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائمٌ وحصيدٌ . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنَّتْ عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيءٍ لما جاء أمر ربكم وما زادوهم غير تسبٍ ، وكذلك أخذ ربكم إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد)**<sup>(١)</sup> .

وفي سورة غافر يقول تعالى عقب قصة موسى وفرعون ومؤمن آل فرعون وإنجاء الله موسى والمؤمن وإهلاك فرعون : **(إِنَّا لَنَتَصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)**<sup>(٢)</sup> .

ثالثاً : بث المعاني الدينية الواضحة وترسيخ قواعد الدين ، بما يقع في ثانيا القصص من حوار ، ومواعظ وحجاج ، يصغي إليها السامع ، ويتابعها القارئ ، سواء كان موافقاً أو مخالفًا مؤمناً أو كافراً ، لما في طبيعة القصص من التشويق والإثارة . تأمل ما يلقيه مؤمن آل فرعون لما خشي على موسى من طغيان فرعون وبطشه :

(١) سورة هود ، الآيات ١٠٣ - ١٠٠ .

(٢) سورة غافر ، الآيات ٥١ - ٥٢ .

﴿وقالَ رجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ أَلْفِ فَرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَنْ تُقْتَلُونَ رِجْلًا أَنْ يَقُولُ  
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ... الْآيَاتُ إِلَى آخرِ الْقَصْةِ فِي سُورَةِ  
غَافِرٍ...﴾<sup>(١)</sup>

ففي قصة موسى مع فرعون هنا برزت التوجيهات على لسان الرجل المؤمن يقرر أموراً على غاية من الأهمية وهي جميعها معان دينية ، وتوجيهات صريحة تضمنها الحوار القصصي ، مما يجعل وقعتها في النفوس أبلغ وأعمق .

رابعاً : في قصص القرآن دحض ادعاءات تزعم في نشأة الأديان أن الإنسان الأول كان في ظروف الطبيعة القاسية والغابات ورؤوس الجبال ، فجره الخوف من مظاهر الطبيعة وعجزه عن تفسيرها إلى أن يتصور لكل منها إلهًا ، فجعل للريح إلهًا ، وللمطر إلهًا ، وللخصب إلهًا... وصنع التماشيل لهذه الآلهة وعبدتها . وكان ذلك برأيهم قبل ظهور الأديان السماوية ، ثم تطور الحال إلى الأديان السماوية وإلى توحيد الله تعالى ..

إن القرآن الكريم الذي وصفه الحديث : «فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم...»<sup>(٢)</sup> ليعطينا الأحجية الكثيرة لإبطال هذا الزعم الوهمي ، نقتصر منها هنا على ما يلي<sup>(٣)</sup> :

١ - إن الدين السماوي المبني على توحيد الله قد وجد مع وجود الإنسان ، فحين أهبط الله آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض قال لهم : «قلنا أهبطوا منها جمِيعاً فِإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُدَىٰ فَمَنْ تَبَعَ هُدَىٰ فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ...﴾.

ثم كان موقف الأنبياء جميعهم على ضد ما توهّمه هؤلاء ، فقد قاموا كلهم بإبطال العادات الفاسدة ، والعقائد الرائفة التي تفشت في المجتمع

(١) على القارئ استحضار الآيات وتأملها .

(٢) أخرجه الترمذى في فضائل القرآن ج ٥ ص ١٧٢

(٣) انظر التوسيع في كتابنا «الفكر المسلم» .

بسبب البعد عن العلم . وبسبب اتباع الأهواء . . . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قُرْيَةٍ مِّنْ نَّدِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .

فبني الأنبياء عليهم السلام دعوتهم على نبذ التقليد لكي يتحرر العقل ويعمل ب بصيرته النافذة ، فيتوصل إلى الحق ويعتصم به .

٢ - إن الأنبياء - كما قص القرآن علينا - إنما دعوا قومهم إلى الله تعالى وتوحيده بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة ، وعلى أوجه متنوعة كثيرة يشغل استيفاؤها بحثاً كبيراً .

هذا نبي الله نوح عليه السلام يقول لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا . وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنْتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يَعِدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . . . ﴾<sup>(٢)</sup> .

وابراهيم عليه السلام يقول لمن حاجه في ربه : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخْبِي وَيُمْبِتُ . قَالَ : أَنَا أُخْبِي وَأُمْبِتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ اللَّهَ يَأْنِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبَهَتَ الَّذِي كَفَرَ . . . ﴾<sup>(٣)</sup> .

وموسى عليه السلام يقول لفرعون عندما سأله ﴿ قَالَ : فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ؟ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾<sup>(٤)</sup> .

والقرآن حافل بالحجج ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسْبُحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٢٣ .

(٢) سورة نوح ، الآية ١٥ - ١٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

(٤) سورة طه ، الآية ٥٠ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

(٦) سورة الطور ، الآية ٢٥ .

وغير ذلك كثير جدًا ، يحكم بالبطلان على من زعم تأثر العقيدة أو الدين في القرآن وفي دعوة الأنبياء بعادة أو عرف أو أثر من المجتمع . . . ويثبت أن القضية إنما هي قضية حجة وبرهان ، فنقول لمن خالف القرآن في الإيمان بالله وتوحيده ما قاله القرآن وتحدى به كل مخالف : «**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادقينَ**» .

### قصص القرآن حقيقة تاريخية :

لقد صرخ القرآن بأنه يقص القصص الحق أي الثابت الواقع ، فكان ذلك دلالة على أن ما جاء في هذا الكتاب الكريم تبليًا لوقائع حدثت في غيب الماضي الذي اندثر علمه عن الناس ، وكان هذا القصص وجهاً من أوجه إعجاز القرآن الدالة على أنه من عند الله تعالى .

غير أن التحرif والدس في قصص الأنبياء الذي وقع في تراث الأمم السابقة عامة ، وفي المرويات الاسرائيلية خاصة دفع الباحثين العلميين الأجانب إلى التشكيك في هذه القصص بل إلى الغلو في التشكيك ، حتى في القضايا البدوية ، مثل وجود بعض الأنبياء المتقدمين الذين تدل دلائل اليقين القطاع على وجودهم ، بل منْ كان له الأثر الكبير في تحول الإنسانية مثل إبراهيم أبي الأنبياء أو موسى وعيسى عليهم السلام .

ثم جاء ببعاوات الثقافة الأجنبية من أبناء ملتنا لي Ruddوا بغير علم قالة أولئك ، ويطبقوها على قصص القرآن ، ويشروا حوله الشك والريب ، وكان ثمة فئة من الناس تستكثرون على هذا الإنسان أن يبقى له مرجع واحد ثابت لا يتطرق إليه الظن ، يرقى بهذا الإنسان مما آل إليه من الانحدار .

والعجب أن القرآن الكريم أحال الناس من قديم على مُخلفات الأمم البائدة وآثارها ، قبل أن يتقدم علم الآثار ليقرأ فيها الباحثون أخبار الأمم ويستنطقوها أحوالها ، تأمل قوله تعالى : «**وَإِنْكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّضِيَّحِينَ وَبِاللَّيلِ..**» ، وقال لفرعون : «**فَالِّيَوْمَ نَنْجِيَكَ بِيَدِنَاكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً..**» .

لقد أثيرت أسئلة حول موسى عليه السلام وعلاقة فرعون بقومه ، وزعم بعض المبشرين أنه كان مجرد طاغية كافر ، ليس بينه وبين قومه علاقة عبادة ، وأطلق بعض المبشرين لستتهم بما شاء لهم أدبهم في حق القرآن . وأثيرت أيضاً ريبة حول إبراهيم عليه السلام وجوده ، أثار المستشرق اليهودي جولد تسيهير هذه الريبة<sup>(١)</sup> .

لكن تقدم علم الآثار وتفوق العلماء في قراءة الأحافير جاء ليسجل مصدق ما جاء به القرآن الكريم ، وأنه صحيح أخطاء في تراث الأمم السابقة ، وتفرد بمعلومات دقيقة لم تكن معروفة عند أحد من العالم .

أما بشأن فرعون فقد تبين من الآثار أنه كان يقيم نوعاً من علاقة التأله مع شعبه . كما اكتشفت جثته التي تفرد القرآن بالإخبار عن نجاتها : «فال يوم نُنجِيكَ بِيَدِنَكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آية»<sup>(٢)</sup> . وعقد الدكتور موريس بوكيي فصلاً هاماً<sup>(٢)</sup> حول هذه القضية وهو قد شاهد «مومياء» فرعون هذا بنفسه في متاحف القاهرة واختتم الفصل بقوله : «أيُّ بيانٍ رائع لآيات القرآن ذلك الذي يخص بدن فرعون والذي تهبه قاعة المومياء الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكل من يبحث في معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة» .

وأما بشأن إبراهيم الخليل عليه السلام فقد جاءت الحفريات لتشتت أخبار القرآن عنه وعن قومه تلك التي قام بدراستها «ليوناردو وولي» وألف بناء عليها كتابه عن إبراهيم ، وإذا به يخبر عن قوم بابل وعبادتهم للنجوم ، وأن عبادة القمر سابقة على عبادة الشمس خلافاً لما قد يتBADل للذهن ، وأن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر ، ومن ذلك قدم القرآن

(١) في أوائل كتابه : «العقيدة والشريعة في الإسلام» ص ١٢ وما بعدها .

(٢) في كتابه القيم «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ص ١٤٩ - ٢٧١ .

ذكر الكوكب في قصة إبراهيم «فلما رأى كوكباً قال هذا ربى...»<sup>(١)</sup>.

ونختم بهذه الكلمة التي يقولها الدكتور بوكاي عن جثة فرعون إذ يقول<sup>(٢)</sup>: «في عصر محمد صلى الله عليه وسلم كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا في نهاية القرن التاسع عشر ، وكما يقول القرآن فقد أُنْقِدَ بدنُ هذا الفرعون ، وأيّاً كان هذا الفرعون فهو الآن في قاعة المومياط الملكية في المتحف المصري بالقاهرة ، ويستطيع الزوار أن يروروه».

### طريقة القصص في القرآن :

لما كانت القصة في القرآن تهدف إلى مقاصد دينية وإيمانية كانت طريقة القص في القرآن متميزة عن المؤلف في هذا الفن ، لكي يتلاءم أسلوب عرض القصة مع الوفاء بحق الغرض الذي سيقت لأجله ، ومن أبرز سمات طريقة القرآن في القصص ما يلي :

أولاً - القصة لا ترد في القرآن بتمامها دفعة واحدة ، بل يقتصر على الجزء الذي يناسب الغرض الذي تساق القصة لأجله ، كما يكتفي بالجملة من الآية أو شطر البيت من الشعر للاستشهاد به . وهذا الجزء الذي يُذكّر إنما يذكر بالحدود الملائمة للغرض كذلك .

قصة موسى مع فرعون في سورة غافر وردت في جو كأنه جو معركة ، لأن فيها بيان الصراع بين الحق والباطل ، والمعركة بين الإيمان والكفر ، فتذكرة السورة من القصة ما يلائم ذلك : محاولة قتل موسى ، والتفكير بقتل «أبناء الذين آمنوا معه واستحیوا نسائهم». ثم ظهور الرجل المؤمن بين قوم فرعون

(١) انظر التفاصيل المثيرة في كتاب «إبراهيم أبو الأنبياء» لعباس محمود العقاد رحمه الله .

(٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، ص ٢٦٩ .

يكتم إيمانه فينصر موسى ويدافع عنه ، واحتياط فرعون للتهرب من دلائل الحق وبراهينه إلى أن تأتي نهايته بالهلاك والعقاب الأليم . وبحفظ الله تعالى لهذا المؤمن الحكيم . **﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فَرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾** فكان الختام ملائماً لجو السورة ، كما أنه في الوقت نفسه ختام فني رائع ذلك المشهد الذي يبرز فيه فرعون وقومه قد أحاط بهم **﴿سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَغَشِّيًّا﴾** .

ثانياً - استخراج التوجيهات والعظات ، والإعلان بها في ثنايا القصة وختامها ، مما توحّي به القصة من العبر والدروس .

ففي قصة لقمان مثلاً : **﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُهُ يَا بُنْيَّ لَا تَشْرُكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** . يأتي البيان القرآني بتعقيب على هذه الموعظة بقوله تعالى : **﴿وَوَصَّيْنَا إِنْسَانًا بِوَالِدِيهِ... الْآيَاتِ﴾** .

فهذا بعد وصية لقمان الأولى ليس من كلام لقمان ، بل هو من كلام الله تعالى يوجهه سبحانه لعباده لمناسبة وعظ لقمان ، يحقق غرضين كبيرين : الأول : التأكيد على وصية لقمان **﴿لَا تَشْرُكْ بِاللَّهِ﴾** ببيان أنه أعظم الحقوق ، وأنه لا يجوز التساهل إزاء قضية الإيمان وتوحيد الله تعالى لأي اعتبار ، ولو كان هو حق الوالدين البالغ غاية التقديس .

الثاني : تأكيد حق الوالدين ، وبيان أنه أجل حقوق العباد على الإنسان ، وأقدس واجبات الإنسان تجاه الإنسان ، لكنه مع ذلك لا يقاوم حق الله تعالى . **﴿وَإِنْ جَاهَهَا كُلُّ أُنْ شَرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تَطْعُهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾** .

ومن ذلك ما نقرؤه في ثنايا حوار موسى ومؤمن آل فرعون ، فموسى يقول : **﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مَنْ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾** . وهذا يشير إلى فطاعة من اتصف بذلك ، وفي ثنايا كلام مؤمن آل فرعون : **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾** : **﴿كَذَلِكَ يَطْبِعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ﴾** .

## ثالثاً - التكرار :

والتكرار خاصة من خصائص أسلوب القرآن بصورة عامة ، وهو في طريقة عرض القرآن للقصة جزء من تلك الطريقة . ولهذا نجمع بحث هذه السمة لنلخص بحثها في هذه المناسبة في فقرتين : تكرار القصة في القرآن ، تكرار العبارات في القرآن .

### ١ - تكرار القصة في القرآن :

إن إطلاق كلمة تكرار هنا فيها كثير من التسامح والتساهل ، فإن تعرض القرآن لما حدث مع النبي من الأنبياء مع قومه في أكثر من موضع ليس هو تكراراً بالمعنى الحقيقي ، إنما هو استشهاد بالقصة لأغراض متعددة ، لذلك لا نجد القصة تعاد كما هي ، وإنما يذكر الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع . أما جسم القصة فلا يكرر إلا نادراً ، ولا استنباط دروس وعبر جديدة منه مما يجعله على الحقيقة غير مكرر . وهكذا وردت قصة آدم في ست مواضع من القرآن تثير العبر حول خطأ اتباع الهوى ومخالفة أمر الله ، وضعف الإنسان أو توبته وقبول توبته وهكذا . كذلك وردت قصة إبراهيم في نحو عشرين موضعًا ، تشير في كل موضع عبرة ودرساً ، في التوحيد ، أو الإنابة ، أو تأسيس البيت العتيق ، أو الأذان في الحج .. إلى آخر ما هنالك ..

وهكذا تكررت قصة موسى ، مع فرعون ، ومع قومه ، ومع النبي عليه شعيب في مدين : ... وفي كل موضع عبرة وعظة وحكمة ودروس .

### ٢ - تكرار العبارات في القرآن :

هذا القسم من التكرار يبرز بعض خصائص أسلوب القرآن ، وأسرار بلاغته المعجزة ، فتارة يكرر الجملة أو العبارة بنصها دون تغيير فيها ، لـما في ذلك من التأكيد ، أو التهويل ، أو التصوير ، وكل ذلك له أثر عظيم في تعميق المعنى في النفس وصدّعها بما تصر عليه . ويظهر ذلك بوضوح بالمثال الذي يتبادر للذهن أول شيء لدى ذكر التكرار ، وهو سورة الرحمن التي تكرر فيها

كثيراً قوله تعالى : **﴿فَإِنَّمَاٰ إِلَٰهُ رَبُّكُمَاٰ تُكَذِّبَان﴾** . فإن هذه السورة تعدد للمنكرين نعم الله عليهم دلالة كل نعمة على وجوب الانقياد لله تعالى شكرأ له ، وخصوصاً لعظته ، لكنهم كفروا هذه النعم فوضعوها في غير موضعها ، وكفروا بالنعم وأشركوا به غيره فعبدوا الأوثان والشركاء ، فجاءت سورة الرحمن تُحاجُّهُمْ وتحاُقُّهُمْ بإيقافهم على كل واحدة منها بالحججة الملزمة ، وهكذا بالتعداد المفصل لتلك النعم والدلائل حتى تزحزح المعاند عن عناده ، وترسخ في أعماق النفس الشعور بوجوب شكره تعالى ، فَعَقَبَ ذِكْرُ كل واحدة من النعم والدلائل بهذه الآية **﴿فَإِنَّمَاٰ إِلَٰهُ رَبُّكُمَاٰ تُكَذِّبَان﴾** .

وتارة يكون التكرار مع اختلاف في نظم الجملة ، أو إيجاز أو إطناب أو نحو ذلك . وذلك يبرز سراً من أسرار إعجاز القرآن ، وهو التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من أسلوب دون أن ينال تكرار المعنى من سموّ الأسلوب وإعجازه ، بينما لا يخلو كلام البشر في مثل هذا الحال من تفاوت بين الأسلوبين واختلاف مستوى الأداءين . وذلك من جملة تصريف البيان في القرآن الذي ذكره القرآن في مناسبات متعددة ، كقوله تعالى : **﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ..﴾**<sup>(١)</sup> وقوله : **﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لِعَلِيهِمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾**<sup>(٢)</sup> .

وحقيقة التصريف : «إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى ، خشية تناسي الأول لطول العهد به»<sup>(٣)</sup> .

وبهذا التصريف المعجز حق القرآن هدفاً عظيماً هو خطاب الناس كافة ، من تكفيه الإشارة والموجز من القول ، ومن لا يسد خلل فهمه إلا التفصيل وهكذا تنوع أسلوب القرآن .

وقد لفت هذا التصريف المعجز أنظار البلغاء وراحوا يكشفون ما في كل

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٠ .

(٢) سورة طه ، الآية ١١٣ .

(٣) كما قال الزركشي في البرهان ج ٣ ص ١٠ .

موقع من سُرّ بلاغي ، وإعجاز بياني ، حتى في الكلمة الواحدة تختلف بها العبارة من موقع إلى موقع ، ونشأ عن هذا الغرض الأخير فنّ جليل دقيق هو «متشابه القرآن اللغظي» ، صنف فيه العلماء عدة كتب ، أذكر منها كتاب «درة التنزيل وغرة التأويل» للراغب الأصفهاني .

ومن أمثلة ذلك هذا التحليل نسقه من الكتاب :

قال تعالى في سورة الأنعام<sup>(١)</sup> : «وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ» .

وقال في سورة الإسراء<sup>(٢)</sup> : «وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُم خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَاهُمْ» .

فالسؤال هنا : لم قدم في الأول : ضمير المخاطب «نحن نرزقكم» وفي الثاني ضمير الغائب : «نحن نرزقهم...» .

والجواب عن هذا من أكثر من وجه ذكر منها ما يختص بالمعنى :

إن الآية الأولى تحرم قتل الأولاد الذي يدفع إليه الفقر النازل فعلًا بالأباء كما قال «من إملاق». فناسب لذلك تقديم ذكر الآباء لأنهم هم الذين يعانون الفقر فعلًا ، وهو يدفع بعضهم للتخلص من أعز شيء عليه ، فكان الملائم للمقام هنا تقديم ذكر الآباء .

أما الآية الثانية : فتحرم قتل الأولاد الذي يدفع إليه خوف الفقر في المستقبل «خشية إملاق» لتضاعف مسؤوليات النفقة بسبب الأولاد . فناسب لذلك تقديم ذكر الأبناء «نحن نرزقهم» لضممان مستقبلهم من الله وإزاحة هذا التخوف والوسواس الذي تحرك في القلب بسببهم<sup>(٣)</sup> .

---

(١) الآية ١٥٢ .

(٢) الآية ٣٢ .

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٣٣٩ . وقد طبع هذا الكتاب منسوبياً للخطيب الاسكافي ، وذلك خطأ ، إنما هو للراغب ، كما وجدناه في مخطوطاته .

ولذلك أمثلة كثيرة أتى في دراستها العلماء بروائع الإعجاز القرآني .

### أسلوب القصة الفني في القرآن :

وأسلوب القصة في القرآن جزء من أسلوبه المعجز بخصائصه العامة .

لكننا هنا نقف على جديد في الأسلوب هو تجاوب أسلوب القصص الفني في القرآن مع أحد فنون القصة ، فأنت واجد في قصص القرآن مقومات القصة الفنية من تمهيد وعرض أحداث وعقدة وحل للعقدة ، ثم خاتمة ونهاية للقصة .

بل تجد في قصص القرآن ما لا يخطر على بالك ، ذلك هو خصوصية المسرحية وما يسمى بالأسلوب التمثيلي ، حتى إن القصة في القرآن ليتمكن أن تعرض مسرحيًا دون أي تعديل فيها . وذلك ما لا يتأتى في غيره من القصص إلا أن تكون قد كتبت وأعدت إعداداً خاصاً لهذا الغرض .

ومَنْ يَتَأْمِلُ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ غَافِرَ مِنْ قَصْصَ مُوسَى مَعَ فَرْعَوْنَ وَجَدَ مَصْدَاقَ

ذَلِكَ فِي تِلْكَ الآيَاتِ<sup>(١)</sup> :

فقد ذكر في هذه السورة من قصص موسى مع فرعون ما يلائم غرض السورة العام وهو معالجة قضية الحق والباطل ، وبدأت أولاً بهذا التمهيد : «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخْذُهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ . . . » فتهيات الأذهان بهذا التمهيد للقصة التي جاءت بمثابة المثال التطبيقي لهذه القاعدة الكلية التي مهدت بها السورة .

ثم جاءت العقدة مبكرة - وقد تأتي في مواضع أخرى متأخرة عن مثل هذا الموضع - والعقدة : «وَقَالَ فَرْعَوْنُ ذَرْوْنِي أَقْتُلُ مُوسَى وَلَيُدْعُ رَبِّهِ . . . ». وهنا يأتي دور مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه من قبل ، لكنه الآن يرى الواجب يدعوه لقوله الحق ، فتصرف بما يوجبه عليه الموقف بحكمة وتبصر . ودار الحوار وسط تشوق العقل لمعرفة النتيجة وكيف حل العقدة التي لم تتأثر بهذا المنطق السديد الحكيم ، فكان الحل أخيراً بهذا الأخذ الإلهي : «فَوَقَاهُ اللَّهُ

(١) الآيات ٤٧ - ٢٣ من سورة غافر وعلى القارئ استحضارها .

سيئاتٍ ما مكروا وحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العذاب...». وكان بعد حل العقدة انتهاء القصة بمشهد ختامي رائع ، هو مشهد أولئك الطغاة الجبارين يذوقون أليم العذاب : «النَّارُ يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا غُدُوا وَعَشِيًّا...». إلى آخر السورة وما فيها من اختصامهم في النار...

ونلمح في القصة خصوصيتين من خصائص فن القصص المسرحي :

الأولى : الاعتناء بفن التصوير ، ويظهر هنا واضحاً في رسم الشخصيات ، فشخصية موسى هي شخصية ذلك النبي الواثق بقضيته فهو يواجه تهديد فرعون باللجوء إلى الله تعالى ، وشخصية الرجل المؤمن تبدو من خلال الحوار شخصية الرجل الحكيم الذي يتبع المنطق المعقول ، مع إثارة عواطف قومه بالنداء المتكرر «يا قوم.. يا قوم..» وشخصية فرعون تبدو بجبروتها وخبيثها وإصرارها على الباطل ، يقابل دعوة الحق بسفك الدماء ، ويواجه المنطق المفهوم بالحيلة والدهاء : «يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِي أَبْلُغُ الأسباب..».

الخصوصية الثانية : حذف الشغرات بين الواقع مما لا حاجة إليه لفهم القصة ، بطريقة فنية عجيبة اخترق بها قصص القرآن أستار القرون ليأتي متلائماً مع ما يسمونه «العرض التمثيلي» الذي نما في هذا العصر إلى أبدع أسلوب وصل إليه الأدب . فنجدنا مع قصص القرآن ننتقل من مشهد إلى مشهد ، كما لو كنا أمام القضية تعرض علينا صوراً . فمن مشهد إرسال موسى ودعوته فرعون ، وتهديده فرعون بالقتل ، إلى مشهد مجلس خاص بين فرعون وحاشيته ييرز فيه مؤمن آل فرعون حيث يدور الحوار الذي يشغل القسم الأكبر من القصة ، إلى مشهد آل فرعون ، وقد حاق بهم سوء العذاب في ختام القصة .

ومن تأمل سائر قصص القرآن تبين له ما عرضناه هنا ، وتذوق إعجاز أسلوب القرآن في القصة ، وزاد إحساسه بذلك إذا لاحظ البون الهائل بين القصة في الأدب العربي وأداب العالم في عصر نزول القرآن وما تطور إليه فنها في العصر الحديث .

وأخيراً صدق الله العظيم : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى  
الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَلَكُنَا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا  
كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنٍ تَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكُنَا كَانُوا مُرْسِلِينَ ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ  
الْطَّوْرِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكُنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لَتَنذَرَ قَوْمًا مَا أَنَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ  
لَعْلَهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ .

\* \* \*

## الفصل الختامي

### حقوق القرآن على بني الإنسان

هكذا توصلنا بهذه الدراسة المحققة إلى علم اليقين بهذا القرآن وعظمته ، فقد تيقناً ألوهية مصدره وأنه تنزيل من حكيم حميد ، على قلب النبي الأمين صلى الله عليه وسلم ، وقد حُفِظَ في صدور الأمة من أيامها الأولى ودُوَّنَ في السطور ، ورُتِّبَ على وفق نسخته في الملا الأعلى في اللوح المحفوظ ، بتعليم النبي صلى الله عليه وسلم .

وأوضح لنا أيضاً منهج تفسيره ، وأنه قائم على أصول متينة هي أصول فهم كلام العرب لا يخطاها ، يؤيد هذا المنهج دراسات من أسباب النزول والمكي والمدني والمحكم والمتشبه والناسخ والمنسوخ . . .

ثم وقفنا وبالتالي خاشعين أمام إعجازه ، وأمنا بجلال هذا الإعجاز ، وشمله الأسلوب والمضمون ، البنى والمعنى ، وأنه يتلاءم مع تجدد الأدب وتقدير العلم ، في كل زمان ومكان ، وزاد تلك النتائج ثبوتاً ويقيناً دلائل إعجاز القرآن في التصوير الفني ، والكون ، والقصة ، ليتناول إعجاز القرآن الحاضر ، وما قبله من الماضي ، وما بعده من المستقبل ، كما قال عز وجل : «إنه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» .

إن هذه الحقائق لتقرر حق القرآن الواجب على بني الإنسان عامة وعلى المسلم خاصة ، أن يقوموا به حق القيام بدأب واستمرار :

إن أول حق القرآن على العالم وعلى المسلم أن يؤمن بأنه كلام الله حقاً ، أنزله على قلب رسوله الصادق الأمين ، معجزة بينة وبرهاناً قاطعاً ، يثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله إلى العالم كله على مدى الزمان ، وأنه خاتم النبيين ، لقوله تعالى : «**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**» . قوله : «**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**» . قوله : «**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِجَالِكُمْ وَلَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّنَ**» .

وإن من حق القرآن أن نعظمه غاية التعظيم ، إعظاماً لقائله عز وجل ، وإعظاماً لما أتى به من بيانات الحق وفنون الإعجاز ، وعرفاناً لفضله على العالم ، فلولا القرآن لما خرجت العرب من جاهليتها إلى نور العلم وإلى السيادة ، ولما خرجت الإنسانية من دياجير الظلم إلى نور الحضارة والعرفان .

وإن من حق القرآن على كل إنسان عامة وعلى المسلم خاصة أن يتلوه حق تلاوته ، ومن حق تلاوته قراءته حسب أصولها وإقامة حروفه ، والخشوع لدى قراءته أو استماعه ، وأن يستظهروه في حافظتهم ، وسويداء قلوبهم .

وإن من حق القرآن على كل إنسان وعلى كل مسلم أن يتدارسوا القرآن حق درسيه ، ويتفهموه على أصول فهمه ، ويدفعوا تأويل المحرفين ، ويرفضوا زيف المغرضين في فهم معانيه ، أو حقيقته ودعوته وتشريعيه .

وإن من حق القرآن على كل مسلم وعلى كل إنسان أن يعنوا العناية كلها بذوق الجمال في بلاغته وإعجاز بيانيه ، ويعتبروا بأمثاله وقصصه ومواعظه ، ويغوصوا بفكيرهم على درره ، فإنه لا تفني عجائبه .

وإن من حق القرآن على كل مسلم وعلى كل إنسان أن يتفهم علوم القرآن ، ويقف مع أحکامه ، فيصوغ منها حياته ، ويترجمها سلوكاً يعيشها ، وخلقها إنسانية يسمو بها على كل مثل العالم .

وإن من حق القرآن على كل مسلم أن يبلغ دعوة الإيمان بالقرآن إلى

العالم امثلاً للواجب ، وعملاً بالفرضية : فرضية الدعوة إلى الله التي جاء بها كتاب الله ، والتي حملها القرآن لل المسلمين عامة وللعرب خاصة ، وجعل بها عزهم وشرفهم ، واحترامهم في العالم :

قال عز وجل : «إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ» .

وقال صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخاري وغيره -:  
«بلغوا عنِّي ولو آية».

وفي هذا حث للمسلم أن يبذل ما يستطيع ، ولو بخدمة آية من كتاب الله ، فبالاستمرار يعظم الخير وتنتشر الهدایة .

اللهم وفقنا لتلاؤه كتابك حق تلاؤته ، وفهمه حق فهمه ، والعمل به حق العمل ، وخدمة الدعوة إليه ، كما تحب وترضى .

وصلى الله وسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، رحمة باقية خالدة ، وهداية كاملة شاملة ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

کتبہ

نور الدين محمد عتر  
خادم القرآن وعلومه والحديث وعلومه  
في كليات الشريعة والأداب بجامعة دمشق وحلب

## ثبات المراجع

- إبراهيم أبو الأنبياء : عباس محمود العقاد ، ط. مصر .
- الإنقاذ في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، ط. مصطفى البابي الحليبي ، مصر .
- الأحرف السبعة ومتذلة القراءات منها: للدكتور حسن ضياء الدين عتر ، ط. دار البشائر الإسلامية ، بيروت .
- أحكام القرآن : أبو بكر الرazi ، ط. البهية . مصر .
- أحكام القرآن : أبو بكر ابن العربي ، ط. السعادة ، الأولى ، مصر .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود محمد العمادي ، ط. محمد علي صبيح وأولاده بمصر .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوي مع حاشيته للكازرونی ، ط. مصر .
- الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار : للحازمي ، ط. حمص .
- إعجاز القرآن : أبو الطيب الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط. مصر .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ، ط. مصر .
- الاقتصاد في الاعتقاد : الإمام الغزالی ، ط. دمشق .
- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد الزركشي ، ط. مصر .
- بيان إعجاز القرآن : حمـد بن سليمان الخطابـي ، ط. مصر ، ضمن رسائل في إعجاز القرآن .
- تأویل مشکل القرآن : ابن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط. مصر .
- ثبات دلائل النبوة : عبد الجبار الهمـداني ، ط. مصر .
- التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، دار المعارف ، مصر .
- التفسير (أحكام القرآن) : نور الدين عـتر ، ط. جامعة دمشق .

- تفسير القرآن الحكيم (المثار) : محمد عبده ، ط. دار المثار ، الثالثة ، مصر .
- التفسير الواضح : محمد محمود حجازي ، ط. الثالثة ، دار الكتاب العربي ، مصر .
- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير الدمشقي ، ط. مطابع دار الشعب ، مصر .
- تفسير القرآن العظيم : سهل التستري ، ط. مصر .
- التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي ، ط. السعادة ، مصر .
- تلاوة القرآن المجيد : لفضيلة أستاذنا الشيخ عبد الله سراج الدين ، ط. حلب .
- الجامع (سنن الترمذى) : أبو عيسى الترمذى ، ط. مصطفى البابى الحلبى ، مصر .
- جامع الأحاديث : جلال الدين السيوطي ، ط. دمشق .
- جامع البيان في تفسير القرآن : محمد بن جرير الطبرى ، ط. مصر .
- الجامع الصحيح : البخارى ، ط. الأميرية ، بولاق ، مصر ١٣١٤ .
- الجامع الصغير للسيوطى : نسخة شرحه فيض القدير ، ط. مصر .
- الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ، ط. دار الكتب المصرية .
- الجوادون الحسان في تفسير القرآن : الشعاعى ، ط. الشركة المتحدة ، بيروت .
- الجوادون في تفسير القرآن الحكيم : طنطاوى جوهرى ، ط. مصطفى البابى الحلبى .
- روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : الألوسى ، ط. الأميرية ، بولاق .
- الروض الأنف : السهيلى ، ط. السلطان عبد الحفيظ ، مصر .
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : موريس بوکاى ، ط. دار المعارف ، مصر .
- درة التنزيل وغرة التأويل : الراغب الأصفهانى ، ط. مصر<sup>(١)</sup> .
- زاد المعاد في هدى خير العباد : ابن قيم الجوزية ، ط. دمشق .
- السنن : أبو داود السجستانى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط. مصر .
- السنن : ابن ماجه القزوينى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط. مصر .
- السنن : الدارقطنى ، ط. الهند .

---

(١) عزي هذا الكتاب في الطبعة إلى الخطيب الاسكافي وهو خطأ .

- السنة المطهرة والتحديات : نور الدين عتر ، ط. الثانية ، دمشق .
- سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ط. مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية : للقسطلاني ، ط. الأزهرية ، مصر .
- صحيح مسلم : دار الطباعة العامرة ، إستانبول .
- الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي ، مصر .
- العقيدة والشريعة في الإسلام : أجناس جولدزيهر ، ط. مصر .
- العلل : الترمذى ، بشرح الحافظ ابن رجب ، تحقيق نور الدين عتر ، ط. دمشق .
- فتح الباري : شرح صحيح البخاري ، الحافظ ابن حجر ، ط. الخيرية ، مصر .
- فضائل القرآن : ابن كثير ، في خاتم التفسير ، ط. عيسى البابى الحلبي ، مصر .
- الفوائد البهية في تراجم الحنفية : للكنوى ، ط. الأولى ، السعادة ، مصر .
- القرآن الكريم والدراسات الأدبية : نور الدين عتر ، ط. جامعة دمشق .
- الكشاف : الزمخشري ، ط. الاستقامة ، الطبعة الثانية ، مصر .
- لباب التأويل في معانى التنزيل : الخازن ، ط. الأميرية ، بولاق ، مصر .
- لباب النقول في أسباب النزول : السيوطي ، مع تفسير الجلالين .
- لطائف الإشارات : القشيري ، ط. الهيئة العامة للكتاب ، مصر .
- لوائح الأنوار البهية : السفاريني ، ط. مجلة المنار ، مصر .
- مباحث في التفسير الموضوعي : مصطفى مسلم ، ط. دار القلم ، دمشق .
- المجتبى (سنن النسائي) : بحاشيتي السيوطي والسندى ، تصوير بيروت .
- محاضرات في تفسير القرآن الكريم : نور الدين عتر ، جامعة دمشق .
- المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز : ابن عطية الأندلسى ، ط. المغرب .
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل : النسفي ، ط. مصر .
- المدخل إلى دراسة القرآن الكريم : محمد محمد أبو شهبة ، ط. مصر .
- مذاهب التفسير الإسلامي : أجناس جولدزيهر ، ط. مصر .
- المرشد الوجيز : أبو شامة المقدسي ، ط. دار صادر ، بيروت .
- المستدرک على الصحیحین : الحاکم ، ویذیله تلخیص المستدرک للذهبی ، ط. الهند .
- المسند : الإمام أحمد بن حنبل ، ط. المیمنیة وط. دار المعرف . میزنا بینہما برقم الحديث .
- المصاحف : ابن أبي ذاود ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت .
- المصباح المضي في كتاب النبي العربي : ابن حَدِيدَةُ الْأَنْصَارِي ، ط. مصر .

- المعجزة الخالدة : حسن ضياء الدين عتر ، ط. حلب .
- المعجزة الكبرى : محمد أبو زهرة ، ط. مصر .
- معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس ، ط. مصر .
- معرفة علوم الحديث : الحاكم ، ط. دار الكتب المصرية .
- المغني : القاضي عبد الجبار الهمذاني ، ط. مصر (المجلد ١٦) .
- مقدمة التفسير : ابن تيمية ، ط. مصر .
- مقدمة التفسير : الراغب الأصفهاني ، ط. مصر . (آخر المفردات) .
- مقدمة كتاب المباني في تفسير القرآن : ط. الخانجي ، مصر .
- مقدمة ابن خلدون : ط. دار التقدم ، مصر ، سنة ١٣٢٩ .
- المقفع : أبو عمرو الداني ، ط. دمشق .
- مناهل العرفان في علوم القرآن : الزرقاني ، ط. مصر .
- منجد المقرئين : ابن الجزري ، ط. مصر .
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : النووي ، ط. مصر .
- منهج الفرقان في علوم القرآن : محمد علي سلامة ، ط. مصر .
- منهج النقد في علوم الحديث : نور الدين عتر ، ط. دار الفكر ، دمشق .
- من وحي القرآن : نقولا حنا ، ط. بيروت .
- موارد الظلمان بزواائد صحيح ابن حبان : الهيثمي ، ط. السلفية ، مصر .
- المواقفات : الشاطبي ، ط. مصر .
- الموطأ : الإمام مالك ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مصر .
- النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز ، ط. مصر .
- النشر في القراءات العشر : ابن الجزري ، ط. مصر .
- النكت في إعجاز القرآن : الرمانى ، ضمن رسائل في إعجاز القرآن ، ط. مصر .
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان : الشيخ عبد الله سراج الدين ، ط. حلب .
- هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الطهارة والصلوة : نور الدين عتر ، ط. دمشق .
- الوحدة الموضوعية في القرآن : محمد محمود حجازي ، ط. مصر .
- الوحي المحمدي : محمد رشيد رضا ، ط. دار المنار ، مصر .
- وحي القلم : مصطفى صادق الرافعي ، ط. مصر .

\* \* \*

## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
خطبة المؤلف في وجوب تزود المسلم بهذا العلم وبيان خطة الكتاب .. . . . .	٥
الفصل الأول : التعريف العام بعلوم القرآن .. . . . .	٧ - ٩
تعريف «علوم القرآن» لغة ، وسعة العلوم التي يشملها .. . . . .	٧
تعريف «علوم القرآن» اصطلاحاً ، والتتبّيه في الحاشية على خطأ فيه .. . . . .	٨
أهم المؤلفات القديمة والحديثة في هذا العلم .. . . . .	٨
الفصل الثاني : القرآن والوحى وتنزلاته .. . . . .	١٠ - ٢٤
القرآن : تعريف القرآن لغة ، واصطلاحاً ، وبيان خصائصه وأسمائه .. . . . .	١٠
الوحى : تعريفه لغة ، واصطلاحاً ، وشرحه من السنة .. . . . .	١٤
كيفيات الوحي وبيان تحقيق رجوعها كلها إلى نص القرآن فيها .. . . . .	١٦
ظواهر الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم .. . . . .	١٩
شبهات أعداء الأنبياء على الوحي والرد عليها .. . . . .	٢٢
الفصل الثالث : نزول القرآن منجماً وأسراره .. . . . .	٢٥ - ٣٤
بيان القرآن لنزوله ، واستخراج تنزلاته من الأدلة .. . . . .	٢٥
التحقيق في عدد تنزلات القرآن وبيان الحكمة منها .. . . . .	٢٦
نزول القرآن منجماً على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .. . . . .	٢٧

بيان القرآن للحكم من نزوله منجماً وشرحها : .....	٢٨
أولاً : تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وال المسلمين ، وأثره في تاريخنا .....	٢٩
ثانياً : مواجهة ما يطرأ من أمور تمس الدعوة كرد شبهة وجواب سؤال ..	٣٠
ثالثاً : تعهد المسلمين لتربيتهم على النهج الإسلامي .....	٣٢
رابعاً : التنبية على وجه من إعجاز القرآن بترتيبه وفق اللوح المحفوظ ..	٣٤
<b>الفصل الرابع : أول ما نزل وأخر ما نزل من القرآن .....</b>	<b>٣٨ - ٣٥</b>
أول ما نزل مطلقاً «اقرأ» والجواب عن رواية «يا أيها المدثر» ..	٣٥
آخر ما نزل ، وتصحيح الخطأ الشائع في آية «اليوم أكملت...» ..	٣٦
الأوائل والأواخر النسبية (أو المقيدة) في نزول القرآن .....	٣٧
<b>الفصل الخامس : ترتيب آيات القرآن الكريم وسورة .....</b>	<b>٤٥ - ٣٩</b>
تعريف الآية والسورة ودلالة هاتين التسميتين .....	٣٩
الحكم من كون القرآن آيات وسوراً كثيرة .....	٤٠
مصدر ترتيب القرآن والإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي ..	٤٠
تحقيق أن ترتيب السور توقيفي ورد ما يوهم خلاف ذلك .....	٤٢
الإجماع على لزوم ترتيب المصحف والتحذير في التعليق من مخالفته ..	٤٥
<b>الفصل السادس : أسباب النزول .....</b>	<b>٥٤ - ٤٦</b>
تعريف سبب النزول والتحذير من عدم مراعاة شروط التعريف ..	٤٦
فوائد أسباب النزول في التفسير ، وكشف إعجاز القرآن .....	٤٧
كيف نعرف أسباب النزول ، والتحذير من الخلط فيها ..	٤٨
اختلاف روايات أسباب النزول وما يتفرع عنها من أحوال ..	٤٩
قاعدة : العبرة لعلوم اللفظ لا لخصوص السبب ..	٥٢
أشهر المؤلفات في علم أسباب النزول .....	٥٣
<b>الفصل السابع : المكي والمدني .....</b>	<b>٦٣ - ٥٥</b>
ضابط المكي والمدني واعتماد الهجرة حداً فاصلاً بينهما ..	٥٥
أثر علم المكي والمدني في فهم القرآن وتاريخ التشريع ..	٥٧

كيف نعرف المكي والمدني وضوابط كلية لتمييزهما .....	٥٨
سمات إجمالية للمكي والمدني (القرآن المكي من حيث الموضوع) ..	٦٠
القرآن المدني من حيث الموضوع .....	٦٥
القرآن المكي من حيث الأسلوب .....	٦٦
القرآن المدني من حيث الأسلوب .....	٦٨
كشف أباطيل المستشرقين في المكي والمدني .....	٦٨
<b>الفصل الثامن : التفسير : أصوله ومصادره .....</b>	<b>٧٢ - ٨٨</b>
أهمية التفسير وتعريفه وتعريف التأويل .....	٧٢
مراتب التفسير وحكمها كما صنفها ابن عباس رئيس المفسرين ..	٧٣
أقسام التفسير من حيث منهجه : تفسير مأثور وتفسير بالرأي ..	٧٤
القسم الأول : التفسير بالمأثور : تعريفه وتاريخه .....	٧٤
أسباب الضعف في التفسير المأثور .....	٧٤
أولاً : الإسرائيليات ، وأقسامها وحكم كل قسم منها ..	٧٥
ثانياً : حذف الإسناد . وثالثاً : كثرة الوضع .....	٧٦
أهم المصنفات في التفسير المأثور والتعريف بها موجزاً ..	٧٧
تفاصيل الطبرى وابن كثير والخازن والشعالى .....	٧٧
القسم الثاني : التفسير بالرأي والخلاف فيه .....	٨٥
التحقيق أن الخلاف لفظي ووجوب التحرى في التفسير .....	٨٧
أهم العلوم التي يحتاج إليها المفسر وهي شرط أساسى ..	٨٧
أهم المصنفات في التفسير بالرأي والتعريف بها موجزاً ..	٨٨
تفاصيل : الزمخشري والبيضاوى والنفى وأبى السعود والألوسى ..	٨٨
شروط المفسر والقواعد التي يحتاج إليها .....	٩٤
<b>الفصل التاسع : التفسير الإشاري .....</b>	<b>٩٧ - ١٠٢</b>
وهو التفسير الصوفى لكن آثرنا هذه التسمية للدلالة على الانضباط ..	٩٧
الأصل في التفسير الإشاري فعل الصحابة .....	٩٧
شروط التفسير الإشاري ، والتحذير من المتلاعبين الذين يخلون بها ..	٩٨
التعريف بتفسير التسترى ولطائف الإشارات للقشيري .....	١٠٠

<b>الفصل العاشر : التفسير الفقهي .....</b>	<b>١٠٣-١٠٩</b>
تعريف التفسير الفقهي ونشأته .....	١٠٣
أشهر ما ألف فيه : .....	١٠٤
١ - أحكام القرآن للرازي (الجصاص) .....	١٠٤
٢ - الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي .....	١٠٧
<b>الفصل الحادي عشر : التفسير في العصر الحديث .....</b>	<b>١١٥-١١٦</b>
أثر الصراع الفكري في التفسير في العصر الحديث .....	١١٥
أمثلة من التأثر بالنزعة المادية في التفسير .....	١١٦
نشاط الدراسات القرآنية في المرحلة الأخيرة وأقسام التفسير المعاصرة ..	١١٧
١ - التفسير المنهجي : وما يؤخذ على التفسير الواضح .....	١١٨
٢ - التفسير الأدبي الاجتماعي وإبرازه فن التصوير .....	١١٩
٣ - التفسير العلمي ولزوم الاحتياط فيه .....	١١٩
٤ - التفسير العام والتحذير من كثرة الخطأ فيه .....	١١٩
٥ - التفسير الموضوعي وأهميته البالغة .....	١٢٠
<b>الفصل الثاني عشر : ترجمة القرآن الكريم وحكمها .....</b>	<b>١١٦-١١٩</b>
الترجمة قسمان حرفية وهي مستحيلة ، وتفسيرية وهي ممكنة وواجبة ..	١١٦
حكم الترجمة التفسيرية : واجبة وهامة في الدعوة ..	١١٧
شروط الترجمة التفسيرية ، ورأينا في مشروعات منها ..	١١٨
<b>الفصل الثالث عشر : المحكم والمتشابه .....</b>	<b>١٢٠-١٣٠</b>
المعاني التي ورد بها الإحکام والمتشابه في القرآن ..	١٢٠
تعريف المحكم والمتشابه في ضوء الآية من سورة آل عمران ..	١٢١
هل يمكن تفسير المتشابه وتحقيق المذاهب فيه والتوفيق بينها ..	١٢٢
متشابه الصفات وتحقيق مذهب السلف فيها بتوثيقات ضافية ..	١٢٤
لماذا ورد المحكم والمتشابه في القرآن ..	١٣٠
<b>الفصل الرابع عشر : الناسخ والمنسوخ .....</b>	<b>١٣١-١٣٥</b>

تعريف النسخ لغة واصطلاحاً .....	١٣١
تقسيم النسخ بحسب نصيه وبقاء أصله أو نسخه .....	١٣٢
حكمة وقوع النسخ وتحويل الإنسانية إلى مرحلة البلوغ والرشد .....	١٣٢
الرد على اليهود منكري النسخ وإدانتهم من واقع شرائعهم .....	١٣٤
<b>الفصل الخامس عشر : الأحرف السبعة .....</b>	<b>١٤٥-١٣٦</b>
تعريف الأحرف السبعة لغة واصطلاحاً .....	١٣٦
بيان الأحرف السبعة في الحديث النبوى وإثبات توادرها .....	١٣٧
دللات الأحاديث على أصول الموضوع .....	١٣٩
الأحرف السبعة غير القراءات السبع والتحذير من الخلط بينها .....	١٤٠
ما هي حقيقة الأحرف السبعة .....	١٤١
المذهب الأول : استقراء أوجه الخلاف وتصنيفها و اختيارنا التصنيف الأمثل .....	١٤٢
المذهب الثاني : الأحرف السبعة سبع لغات لقبائل العرب .....	١٤٣
أين الأحرف السبعة .....	١٤٤
<b>الفصل السادس عشر : القراءات القراء .....</b>	<b>١٥٤-١٤٦</b>
تعريف القراءة ومن هو المقرئ .....	١٤٦
ضابط القراءة المقبولة وتفسير شروطه وتضمنه صفة التواتر .....	١٤٧
أنواع القراءات حسب أسانيدها وما يجوز القراءة به وما يحرم .....	١٤٨
القراءات المتواترة وقرأوها واستناد ذلك إلى تلقى الصحابة وقارائهم ..	١٤٩
شبهات بعض المستشرقين والمعاصرين حول القراءات وكشف الزيف في مزاعمهم .....	١٥٠
القراءات الشاذة وبيان قيمتها في الفقه واللغة .....	١٥٣
أهمية الأحرف السبعة والقراءات من الناحيتين اللغوية والعلمية .....	١٥٤
<b>الفصل السابع عشر : فوائح السور .....</b>	<b>١٦٠-١٥٥</b>
حسن الافتتاح وتنوع أساليبه في القرآن .....	١٥٥
حروف التهجي في فوائح السور والمذاهب في المراد منها .....	١٥٥
الجمهور أنها أسماء للسور سميت بها إشارة إلى الإعجاز .....	١٥٦
المحققون أنها إشارة إلى إعجاز القرآن .....	١٥٦

آراء تفسرها بكلمات يوجد فيها حرف منها .....	١٥٧
تأييد الرأي الأول والثاني والتوفيق بينهما .....	١٥٧
ضعف تفسيرها بطريق الرمز لاسم أو حادث أو نحو ذلك .....	١٥٨
بيان العلماء دقة التناصب بين هذه الحروف و سورها .....	١٥٨
ابطال الحساب الرقمي (في الحاشية) .....	١٥٩
تحقيق نتيجة الدراسة .....	١٥٩

## الفصل الثامن عشر : جمع القرآن الكريم حفظاً في الصدور والسطور ..... ١٦١-١٨٦

جمع القرآن في الصدور ، والنبي صلى الله عليه وسلم أعظم العالم حفظاً للقرآن .....	١٦١
حفظ الصحابة للقرآن وعوامل حفظهم وكثرة حفاظهم بما يفوق التواتر ..	١٦٢
إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض الحفاظ لتفرغهم والتنويه بهم	١٦٤
أشهر قراء الصحابة وحل إشكال بعض الروايات في الحاشية .....	١٦٥
جمع القرآن تدويناً في السطور وابتداؤه من أول الوحي .....	١٦٧
جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وتحقيقنا بوجود مصاحف آنذاك .....	١٦٨
جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .....	١٦٩
احتياط الصحابة وإجماعهم في جمع القرآن وثناؤهم على عمل الصديق	١٧١
جمع القرآن بنسخ المصاحف على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .	١٧٢
شروط الكتابة في المصاحف العثمانية واحتياطها للكمال والإتقان .....	١٧٤
نشر المصاحف العثمانية وإجماع الأمة على اعتمادها .....	١٧٦
فضيلة عمل عثمان وخبر مصاحفه والمصحف الشامي بدمشق .....	١٧٧
حفظ الله تعالى القرآن العظيم بدلائل القرآن والعقل القطعية .....	١٨٠
<b>الفصل التاسع عشر : رسم القرآن الكريم ..... ١٨٧-١٩٠</b>	
تعريفه وبيان مصدره من إملاء النبي صلى الله عليه وسلم .....	١٨٧
الرسم توقيفي لا يجوز مخالفته ، واستثنى بعض العلماء حالات خاصة	١٨٨
أحكام تختص بالمصحف لتعظيمه وحرمة ..... ١٨٩	

## الفصل العشرون : إعجاز القرآن الكريم .. ١٩١-٢٢٣

تعريف المعجزة والفرق بينها وبين الكرامة والسحر ..	١٩١
تنوع المعجزات وحكمته في ملاعنة حال الناس ..	١٩٢
مصدر علمنا بإعجاز القرآن : القرآن يتحدى العالم ..	١٩٣
القدر المعجز من القرآن . سورة قصيرة أو ما يعادلها ..	١٩٤
خصائص المعجزة القرآنية . وتنبيه في الحاشية على حقيقة المعجزة ..	١٩٤
شهادة العالم بإعجاز القرآن ..	١٩٦
شهادة بلغاء العرب بإعجاز القرآن ..	١٩٧
بلغاء كبار سمعوا القرآن فأمنوا ..	٢٠٠
شهادة بلغاء كبار من النصارى بإعجاز القرآن ..	٢٠١
منشأ إعجاز القرآن ونقد مذهب الصرفة ..	٢٠٣
أوجه إعجاز القرآن الكريم ..	٢٠٤
تلخيص هام للقرطبي لأوجه إعجاز القرآن في بحث المتقدمين على عشرة أوجه ..	٢٠٥
عناية العلماء المعاصرین بكشف أوجه الإعجاز في ضوء الدراسات	
القديمة والحديثة وتلخيصنا نتائج ذلك ..	٢٠٨
<b>القسم الأول : أسلوب القرآن الكريم وفيه أوجه :</b>	٢٠٩
الوجه الأول : تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهه ..	٢١٠
الوجه الثاني : القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى ..	٢١١
الوجه الثالث : خطاب العامة وخطاب الخاصة ..	٢١٢
الوجه الرابع : إقناع العقل وإمتاع العاطفة ..	٢١٢
الوجه الخامس : تألف الألفاظ والمعاني ..	٢١٤
<b>القسم الثاني : إعجاز القرآن بالمضمون ..</b>	٢١٥
<b>الوجه الأول : الإخبار عن الغيب وأقسامه : المستقبل ، الحاضر ،</b>	
الماضي ..	٢١٦
<b>الوجه الثاني : الإعجاز التشريعي وله نواح كثيرة ..</b>	٢١٩
<b>الوجه الثالث : اتساق نظريات القرآن وأحكامه ..</b>	٢٢١
<b>الوجه الرابع : تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة ..</b>	٢٢٢

الفصل الحادي والعشرون : التصوير في القرآن .....	٢٣٢-٢٢٤
هذا الفن يبرز تجدد إعجاز القرآن وفق أي مقياس فني سليم في أي عصر	٢٢٤
وسائل التصوير الفني في القرآن : الحرف ، الكلمة ، الجملة .....	٢٢٦
القرآن يسبق وسائل التصوير الفني والحسي المعاصرة .....	٢٣٢
<b>الفصل الثاني والعشرون : الكون في القرآن .....</b>	<b>٢٣٩-٢٣٣</b>
تقديم العلم أبرز وجهاً عظيماً من إعجاز القرآن .....	٢٣٣
يتلخص إعجاز القرآن العلمي في ركين أساسيين .....	٢٣٣
الموازنة بين القرآن والكتب السابقة برهان جديد على إعجاز القرآن ..	٢٣٥
الأصول العامة لحديث القرآن عن الكون .....	٢٣٦
شروط تفسير الآيات الكونية (التفسير العلمي) .....	٢٣٩
<b>الفصل الثالث والعشرون : القصة في القرآن .....</b>	<b>٢٤٠-٢٥٤</b>
أهمية دراسة القصة في القرآن وبيان أهدافها .....	٢٤٠
قصص القرآن حقيقة تاريخية .....	٢٤٥
طريقة القصص في القرآن .....	٢٤٧
التكرار في القصة وفي أسلوب القرآن عامـة .....	٢٤٩
أسلوب القصة وسيقه لما يسمى بالأسلوب التمثيلي .....	٢٥٢
<b>الفصل الختامي : حقوق القرآن على بني الإنسان .....</b>	<b>٢٥٥-٢٥٧</b>
توصلنا بهذه الدراسة إلى علم اليقين بالقرآن ويعظمته .....	٢٥٥
أول حقوق القرآن على العالم : الإيمان به ، وإعظامه .....	٢٥٦
من حقوق القرآن تلاوته والعمل به وتبلیغه ولو آية .....	٢٥٧

\* \* \*

## كتب للمؤلف

### في تحقيق المخطوطات :

- علوم الحديث للإمام ابن الصلاح الشهري . (طبعه سادسة بتحقيق جديد وتعليقات موسعة) .
- المغني في الضعفاء للإمام شمس الدين الذهبي . (طبعه مدققة بتحقيق جديد وتعليقات معدلة وموسعة) .
- الرحلة في طلب الحديث ، للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب . (الطبعة الرابعة) .  
وهو كتاب فريد يتحدث عن الرحلة في طلب الحديث الواحد .
- شرح علل الترمذى للحافظ ابن رجب الحنبلي . (الطبعة الثالثة) .
- إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلق صلى الله عليه وسلم ، للإمام النووي (الطبعة الثالثة) .
- هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المذاهب ، للإمام المحدث الحافظ المجتهد عز الدين بن جماعة الكنانى .

### في التأليف العلمي المتخصص :

- الإمام الترمذى والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين (الطبعة الثانية) .
- منهج النقد في علوم الحديث . (الطبعة الخامسة - منقحة) .
- معجم المصطلحات الحديثية .
- (باللغتين العربية والفرنسية) . حائز على الجائزة الأولى لمسابقة الدراسات الحديثية ، للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - جامعة الدول العربية) .
- تصدر معجم المصنفات في الدراسات الحديثية .  
(حاصل على الجائزة الثانية لمسابقة الدراسات الحديثية المذكورة) .
- هدى النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخاصة . (طبعه ثالثة) .

- دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الأول) . (العبدات) الطبعة السادسة .
- دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الثاني) . (المعاملات) الطبعة السابعة .
- دراسات منهجية في الحديث النبوي (الأسرة والمجتمع) . (الطبعة الثالثة) .
- النكاح في سن النسائي والأدب في سن الترمذى (الطبعة الرابعة) .
- الحج والعمرة في الفقه الإسلامي . (موضح بالمصورات الجغرافية) (الطبعة الثالثة) .
- محاضرات في تفسير القرآن (الطبعة الخامسة) .
- الإحرام (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت) .
- الإحصار (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت) .
- علم الحديث والدراسات الأدبية (الطبعة الرابعة) .
- خروج النظم المصرفية عن أحكام الشريعة الإسلامية وطرق علاجها .
- (خاص بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) .
- المسانيد ومكانتها في علم الحديث .
- أصول الجرح والتعديل .
- خبر الواحد الصحيح وأثره في العقيدة والعمل .
- القرآن الكريم والدراسات الأدبية (الطبعة الرابعة) .
- علوم القرآن الكريم .

#### أبحاث ثقافية إسلامية :

- المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام (الطبعة الثامنة) .
- أبغض الحال . (الطبعة السادسة) .
- أحسن الدعوة وأخلاق الدعاء (طبع الآلة الكاتبة) . (تحت الطبع) .
- الأحاديث المختارة من جوامع الإسلام (أملية جامعية) .
- تفسير سورة الفاتحة في ضوء السنة النبوية وعلوم البلاغة واللغة العربية .
- ماذا عن المرأة (الطبعة السابعة) .
- السنة المطهرة والتحديات (الطبعة الثالثة) .
- الفكر المسلم (في الثقافة الإسلامية) .

\* \* \*